رحلة صالح

إيـاد هنـدي

الكتاب : رحلة صالح (رواية)

المؤلف : إياد هندي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٤٣٠٣/ ٢٠١٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 128 - 4

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر



رحلة صالح

الكتاب الأول :

خان السلمان

إيـاد هنـدي



(وحيدًا ثانية، أشعر بشدة الوحدة والشقاء

من ثانية

في عالمٍ يملأه الحزنُ والجفاء

أحسٌّ فيه أني لا يمكنني الاختفاء

تصوريني بقلبٍ مكسورٍ وممزق الأشلاء

انظري للدموع المنهمرة على وجهي بسخاء).

بعضُ كلماتٍ من أغنية كنتُ أردِّدها في ذهني، وأتسلى بها بعد أنْ عَلِقَتْ برأسي منذ سماعها على موجات المذياع الصغير الذي أحمله في جيب سروالي، وأنا منهمكٌ في العمل تحت أشعة الشمس، التي كانتْ تسطع بشدة في ظهيرة نهار ذاك السبت الحار جدًا كحال كل أيام الصيف من شهر حزيران، ولهيبها يكوي أجسادنا المتعبة، وبالكاد كنا أنا وأخي سجر من شدة القيِّض قادرين على إتمام عملنا بجهدٍ كبير، وداهمني وقتها ظمأٌ شديدٌ، وكنتُ أتعطش إلى الندى من الماء، وأبحث عن الفيئ في جحور الأرض هربًا من لسع نورها القادم من كبد السماء، ولكنْ لا مفر منها، ولا بد من جني المحصول الذي آن آوان قطفه في نهاية هذا الموسم المثمر ـ كالعادة هنا ـ في

أرضنا السخية، ولا بد من استكماله قبل جفافه وتلفه من وهج أشعة الشمس التي لا ترحم.

وابتدأنا في عملنا هذا كما درجنا عليه يوميًا في المزارع القريبة من تخوم قريتنا منذ فجر صباحنا الباكر على نداء عزوز الديك، الذي أعلن عن بدء انطلاق العمل من موقعه المفضل على السور الخشبي بالقرب من شباك غرفتي، وكأنه لم يجد أفضل مكان في الحديقة ليصرخ فيه سوى بالقرب من هذه النافذة المفتوحة على مصراعيها؛ لتلطف حرَّ الصيف في غرفتي الخالية من أي وسيلة من وسائل التكييف الحضارية... وكلما أدمتُ النظر إلى عزوز، وأطلتُ الرنا إليه معاتبًا ومستنكرًا، كان يرد عليَّ بصراخٍ أعلى، جعلني أيأس من تكرار اللوم له وتوبيخه، وكم تمنيتُ أنْ أتعلم مخاطبته بلغته القاقية؛ لأُفهِّمه وأُعلِّمه بشكلٍ حضاري أنَّ زعيقه مؤلم لطبلة الأذن الإنسانية مرهفة السمع...

ولكني تناسيتُ كل هذا الانزعاج الصباحي الذي يحدث يوميًا، بعد تناول الإفطار الشهي الذي أعدته والدتي من خبزٍ طازج وساخن، وبعض الجبن الأبيض الهش، والزبادي المحلى من خير بقرتنا التي تعطينا الحليب بلا مقابل.

وارتحلنا بعد أنْ شددنا من آزرنا سائرين إلى الأرض، حيث أمضينا كل ساعات النهار في قطع الطماطم، وترتيبها في صناديق خاصة بها، وكنا نحمِّلها على ظهر العربة الخشبية، التي يجرها "أبو صابر" الحمار إلى المستودع بالقرب من البستان الذي نعمل به، ويعود إلينا صاغرًا لنحمِّله بالمزيد من تلك الصناديق الممتلئة

بقيادة والدي (الذي كان شديد الرأفة بالحمار لأهميته الشديدة لنا) ولم أعد قادرًا على حساب عدد المرات، التي ارتحلها أبو صابر من وإلى المستودع؛ لأنَّ يدي كانتْ منهمكة بمسح العرق المتصبب بغزارة على بدني من جرَّاء الحر اللاهب، وترتيب الطماطم كذلك في الصناديق، ولأنَّ ذهني كان مشغولًا جدًا باستذكارالرسالة المبهمة، التي أرسلها لي صديقي منير منذ حين، والذي ارتحل إلى المدينة حلمه الكبير، وترك قريتنا مسقط رأسه؛ لسأمه من حاله البائس، وسخطه الشديد على عمله كفلاح في هذه الأرض بحسب قوله لي قبل أنْ يغادرنا قبل أشهرٍ قليلة في الشتاء، عندما كان البرد يعصف بالقرية، والطرق كانتْ متجمدة، وحتى الطيور كانتْ تحتمي من البرد بالقرب من نافذتي التي تشع حرارة من المدفأة الزيتية، ولما عادتْ والدته بالأمس من زيارته للمرة الثانية هناك في المدينة التي ارتحل إليها للعمل، وتبعد كثيرًا جدًا عن قريتنا، جلبتْ لي رسالة منه عندها سألتها عن أحواله، أجابتني بأنه يشقى كثيرًا بالعمل هناك، ولكنه بالتأكيد لا يود العودة بأي حال إلى هنا على الرغم من توسلاتها المتكررة له، ولم توضح لي ماذا كان عمله الذي يؤديه هناك ربما لخجلها... وحتى رسالته إلي كانتْ غامضة بهذا الشأن، واقتصرتْ على كلام فلسفي مبهم بالتأكيد، لا يتوافق مع طبيعتنا كفلاحين إذ قد نبدو للعيان جهلة وغير متعلمين، ولكننا كنا نتخاطب بهذا الكلام المشفر حتى يصعب على أي أحد أنْ يقرأ الرسالة (التي تصلني باليد مفتوحة لعدم وجود خدمة بريد في قريتنا المغمورة) أنْ يفهمها سوانا نحن الاثنان، وهي مقتطفات من

كُتبٍ كنا نقرأها في أوقات فراغنا في المساء؛ لحبنا للأدب والثقافة، وكذلك لعدم وجود أي شيء آخر نفعله، أو نشاهده في القرية بعد أنْ نفرغ من عمل الأرض سوى السير حول البساتين المحيطة بالقرية، أو الجلوس أحيانًا في القهوة التي يوجد فيها التلفاز الوحيد المتوفر في القرية، الذي لا يعرض سوى بعض الأخبار السياسية، والبرامج الرياضية عندما يعمل، وكذلك ملّلنا من تكرار سماع قصص الماضي غير المجدية، والتي كانتْ تعاد علينا ببطءٍ شديد في المجالس التي كانتْ تقام في القرية من الحين للآخر، والتي يتكلم فيها الخطيب من الواعظين الزائرين والقادمين إلينا من قرى بعيدة، ونستمع إليه جالسين، ومتكورين على أرض الإيوان عن قصص الماضي وأبطاله الخياليين، وعن شجاعتهم وبأسهم المزعوم، ونهايتهم التراجيدية المأسوية في سبيل القضية التي لا نعلم ما هي، وبعدها نعاقب أنفسنا لإضاعة الوقت في الإصغاء إليه والإنصات إلى ترهاته؛ على عكس الكثيرين من أهل القرية، الذين يمضون الوقت صاغرين إليه متلهفين لما سوف يقوله، ومستمعين لكل كلمة تنطلق منه، ومتقمصين لتلك النماذج الخيالية الوهمية، ولكنْ في داخلي كنتُ أحس بالبؤس الشديد لهم؛ لأنهم يعيشون في فيض الماضي البائد السحيق، وينهلون من أطياف ما مضى وانتهى، ويتناسون الواقع الحاضر الحي المتدفق، وينسجون المستقبل القادم الغامض من خيوط ركام أصنام الماضي البالية، الذي يتمزق ويتقطع عند أول امتحان وتجربة، ويعتمرون على رؤوسهم عمامات من واراهم الثرى، ومَنْ اندثرتْ بقاياهم في الرماد الذي

يذره الريح كلما هب، ويبعثره في مختلف الأرجاء المعمورة والخربة...

على أيَّة حال كتب لي هذه المرة صديقي المهاجر والبعيد عني، رسالة جديدة يشرح لي فيها حاله هناك، وتتضمن نصًا جديدًا لم يمر علي من قبل، ولكنه أشار لي في بدء الرسالة إلى أنها مقتطفات من كتاب يدعى "تفسير الأحلام"، والذي لم أقرأه من قبل، وكان لابد لي من فك طلاسم ما كتبه صاحبي هذا؛ لأفهم ماذا يود أنْ يخبرني به في رسالته القصيرة... وأخرجتها من جيبي للمرة الثانية هذا اليوم؛ لأقرأها مجددًا عسى أنْ أفقه شيئًا ما مما كتب لي فيها:

(صديقي العزيز صالح

بعد السؤال عن حالكَ، والاطمئنان على صحتكَ، أودُّ أنْ أُفضي إليكَ بأني منذ أنْ غادرتُ قريتنا، ورحلتُ إلى المدينة ساعيًا وطامحًا، وأنا لا أزال أُكابد المُرَّ في العيش، وأُجاهد يوميًا في كسب الرزق، ولم أجد في يومٍ ما من راحة أو سكينة في هذا المكان الموحش والصاخب، الذي لا يعرف الهدوء والركود، ولكنَّ عزائي أني أجد وقتًا ما قبل أنْ آوي إلى فراشي المقفر؛ لأقرأ فيه بعض أسطر من صفحات بعض الكتب، التي أجدها أحيانًا مرمية على قارعة الرصيف الذي أقطعه يوميًا متكبدًا، ويحمل أقدامي المتهالكة في ذهابي وإيابي إلى عملي، ويبدو أنَّ الكتب؛ هنا في هذا المكان؛ أصبحتْ شيئًا من الماضي أشبه بالفضلات، التي تُرمى مرفوضة على الطريق، والكل الآن يستمتع برفقة الحاسوب والهاتف النقَّال،

والألواح الإلكترونية، والتي استعاضوا بها عن الكُتب... وأنا أُطالع حاليًا كتابًا شيقًا جدًا يدعى "تفسير الأحلام" وجدته مركونًا بجانب صندوقٍ للقمامة ـ وما أكثرها هنا ـ أبحث فيه عن تفسير لبعض ما يخطر لي في نومي وفي صحوتي من أحلام مرَّتْ بي، وربما أجد فيه جوابًا أو تفسيرًا لها، وتعلمتُ من هذا الكتاب أيضًا كيف أُبقي ذهني صافيًا وخاليًا من شوائب المادية، التي أبصرها وألمسها وأحسُّها يوميًا في الحياة هنا، وهي بعيدة كل البُعد عن منالي، وقبل أنْ أخلد إلى النوم، لأعود إلى دائرة أحلامي التي أحنُّ إليها، ومنها أستمد قوتي الروحية وغذائي النفسي، الذي لا غنى لي عنه في هذه الظروف الصعبة التي أمرُّ بها، ولطالما أُمنِّي النفس بالانتظار والصبر لتحقيق تلك الأحلام، والتي تراكمتْ مع الوقت، وتكسدتْ من كثرة الحرمان، وتأبى أنْ تتجلى، وأقول في دخيلة نفسي أحيانًا برتابة متتالية لا تنتهي: "هل يمكن للزمن أنْ يتوقف لفترة لألحق بأحلامي الماضية مع الوقت السائر بلا كوابح؟"... لكني أعلمُ علم اليقين بأنَّ الزمان هو شيء من السراب لا وجود له سوى في الذهن الإنساني، ومَنْ تبع السراب عاش في الخيال، يبحث عمَّا خفي في طيات الأوهام، ويسهو عن الحقيقة الوحيدة، وهي أنَّ الحياة هي واقع مؤلم، يجب أنْ نعيشه بما تحمله إلينا من هواجس وآلام وحزن وأدران.. ويمر عليَّ هذا الشيء الخيالي بسرعة المدعو الزمن، ولا ألحق به؛ لأنه لا يتوقف لمتلهث مستضعف مثلي، ونصيبي أني لا أقدر على العيش بلا أحلام، وبدأتُ أدونها يوميًا لئلا تضيع منِّي، وتنتهي ميتةً على أحدٍ من تلك الأرصفة القذرة، وحتى التي مرَّتْ

بي من قبل أستذكرها؛ لأني واثق من أنها سوف تتحقق وتتجلى يومًا ما؛ لأنها إيحاءات صادقة، ومنبعثة من الكوامن المكبوتة في داخلي، والتي تنتظر التحرر من غياهب الانزواء ومن الاندثار في لحظات الزمان الملائم في المكان المناسب، على رغم ملَّل الانتظار، وعمق إحساسي باليأس الذي ينتابني في بعض الأحيان هنا... إنها دوامة متلازمة للتناقضات التي أعيشها الآن، وأنا بعيدًا عنكم وحيدًا في هذا المكان الهائج والمائج واللا مبالي، ولكنَّ إصراري على تحقيق طموحي، يجعلني أتعلق أكثر بأحلامي الوردية تلك.

أرجو لكَ الخير يا صديقي، وأتمنى أنْ تحقق كل طموحاتكَ في المستقبل القريب في أي مكان تشاء.

نصيحة: إذا قَدِمتَ إلى المدينة للعمل، فاترك الكبرياء والغرور في القرية.

سلامي إلى الجميع).

قلتُ في نفسي: إنَّ صديقي منير هذا يهذي وهو صاحٍ، ويهلوس بهذه الكلمات وهو في كامل وعيه، ولا أدري من أين عثر على مثل هذا الكتاب؟ وكأنَّ الأحلام يُمكن أنْ تفسَّر بأهواء مَنْ شاء، وأظن أنَّ هذه الهلوسة هي نتيجة ما يحصل لأي شخص، عندما يمتلئ ذهنه بطموحات خيالية واسعة، ويصطدم بعدها بواقعٍ غريب مادي لا يكترث لما يَحلم، ولكنه يكترث أكثر لما يَحمل.

- عَجِّل يا صالح لنُكملَ العمل ونخلصَ منه.

أيقظتني صرخات والدي من شرودي الفلسفي، وبدأنا بتحميل آخر الصناديق المتبقية من المحصول على ظهر العربة، وبعدها بدأنا بالعودة إلى الدار؛ لنرتاح، ونأكل بعض الطعام الذي اشتقتُ إليه بعد فراقه في الصباح الباكر...

قطعنا السواقي الممتدة على طول الأرض، نتبع أبا صابر وعربته، التي تنوء بحملها الثمين.. وبعدها بمسافة قصيرة وصلنا إلى مجموعة من الأشجار والأجمة والخميلة التي تحيط قريتنا، ويوجد بالقرب منها مستودع كبير لحفظ منتوج الأرض فيه... وركنَّا آخر الصناديق المتبقية المتكدسة والمحملة بالطماطم فيما تبقى من مكان بعد امتلاء المستودع بحصاد الأرض الخيِّرة.. وعبرنا الترعة المجاورة للقرية بعد إغلاق البوابة بإحكام على جسرٍ خشبي صغير حديث البناء بجانب نواعير المياه التي لا تهدأ عن الدوران بعد أنْ تهدَّم السالف أثناء عبور الجرار المارد الذي كان يحرث الأرض ويشقها بأسنانه الحديدية، وعملنا أيامًا عديدة في بنائه وتشييده، وجعله ينتصب شامخًا بهذه الصورة الجميلة والذي كان ثمرة تعاون أبناء القرية جميعًا، ولم نحتاج إلى خبراء للمساعدة في إنجازه، وأسميناه جسر "الملوم الخشبي" على اسم قريتنا العتيدة، والتي سُميتْ كذلك؛ لأنَّ كل عائلة فيها تنتمي إلى عشائر مختلفة عن الأخرى، وكنا نعتبرها نموذجًا للتعايش البيئي المتنافر في خضم التقاطب القبلي الذي يسود البلاد بأجمعها، على الرغم من الإحساس البارد الذي يراود الجميع بعدم الانتماء سوى لهذه الأرض...

وعودة إلى الطريق الضيق، والذي يوصلنا من جسر لملوم إلى دارنا بمسافة قصيرة من المسير على الأقدام العارية؛ حيث وصلناه أخيرًا، وكانتْ والدتي قد هيأتْ الطعام لنا مترقبة لما نحمله من أخبار عن يومنا في العمل الممل الرتيب، ولم تكن لها مفاجأة في انعدام أي شيء نخبرها به، فلا وجود لأي من الجراد حول المحاصيل، ولم نستخدم السلاح الأبيض في قتال الآفات الحشرية...

بدأنا جميعًا بالتهام ما هو موجود على الطاولة، بعد أنْ اغتسلتُ واستبدلتُ ملابسي، التي كانتْ قد تيبستْ من كثرة أملاح العرق الذي تصببته منذ فجر الصباح، وكان مذاق الطعام شهيًّا ولذيذًا على الرغم أنه لا يبقى طويلًا في فمي؛ بل كنتُ ألتهمه وأجتره لجوعي الشديد، وأُصارع لهيب حرارته بجرعاتٍ من الماء المتناوبة مع الطعام، ولم يتسنَ لي حتى الإجابة على سؤال أخي الجالس بجانبي على المائدة إلَّا بعد حين.

ـ ما هي أخبار صديقكَ منير في المدينة؟

أكملتُ مضغ الطعام بهدوءٍ، وأجبته بعدها بتأني مفتعل لعلمي باهتمامه الشديد بأخت منير الجميلة:

ـ لا أعلم، فلم أفهم ما كتبه لي في رسالته، ولكنَّ أمه تقول إنه بخير، ويشقى كثيرًا بالعمل هناك، ويعيش الآن لوحده في غرفة مستأجرة في منطقة فقيرة الحال في ضواحي المدينة.

ـ أيمكنني الذهاب وسؤال والدته عنه؟

نظرتُ إلى أخي بتهكُّم، وأجبته:

ـ لِمَ لا؟ عندما ترحل الأم إلى السوق للتبضُّع، يمكنكَ من طرق الباب عسى سلوى تجيبكَ وتشفي غليلكَ في أمر منير العزيز عليكَ.

هنا تدخلتْ والدتي بالكلام، وقالتْ:

ـ ألم يكن من الأفضل له أنْ بقي هنا مع أهله بدلًا مما تعانيه والدته، وما يعانيه هو كذلك هناك في الوحدة والشقاء في العمل؟!

ـ ماذا سينفعه بقاءه هنا في القرية؟! وما سوف يجنيه مزيدًا من الطماطم.

سألتها ولم تجبني؛ لأنها تعلم ما كنتُ أفكّر به، وما هو شعوري وطموحي، وما أودُّ عمله لمستقبلي، وكانتْ تدرك في قرارة نفسها أني أودُّ بشدة اللحاق بصديقي هناك في المدينة، وأنْ أترك هذه الحياة الرتيبة هنا في القرية، وأنْ أبحث لي عن حياة جديدة بعيدة مختلفة تمامًا... وربما كانتْ تحسُّ كذلك كم كنتُ أعاني من الوحدة البغيضة بعد سفر صاحبي وابتعاده عني، وانقطاع سبل التواصل معه، واكتفائي ببعض الوريقات التي يرسلها إليَّ كلما زارته أمه هناك... وقد يكون هناك بعض الغيرة وقليل من الحسد الذي تسرَّب إلى دخيلة نفسي، كوني أودُّ كذلك أنْ أرحل إلى المدينة، وأنْ أحقّق شيئًا ما في حياتي هناك، وأتوق إلى مستقبلٍ أبعد كثيرًا عن زراعة الأرض، وجني محصولها الموسمي، وملاحقة أبو صابر الحمار، والاستماع إلى أشعار أخي الركيكة في سلوى الفؤاد الرقيق.

ركنتُ إلى غرفتي بعد تناول الطعام؛ لأجلس فيها وحيدًا على عكس ما كان يفعله أقراني من أبناء القرية، الذين يقضون معظم وقتهم إمَّا في تبادل الحديث في طرقاتها المتربة، أو يلعبون الكرة في إحدى الساحات الخالية التي تعج بالغبار المتصاعد، وصراخهم المزمن على كرة من المطاط، وكثرة حضور المتفرجين من الذباب

والبعوض... وبدأتُ أقلّب بعض أوراق كتبي القديمة، والتي قد أصابها البلى من كثرة المراجعة، بعد أنْ كانتْ في وقتٍ ما مَعين لي في فِهم الأمور التي صَعُبَ علي إدراكها في الحياة؛ لانقطاعي المبكر عن الدراسة، بعد أنْ أكملتُ فقط مراحلها الأولية، والأدهى من ذلك كان هو رحيل صديقي الذي كان خير أنيس لي، وكنا نتشارك في بعض الهوايات البسيطة، ويتفهم ما يكتنز فؤادي من مرارة العيش الممل هنا، والذي اقتصر على عمل الأرض، أو في الجلوس في البيت بين أربعة جدران، وسقفٍ بليد أتفرس به كلما استلقيتُ على الأرض مفتوح العيون وغائب الجنان، وأحاول؛ وأنا في حالة شبه وعي؛ إيجاد تفسيرًا للقدر الذي أتى بي إلى هنا، وأحسُّ بكوني غير منتمي إلى هذا العالم الذي يحيطني ويطوِّقني تمامًا، وأودُّ فِهم بعض الأحلام التي تراودني بين الحين والآخر، وهي طبيعة ترافق الإنسان وديدنه في البحث عن المجهول، وإمكانية التنبؤ بما سوف يحصل له ولغيره في هذا العالم، إنْ قُدِّر له تملُّك مثل هذه القدرة الفائقة... وأتساءل أحيانًا؛ وأنا أُدوِّن في مفكرتي الممتلئة بالخرابيش؛ إنْ كانتْ هذه الأحلام تحمل لي رسائل مجازية وإيحاءات من حقيقة أخرى من عالم آخر، أنا غير مدرك لها وغير قادر على التحسُّس بها، أم أنها فقط تكرار لصور ومشاهدات انطبعتْ في ذاكرتي الواسعة بعد أنْ التقطتها بصيرتي في زمانٍ ومكانٍ ما، ويعيد الذهن ترتيبها وفق ما يشاء، وما يرغب عند النوم بعد أنْ ينطلق اللاوعي في عمله بحرية وبلارقابة؟!... لا أعلم ذلك بالتأكيد لكثرة الأحلام التي مرَّتْ وتمر بي يوميًا، ولا أجد

تفسيرًا لها، واختلط الأمر علي، لكنَّ أحدها بقي يطنطن في مخيلتي الواسعة، ولم يبرح ذاكرتي لفترة طويلة، وبقي يُحيِّرني لحد هذه اللحظة من الزمان، حتى أني ملأتُ إحدى صفحات مفكرتي بتفاصيله، وكان بعد أنْ عدتُ متعبًا من مسيرٍ طويلٍ، كنتُ حينها أجول بلا هدف حول بساتين القرية وحيدًا في ليلةٍ كان البدر يسطع فيها بحبورٍ وفي تألُّقٍ شديدٍ، واستلقيتُ على فراشي أناجي النوم من تعبِ المسير الشاق، وبعدها وجدتُ نفسي في دامس الظلام لا ينيره سوى بعض النجوم اللامعة، أسير بجوار صفوفٍ طويلة متراصة من الأشجار العالية المتناسقة بغصونٍ جرداء عارية من كل الأوراق، ويتخللها ضباب شفاف، وأحمل بيدي حلقات معدنية لامعة لا أعرف الغرض منها وتنوء بحملها علي. وواصلتُ المسير طويلًا في ذاك الظلام متجاهلًا الألم الذي ينوء بقدمي الحافية من المشي على نتوءات الأغصان المتساقطة والمترامية على الطريق المستقيم، حتى وصلتُ إلى سورٍ عالٍ جدًا مبني من الحجر، ولا يمكن تسلُّقه لعلوه الشاهق، وتزيِّنه النحوت الحجرية لأشكالٍ غريبة، وتجلس على قمته العالية طيور متنوعة وغريبة.. وجلتُ النظر في الأنحاء أودُّ المرور بشدة من خلال هذا السور العظيم بلا جدوى ولا أمل، حتى وجدتُ؛ بعد مسيرٍ وبحثٍ طويل؛ في أحد جوانبه فتحة كبيرة فيه، قد تكون هُدِمَتْ عمدًا، ودنوتُ منها لأمرَّ من خلالها نحو الجانب الآخر من السور، ولكنه كان منحدرًا جدًا، وانزلقتْ قدماي، وتمسكتُ بشدة بنتوءات بارزة بالجدار لئلا أقع في وادٍ عميقٍ مظلمٍ لا تبدو له نهاية، وبعد أنْ علقتُ الحلقة المعدنية

على نتوءات الجدار، والتي تبدو كأنها سكاكين مشهورة، وجذبتُ بدني الساقط على الأرض، وعدتُ زاحفًا من خلال الفتحة إياها إلى الجانب الذي قَدِمتُ منه بصعوبة، ودموعي تنهمل بغزارة من خوفي الشديد، لأجد نفسي في مكانٍ مختلف تمامًا بديع الجمال، وقد زالتْ تلك الأشجار، وكان مضيئًا جدًا، وبالتأكيد يختلف عن المكان المظلم القاتم الذي قَدِمتُ منه، وممتلئًا بالكثير من الناس السعداء، وانضممتُ إليهم فرحًا...

وصحوتُ من حلمي بنهايته السعيدة، ولم أفهم أبدًا تفسيره كلما حاولتُ إدراك مغزاه، وقد يكون ممكنًا للبعض فك رموزه ممن لهم قدر أوفر في الحياة، أو في العلم؛ الذي لا تزال الحسرة تملأ بدني لعدم تمكُّني من استحصاله، وقدري السيئ أنه لم يكن بالقرب من قريتنا سوى مدرسة بدائية عتيقة ببناءٍ مهترئ، ومزودة ببعض المعدات البسيطة، وبالكثير من المناهج البالية، وببعض من المعلمين متقلبي المزاج المتعجرفين اللا مبالين، والذين لا يفقهون أحيانًا ما يتلون، ويثرثرون أكثر مما يُعلّمون، وكأنهم يمنون علينا بالعلم.. ولكنَّ أكثر ما كان يزعجنا هو بنيانها، وجدرانها الإسفنجية المليئة بالفتحات، والنوافذ التي لا يمكن غلقها، وينخرُّ البرد منها أجسادنا، وتركبنا القشعريرة في خضم الدراسة في الشتاء، وتولول الريح مدوية تصفر في أُذنينا.

ـ اللعنة.. لماذا لا يصلّحون تلك النوافذ المكسرة، ويركّبون الزجاج عليها، وبعض الستائر لتغطيها؛ وإنْ كانتْ مهلهلة، على الأقل كانتْ تقينا من بعض ضروب وأهوال الطبيعة، حتى نقدر أنْ نستوعب ما

يُلقى علينا، وإنْ كان يسيرًا وبسيطًا، ولم نكن بقادرين حتى على الشكوى بسبب العقاب، أو السخرية من أنَّ أحوال سكننا ليستْ بأفضل حالٍ من المدرسة، أو أننا أطفال مدللين غيرملتزمين.

ذكريات محيرة من المكان الذي أتممتُ فيه بعضًا من الدراسة، وتزودتُ فيه ببعض المعرفة الهامشية البسيطة، ولكني كنتُ أودُّ المزيد، وأتشوق إلى مواصلة أبعد من ذلك بالكثير.

حاولتُ إقناع أبي كثيرًا بالذهاب إلى المدينة؛ لإكمال تعليمي هناك بلا جدوى، وكان ردُّه دائمًا بأنه غير قادر على توفير أجورها، وأجور انتقالي إليها، والعيش فيها هناك.
أذكر ما قاله لي يومًا ما متداركًا إلحاحي، وسعيّ المتواصل للدراسة مقارنة بغيري من الأفذاذ الذين سبقوني:
- يا صالح العلم ليس في المدارس والجامعات فقط، ولكنه في كل نواحي الحياة، وفي كل تجربة تمرُّ فيها إنْ تعلمتَ منها.

لم أعلق على ما قاله والدي سوى بقولي:
- ترى.. كيف نمرُّ بتجارب الحياة، ونتعلم منها إنْ كنا يوميًا نرى الشيء نفسه، ونكرر العمل نفسه، ونسمع القصص المعادة نفسها؟.

قد أكون متمردًا وعنيدًا، وقد يكون كلام والدي فيه بعض الصدق والنية الحسنة، إلا أني لم أكن أكترث بهذا الكلام الفلسفي الأجوف كثيرًا؛ لاعتقادي بكون معظم أهالي القرية؛ من الجهلة وقليلي التعليم؛ يودون بقاء الجميع كحالهم، وينتفضون عند محاولة الارتقاء ولو قليلًا.

ولأنَّ ذهني كان قد عقد العزم من زمان، وانتظرتُ فقط الوقت المناسب لأخبر أهلي بقرار الرحيل؛ كحال الكثير من أقراني في القرية الذين استهوتهم فكرة الانتقال من هنا والابتعاد عن القرية؛ للتحرر من قيود التقاليد البغيضة، والخروج من هذه القوقعة الفكرية الرجعية، والتخلُّص من محدودية الأفق ونير الالتزام بعادات بالية متزمتة، والسعي إلى الغنى والثراء والمتعة من خلال استجداء الفرص المتاحة، والتسلُّق على الأكتاف العريضة، وارتقاء سلالم الحضارة والمدنية والمجد الموعود القابع خلف قوس قزح الأحلام، الذي يبدو بعيدًا معلقًا فقط في أفق المدينة... عبارات مركبة كنتُ قد قرأتها في صحيفة وقعتْ في يدي بالصدفة، ولم أعرها اهتمامًا كبيرًا لتاريخ إصدارها، ولكنها كانتْ تعبِّر بالضبط عن حالي، وحال بعض أقراني من شباب القرية الطامحين إلى المجد بلا حدود أو نهاية... ولكنْ يوجد هنا فرق كبير، وهو أنها الآن معركتي الشخصية لأثبت فيها جدارتي وقدرتي ومبادئي الخاصة، ولأنتصر فيها لنفسي ولأحلامي أولًا وأخيرًا؛ برغم أنف القدر الماحق.



كان اليوم، هو آخر أيام موسم جني المحصول، بعد أسابيع قضيناها في جهدٍ مضني، وكنتُ في أقصى نشاطي ـ على الرغم من سهدي اللَّيلي الذي أمضيته في التفكير غير المجدي ـ لأكمل قطف ما تبقى من الطماطم؛ لأنَّ بعد الانتهاء من جني المحصول لا يوجد عمل إضافي لنقوم به؛ سوى إراحة الأرض وتهيئتها لزراعتها مجددًا في الموسم القادم... وكنتُ قد عزمتُ في قرارة نفسي أنْ أرحل بعد أنْ أُنهي عملي هنا في الأرض، وكان لا بد لي من مصارحة أهلي أولًا، على الرغم من درايتهم وشكهم المسبق بما يدور في ذهني، وعلمهم برغبتي الشديدة في الرحيل، وقد يكون السؤال: لماذا الآن بالتحديد؟ وما هو الجديد الذي استجد في الأمر؟ وسوف يكون جوابي التبريري الجاهز دائمًا، أنها كانتْ دومًا أمنيتي... ولكنَّ الأهم من ذلك هو أني كنتُ في قرارة نفسي خائفًا أنْ أبقى هنا مسترخيًا جالسًا بلا حِراك، ويمضي الوقت بي، وتفل العزيمة، وتبرد الإرادة، ويقل الطموح الذي هو محركي ودافعي للرحيل.. والأشد عليَّ من كل ذلك أنَّ أهلي كانوا يعتزمون (كما تبيَّن لي) ويرتبون على عقد قراني على فتاة من أهل القرية لا أعرفها، ولا أكنُّ لها أي شعور أو عاطفة، وأضحى بالتالي أسيرًا لسجن يدعى الزواج، ويكون رحيلي بعدها عن القرية صعبًا جدًا،

وأبقى هنا مرتبطًا بهذا المكان الذي أضحيتُ لا أطيقه، وأودُّ الهرب منه بأي وسيلة... وكان لا بد لي من التحرُّك بسرعة، والإقدام على ما عزمتُ عليه بجراءة، ومن دون تأخير، وانتظار أكثر بلا داعٍ.

جلسنا كالمعتاد حول المائدة التي أعدَّتها والدتي لنا بعد العودة من العمل في اليوم الأخير من العمل، وانتظرتُ حتى أكملنا تناول الطعام بجوٍّ يسوده الصمت، يقطعه صوت مضغ الطعام في الأفواه الشرهة، ثم بعدها جاءتْ لنا والدتي بالشاي، واستجمعتُ رباط جأشي الحاضر دائمًا معي، وألقيتُ عليهم ما كنتُ قد عزمتُ عليه عمله منذ مساء أمس:

ـ أودُّ أنْ أخبركم بأني سوف أرحل غدًا صباحًا.

نظر إلي والدي بانزعاجٍ وبغضبٍ، وتبدلتْ سحنات وجهه التي تعلوها التجاعيد، ونظرتْ إلي والدتي بأسى وحزن، ولم يهتم أخي كثيرًا بالأمر، وداوم على شرب شايه الساخن بتلذذٍ مصحوبٍ بصوت شفط الشاي.

ـ ماذا دهاكَ يا صالح؟

قالها أبي بعد أنْ ركن فنجان الشاي إلى المائدة بعصبية، واستكمل كلامه:

ـ إلى أين أنتَ راحل؟

ـ إلى المدينة يا والدي.

ـ لماذا؟.. ماذا هناك لتعمله؟

ـ لم أعد أطيق البقاء هنا، لقد سئمتُ الحياة في القرية، وأودُّ أنْ أُجرِّب العيش بعيدًا في مكانٍ مختلف، وأتطلع إلى تحقيق الكثير مما

افتقدته، لقد بلغتُ من العمر اثني وعشرين عامًا، وأودُّ الاعتماد على نفسي، وبناء مستقبلي في المدينة إنْ أمكنني ذلك.

ـ مستقبلكَ هنا يا صالح في أرضكَ وبين أهلكَ.

ردَّتْ والدتي بنوعٍ من التوسل الذي جزع قلبي، واستكملتْ كلامها:

ـ إذا الكل يرحل؛ مَنْ يبقى لهذه الأرض العزيزة؟ من أين سوف يأكل الناس إذا الجميع ترك الأرض وعاش في المدينة؟.

ـ ليس لي هنا أي مستقبل يا أمي، ورحيلي سوف لن يسبب مجاعة، أرجوكما أنْ تتفهما موقفي، وتسانداني بدلًا من زجري بهذا الشكل.

ـ أنتَ عنيد ومغرور من صغركَ يا صالح، وطموحاتكَ كانتْ ولا تزال دومًا أكبر من حجمك، وتود تحقيق أحلامكَ الخيالية بعيدًا عن هنا، وكانتْ القرية صغيرة وغير مستوعبة لطموحاتكَ، ولكنكَ سوف تجد أنَّ الحياة هناك في المدينة مختلفة تمامًا عن تخيُّلاتكَ الأنانية.

هذا كان آخر ما سمعته من والدي الغاضب بسبب رحيلي، ويبدو للجميع أنَّ كوني فلاحًا قليل العلم لا يحقُّ لي أنْ أحلم، ولا يجوز لي أنْ أطمح بعيدًا عن تلك الدائرة المغلقة المحيطة بي، ويجب أنْ أبقى مطمورًا هنا في هذا المكان بلا اعتراض أو رفض.

صمتَ الجميع، واستأذنتُ، وذهبتُ إلى غرفتي، وبدأتُ أُعدُّ عدتي للسفر، الذي قرَّرته أنْ يكون صباح غدٍ عند الفجر.

تطلعتُ حولي؛ لأقرِّر ماذا سوف أحمل معي في سفري، وجالتْ عيني تجوب حول المكان، ولم آخذ وقتًا طويلًا في اتخاذ القرار لقلة

ما لدي من حاجيات تستحق أنْ ترافقني في طريقي البعيد، أثناء ذلك فُتِحَ باب غرفتي، وقَدِمَتْ والدتي، وكانتْ عيناها تدمع، وأعطتني بعض النقود مما قد وفرته وادخرته، وقالتْ لي:
ـ أتمنى لكَ النجاح يا ولدي، وتذكَّر أنكَ دائمًا على بالي، وأنَّ هذا هو بيتكَ، ونحن أهلكَ دائمًا.

قلتُ في نفسي:
ـ يبدو أنهم قد آمنوا بأني سوف لن أُغيِّر قراري.
وهذا سَهَّل مهمتي ويسَّر ترتيب أمر سفري المزمع.

بزغ الفجر بعد ليلة من قلة النوم، وبعض الأحلام المتواترة والمضطربة، وحلَّ الصباح، وآن وقت رحيلي في لحظة طغى فيها على الأرض ضياء الشمس المشرقة، وصبغتْ الأرض ألوان تتمازج بين حمرة الغسق واخضرار الأشجار التي كانتْ تبدو مرصعة من شذراتٍ لامعة، تعكس نور الشمس المنكسر عن قطرات الماء التي تملأ الزرع في ذلك الفجر، وامتلأ المكان بسحرٍ خلاب كحال كل صباحٍ في قريتنا، وعانقتْ أشعة الشمس زهور السوسن البيضاء والصفراء والبنفسجية؛ المرصعة بتيجان ذهبية؛ لتنفتح أوراقها النائمة في بهاءٍ ولطف، وتزكي المكان برائحة عطرة، وتدعو الجميع لإطراء حسنها البهي وللغيرة من جمالها اللامتناهي، وتساقطتْ قطرات الندى كالدموع التي تملأ أوراق الشجر الخضراء وأغصانها المتفرعة في الفضاء؛ لتورف المكان بسعادة وفرح وحبور، على عكس الشجن الذي أحسسته وأنا أمسح زجاج نوافذ غرفتي بأصابع يدي المتشنجة، وأنا أسبر في النظر من

خلالها إلى البعيد، وأستمع إلى تغريد الطيور المبكرة النهوض، وهديل الحمام المستند باسترخاء على أغصان الأشجار النضرة، والذي يؤذن ببدء نهار جديد، وآمال واقعية جديدة.

شددتُ العزم، وكبحتُ جماح عواطف حزينة لا فائدة منها الآن، على الرغم من أنَّ الترحال والفراق كان صعبًا علي، وأظنه على كل فلاحٍ مثلي امتلأ بدنه بحبٍّ ثرى هذه الأرض المِعطاءة بلا توقف، وعبقتْ نفسهُ بأريجٍ من نسيم صباحها النقي، وتدفق في عروقه ماءٌ من عذب الغدير الرقيق، الذي يشقُّ جيوب اليابسة في أرضنا في وداعة وحنين ورفق، ويطفئ ظمأ لهيب النار المتقدة التي أُججتْ، وأوقدتْ في عنفوان الشباب، الذي يدفعنا لطلب المزيد والمزيد من هذه الأرض الخصبة.

أخذتُ بالنظر إلى غرفتي الصغيرة، أودِّع أروقتها الساكنة والكئيبة، وجدرانها التي كانتْ مدهونة على ما أذكر باللون الأبيض، والذي تحوَّل مع تقادم الزمان وقلة الاهتمام؛ إلى الأصفر الشاحب، تتخلله لوحات لأشكالٍ غريبة وضعها أخي على الجدران، بعد أنْ ابتاعها من بائعٍ متجولٍ قَدِمَ إلى قريتنا عن طريق الخطأ، لأنه ضلَّ طريقهُ وسط هذه البرية المترامية، وفقدتُ الأمل مع الزمن في فِهم ما تعنيه هذه اللوحات، واستعصى علي إدراك ما ترمز إليه مهما أمعنتُ النظر فيها، ونظرتُ إلى سريري الذي لا يختلف كثيرًا عن صندوقٍ كبيرٍ مستطيل الشكل مغطى بألوانٍ زاهية متعددة تذكّرني بكثرة الأحلام التي مرَّتْ بي وأنا مستلقي على هذا الفراش، وحملتُ حقيبتي من على الطاولة الصغيرة، التي تحوي قطع الشطرنج، التي

كنتُ أداعبها أحيانًا، وأقول لها: أتمنى ألّا أكون مثلكِ بلا إرادة يحرِّكني الغير بأهوائهم.

خرجتُ من غرفتي مودعًا لها، والتي ربما سوف أفتقدها كثيرًا، وغمرني فجأة مزيجٌ من مشاعر الأسى والحزن في نفسي، وأنا أودِّع أُمي الدامعة والحزينة، وكذلك أخي المراوغ عند باحة الدار حاملًا ما أقدر على حمله من بعض الكسوة والحاجات والأسمال التي قد تعينني في سفري...

ـ ليس بالكثير من الأشياء...

تهكمتُ بسخريةٍ وإباء، وأنا أجرجر حقيبتي الشبه بالية حاثًا الخطى في زهوٍ وكبرياءٍ، وأقول في نفسي: هذا ما قدرتُ أنْ أوفره من عملي في الأرض، ولكنَّ الأمل يعوضني، أو على الأقل يغطي خيبة الحاجة المريرة، وحلمي أنْ أنال ما افتقدته من قبل، ولم أقدر أنْ أحصل عليه بعد لحد الآن.

قبَّلتني والدتي عند باب الدار، وقالتْ لي:

ـ أنتَ شاب حسن الأخلاق، وكل بنات هذه القرية والقرى المجاورة يتمنينَّ أنْ تكون من نصيبهم، لكنكَ اخترتَ الابتعاد عنا وترك كل شيءٍ هنا من أجل وهم المدينة وفتياتها المتحضرات.

لم أجبها؛ لأني لم أكن أفكّر بما هي كانتْ تظنه... ولكنَّ أخي سَحَبَ يدي بشدة، وأخذني بعيدًا عن والدتي، وقال لي:

ـ يا صالح، أنا أخوك الأصغر، ولكنْ اسمع منِّي الآن ما أقوله لكَ: عندما تصل المدينة، لا تضيع وقتًا وتحتار فيما تعمل أو فيما تصنع، فقط ابحث عن امرأة ثرية؛ وليستْ بالضرورة جميلة

وتزوجها، وبعدها خذني معكَ إلى هناك، ولا تنساني هنا أرجوكَ يا صالح.

ـ كيف أنساكَ يا أخي؟ ولكنْ قلْ لي: هل تقدر أنْ تترك القرية بلا سلوى القلوب؟.. لا بأس يا سجر لن أنساكَ؛ لأنكَ أنتَ مَنْ سوف يحلُّ محلي هنا وتساعد أبي وتعينه، لكنْ فقط تذكَّر إنْ عدتُ خائبًا إلى القرية أنْ تتأكد من إزالة لوحاتكَ السريالية عن جدران غرفتي.

سَحبتُ حقيبتي مبتعدًا عنهما، وبدأ يوخزني قلبي كثيرًا؛ ليس فقط لرحيلي عن داري، وابتعادي عن أهلي، ولكنْ كذلك لتركِ عملي وحرفتي وصنعتي، التي تعلمتها ليس في المدارس أو الكليات، لكنْ بالتوارث وبالجهد والعمل اليومي المتواصل، وبحبِّ هذه الأرض، وبالاستماع إلى توجيهات أبي الذي لم أتجرأ أو أقدر حتى على وداعه في هذا الصباح؛ لكونه كان لا يزال غاضبًا وحزينًا، ولم أتلقى منه بركات، والتي قد تنفعني في مسعاي وفي طريقي، وتمتمتُ أقول في نفسي رافضًا تسلُّط أبي، وتعنته المتزمت:

ـ ماذا يريد منِّي؟ ولماذا هو متمسك بي هكذا؟ لديه أخي، وهو سوف يُعينهُ ويساعده في الاهتمام بالأرض وزراعتها وحصادها، هل الأبوة تعني التملُّك، والتزمت، والاستسلام، والإقرار بواقع الحال؟.

تساءلتُ في نفسي:

ـ هل النجاح أو الفشل مرتهن بالالتصاق بما عفا عنه الزمن، وإعادة تكرار تجارب الماضي، والرضى بما هو متاح، والقبول بما هو مفروض، أم البحث عن جديدٍ، وسبر أغوار ما يستجد من

عصري وحديث، وكسر عقدة القناعة، والبحث عن التحدي، والإقدام في الحياة؟

كلام فلسفي كنتُ أحاول به إقناع نفسي، وتبرير هجري لأرضي؛ لتحقيق غاية وهدف قد يكونان مجرد سراب، لكنهما متعة البحث في المجهول القادم.

نظرتُ نظرة أخيرة؛ وأنا أبتعد؛ إلى أهلي وإلى داري، وقريتي الصغيرة بأعدادها من السكان؛ الضئيلة والقليلة والمتناقصة دومًا وبانتظامٍ، إلى مكانٍ يحمل ذكرياتي، ويرسم صورة تقبع في ردهة ما في ذهني من دورٍ وأكواخٍ بسيطة من الطابوق والخشب والطين مبعثرة ومعزولة وسط بساتين عامرة وأشجار باسقة ممتلئة بأنواع الفاكهة، تجوبها الطيور وتخترقها الدواب والماشية، في خضم إيقاع زمني بطيء ثقيل وحزين، يتخلّله أصوات تذكّرنا بالحياة من ثغاءٍ، ونهيقٍ وهديلٍ ومن تغريدٍ ودوي، من خوارٍ وصهيلٍ ومأمأة ونقيق، وكثيرٍ من عويل الكلاب، وتزخرف حواشي صورة رمزية تمثّل ماضيًا أثيرًا بطيئًا يبتعد، ومستقبلًا غامضًا موعودًا يقترب أكثر فأكثر كلما سرتُ في اتجاهه طلبًا له.

طالعتُ حولي، فلا توجد أي عربة تقلني، ولا أجير يساعدني على الوصول إلى الطريق البعيد الوحيد الذي يربط قريتنا المنقطعة المنسية بالحضارة، ولم أكن قادرًا على أخذ أبي صابر معي؛ ليقلني إلى الطريق السريع الذي يوصل إلى المدينة، لكونه الوسيلة الحضارية الوحيدة التي نمتلكها للتنقل ونقل الإنتاج من الأرض، ولا توجد أي سيارة في القرية؛ على عكس بعض القرى في الجوار

وحتى الجرار الذي كان يحرث الأرض كنا نستعيره... ولم أقدر أنْ أصبر لحين قدوم أي عربة ما قد تقلني معها إلى قرب الطريق العام، وآثرتُ عدم الانتظار، وحثيثُ نفسي على المسير، فالدرب القادم مديد، والآتي قد يكون غريبًا، وكلام النفس غني ومُعيِّن في وحشة بلا رفيق، تعينني فقط روحي المليئة بالرجاء، ويساندني غيث السراب القابع في الأفق البعيد.

تراءتْ في مخيلتي وعادتْ إلى ذاكرتي الطموحة؛ صورة قريبي الساكن في المدينة، والذي أتى إلى زيارتنا يومًا ما في القرية، وكان يحمل في يده إعجوبة؛ أو على الأقل ما ظننته، وتخيلته في حينه؛ كأنه حجر أسود لامع صغير، يتكلّم معه ويجيبه، ويلمسه ويداعبه بحنين، ويصدر عنه أصوات وموسيقى ورنين... وبكل دهشة سألته عن تفسيرٍ، فالأمر لم يكن عليَّ باليسير، فهذا الشيء المثير قادر على عمل الكثير مقارنةً بعقلي القروي الصغير... عَلَتْ الدهشة زائرنا الكريم، ونظر إلي كمَنْ ينظر لكائنٍ بدائي مسكين:
ـ يا صالح إنه الهاتف النقَّال، إنه ابتكار حديث يرافقني أينما أذهب وفي كل سبيل، وهو يوصلني بمَنْ أودُّ ومَنْ أريد، ويُسمعني بما أرغب وأحب وبكل جديدٍ وطريف، ويصوِّر الأثير على قلبي، ويدلني على دربي في الطريق، ويتصفح كتبي، ويزودني بالمعرفة والعلم، وينير مخيلتي، ويؤنس وحدتي.. لقد أصبح جزءًا منِّي، وباتَ خير جليس، وأقرب صديق، وخير مُعيِّن لي.

وجمتُ وبهتُ، ولم أجب صاحبنا؛ على الرغم من نثره التهكُّمي ووصفه المسرحي، وزاغتْ عيناي بعيدًا عن زائرنا، وغرستُ

النظر حول ذاك الشيء العجيب شبيه مصباح علاء، وقد بُعث من جديد، وتساءلتُ في داخلي: كم أنا محتاج لمثل هذا الرفيق!، وكم افتقدتُ خير صديق وقت الوحدة والضيق!.
عزمتُ منذ ذاك الحين أنْ أثأر لنفسي الكليلة، وأنال ما فاتني من متاع الحياة الجميلة...

قطع صوت زائرنا بؤس مخيلتي، وأردفَ يقول:
- لا تهتم يا صالح، فمن هذا الشيء هناك الكثير، والحصول عليه شيءٌ ليس بالعسير، وأعدكَ بالعديد منه والكثير، عند قدومكَ ضيفًا عندنا في المدينة في المسقبل القريب.

غادرنا ضيفنا الكريم مغدوقًا بالدعاء، وبخفي حنين، ولم تغادر أحلامي ما رأته عيناي ولمحته بصيرتي، ولم يبرحني شوقي إلى ذلك الشيء الغريب الذي احتضنته يديّ قريبنا، ورؤياه ترافقني في دربي المديد الآن، والذي يأخذني من عالمي الضيق المنطوي على نفسه إلى عالمٍ متسعٍ فسيحٍ منفتح، أنال فيه ما أشاء، وما أقدر عليه من جهدي وعملي، وأبحث عمَّا أستمتع به، ويمتعني في وحدتي وضيقي، ويقضي على سأمي المديد اللا منتهي.

جلستُ بعد مسيرٍ طويلٍ على جانب الطريق وسط البساتين، بعد أنْ ألمَّ بي التعب من طول الدرب، على بقعة من نجيلٍ بالقرب من مرج محاط بأعشاب وبعض أشجار النخيل، وتوكأتُ على رفيقتي حاملة متاعي وهمومي، أنظر في الأفق مترجيًا عَلّي أجد مَنْ يوصلني إلى مصدر أحلامي ودليل إلهامي، ودارتْ عيناي تفتش حول المكان، وتسرح في أجمة الأشجار، وموطن الأزهار، وقلتُ

في نفسي: كم هي جميلة هذه البرية الساذجة!... وأدركتُ في سريرتي، أنه لأول مرة أبتعد فيها عن قريتي كل هذا البُعد مسافرًا لوحدي، ومعتمدًا على نفسي فقط، ومتأبطًا حقيبتي وصديقتي البالية، وتذكرتُ كلام أمي التي كانتْ تقول لي:

ـ يا صالح، أنتَ فتى طيب كمثلِ هذه البرية، ونشأتَ فلاحًا وسط هذه الأرض التي احتضنتكَ منذ صغركَ، وأكلتَ من خيرها، وأصبحتَ جزءًا لا يتجزء منها.. لا ترحل يا بني، وترمي كل هذا خلفكَ، وتذهب إلى مكانٍ لا تعرفه، ولم يكن لكَ فيه يومًا ما من خليلٍ أو صديقٍ، وتعمل وتشقى للغير، وتترك أباكَ وأرضكَ التي هي أحق بتعبكَ وجهدكَ.

ولكني لم أقنع بهذا الكلام؛ لأنَّ الإنسان ـ في قرارة نفسي ـ يجب أنْ يحاول ويجتهد ويبحث عن كل جديدٍ بلا كللٍ، والتحدي يقوي الإرادة في سبيل تحقيق ما يعزم عليه من الأحلام والطموحات، التي تملأ صدري منذ زمنٍ بعيدٍ بصبرٍ غير نافذ.

دام النظر كثيرًا، وأسبرتُ أعماق البعيد، وعزمتُ مواصلة المسير، فلا مكان للتعب الآن، ولا عودة للقديم، ولا جدوى من الجلوس الآن، ونهضتُ بعد أنْ نفضتُ عني ما عَلِقَ على ملابسي من غبارٍ وترابٍ، وانطلقتُ في مسعاي باتجاه السبيل الوحيد الذي يربط قريتنا إلى الطريق السريع المؤدي إلى المدينة، وكان يبدو الطريق مهجورًا وموحشًا وبلا نهاية؛ لعدم وجود المارين، ولا أي من المرتحلين، ولم أكترث لذلك، وواصلتُ المسير...

وبعد عدة ساعات من المشي المتواصل، تراءى لي الطريق السريع من بعيدٍ تجوبه المركبات في الاتجاهين ويعلو أزيزها، وأكوام الغبار المنبعثة عنها كلما اقتربتُ منها، والمحنة الآن أنْ أجد مَنْ يقف لي ويرضى أنْ يقلني معه بأقل أجر لقلة ما أحمله من نقود، ولكنْ لا بد لي من المحاولة، وتجربة حظي على هذا الطريق.

ركنتُ إلى جانب الطريق ألوح للمركبات المسرعة عسى أنْ تقف لي إحداها، وكان الحظ لي خليل بعد مدة من الانتظار، ووقفتْ إحدى المركبات، وسألني السائق عن وجهتي:

ـ أنا ذاهبٌ إلى المدينة. (أجبته بلهفة المتسائل)

قال لي:

ـ أنا ذاهب باتجاه الخان، المكان يقع في منتصف الطريق إلى المدينة.

سألته، وأنا لا أعلم أين هو هذا الخان؟:

ـ كيف سوف يمكنني أنْ أصل إلى المدينة من الخان؟

ـ هناك بعض الزوار للخان يتوقفون للراحة فيه، وربما تحظى بمَنْ يكمل رحلتكَ معه للمدينة.

ـ لا بأس مشكور على أي حال لإيصالي منتصف الطريق. (أجبته ولم يكن لي سوى هذا الخيار المطروح علي الآن).

ولجتُ في المركبة مع السائق الكريم، وبدأنا نقطع هباب الطريق السريع، وكان بعد مدة ليستْ بالقصيرة تقرب من الساعتين من الزمن، أنْ خرجنا عن الطريق السريع إلى آخر فرعي منه، وقطعنا

مسيرة قصيرة؛ ليركن السائق إلى جانب الطريق، وأشار إلى البناية، وقال:

ـ هذا هو المضيف.

وقد وصلناه بعد غروب النهار، وبدأ اللَّيل يسدل ستاره.

ترجلتُ من المركبة، وشكرتُ السائق الكريم لإيصاله لي هنا إلى هذا المضيف بلا أجرٍ وبلا مقابل... ودارتْ عيناي تستكشف المكان الذي لم أرَ مثله من قبل، وهو أرض فسيحة مستوية مغطى جزء منها بأشجار النخيل، وأخرى من صنوبر وصفصاف، ويعلو الأرض بناءً ليس بالصغير، ينتصب وسطها، ومشيَّد من جدران تبدو سميكة من طابوق وقرميد بني اللون شاحب متهالك من القِدَم، وتتخلَّل جدرانه العالية تلك بضع من شبابيك ونوافذ صغيرة، وتزينها الأقواس، وكذلك مجموعة من الحنايا المستطيلة المجوفة، ويعلوها سقف معقود تأطره قُبة قليلة الارتفاع زرقاء اللون؛ قد تصدعتْ وظهرتْ عليها التشققات نتيجة التقادم، وتبدو كأنها تستقر على بعض العوارض الخشبية الناتئة فوق الجدران العالية، ويوجد مدخل كبير إلى تلك البناية مُزين بأقواس كبيرة بارزة وناتئة إلى الأمام في واجهة المبنى، ومبنية من الطابوق، ومغطى ببابٍ خشبي كبيرٍ تزينه بعض الصفائح النحاسية، ومحاط ببعض الأعمدة الخشبية المنقوشة، ويقرب منها سبيل ماء مبني من حجرٍ أبيض كالرخام، يصب الماء منه في حوضٍ كالسلسبيل، وبقربه رواق صغير يمتد على جانب البناء من أعمدة خشبية مسقف، ومغطى بالكامل من ألواح خشبية، وتكسو بعض أركان ذاك الرواق

وجدرانه قطع من الفسيفساء، وبعض قطع من الأجر الفخاري الذي يبدو عليه التهرؤ؛ لتقادم البناء وقلة الاهتمام، وترتمي في نواحيه بعض المقاعد الوسخة، ومتكأ منبسط، وأريكة خشبية، وتنيره مصابيح الضياء المعلقة بأسلاك، ويبدو وكأنه مجلس أو مضيف لاستقبال الزوار في خارج الخان، وتمتد أرض جرداء إلى جانبه كالصحن معبدة ببعض البلاط المتكسر، ويمتد هذا الصحن إلى الطريق، ولا يحيطه سوى بعضٍ من الإسطبلات المخصصة للخيول وتبدو خالية منها، ويحيط صحن الخان من جوانبه الأخرى العشب، وصغار الشجيرات، وكأنها تحوَّلتْ مع الزمن إلى مرآب لوقوف المركبات، وجلوس الدواب عليها في أركانها المترامية.

مضيتُ إلى السبيل لأغتسل، وأروي نفسي من بعض الماء منه، وجلستُ في الرواق الخارجي للخان أروم النظر في البعيد إلى أي مركبة قادمة إلى هنا أملًا في إكمال طريقي إلى المدينة.

كان اللَّيل قد بدأ يسدل ستاره بثقل، والمكان يزداد إقفرارًا واكتحالًا بالظلام، والمركبات في الطريق السريع يتناقص أعدادها، وقلَّ الترحال في المكان بشكلٍ كبيرٍ مع تأخر الوقت، ولم يقدِم أي من الزوار، ولم يتوقف أي من المسافرين لسوء حظي... وجلستُ هناك لوحدي حائرًا في سواد الظلام ينيره أحد مصابيح النور الذي يتأرجح مع أنسام الهواء العليلة، وبدأ بعض القلق يلمُّ بي وينتابني، وأسمع من بعيدٍ فقط نباح الكلاب، وعويلهم في هذا المكان المهجور المخيف... فماذا أفعل؟ (كنتُ أتساءل في دخيلة نفسي)... هل أذهب إلى قرب الطريق السريع مرة أخرى محاولًا إيقاف أي سائر في

مركبة، أم أنَّ الظلام الدامس يصعِّب على السائقين رؤيتي، والأفضل الانتظار هنا عسى مَنْ يأتي منهم ويرأف بحالي، ويكمل لي باقي الرحلة؟

بقيتُ هكذا مترقبًا أنظر من حولي، وأدمدم في نفسي الحائرة، وأتساءل: هل هناك من مجيب؟

وفجأة فُتِحَ باب المضيف محدِّثًا جلجلة وصرير، وخرج عليَّ منه شيخٌ كهلٌ طاعنٌ في السن، يبدو طويل البنية، ونحيف القوام، أسمر اللون، يغطي رأسه ما تبقى من شعرٍ أبيض متناثر، وينسدل بعضه على صدغه، ويعلو عينيه الغائرتين حاجبان كثيفان رماديّ اللون، يمازجه شعر أبيض متفرق، وبيده عصا تعينه على المشي... تقدَّم منِّي وهو يتلكأ في خطاه.. وقفتُ لتحيته، وهو يظهر أقصر قامة منِّي بسبب انحناء ظهره المجهد، تكلَّم معي ببطءٍ، وهو يتفرَّس في وجهي بعيونٍ ضيقة غائرة، كمَنْ يستعلم مَنْ أنا؟ وما أريد في هذا اللَّيل؟.

ـ السلام يا ولدي.. هل أنتَ بخير؟.

ـ نعم يا شيخ أنا بخير، فقط بعض التعب بسبب السفر الشاق الطويل

ـ هل قَدِمتَ من بعيد؟

ـ نعم لقد قَدِمتُ من مكانٍ بعيد، وكانتْ رحلتي قد ابتدأتْ منذ صباح اليوم الباكر، وأمضيتُ معظمها مشيًا على الأقدام إلى أنْ ترحَّم بحالي أحد الخيرين، وأوصلني إلى هنا في منتصف الطريق.

ـ أرى أنكَ تعبان وجائع.. هل تروم بعض الطعام؟.

ـ أشكركَ يا شيخ لدي بعض الخبز يعينني على ملأ فراغ معدتي.

ـ لا بأس يا ولدي، فلدي قليل من الطعام ممن وهبه إليَّ بعض الخيرين، ولن أقاضيكَ ثمنه، أو أي أجر عليه، أودكَ لو تشاركني إياه، لقد أمضيتُ سنين آكل لوحدي هنا في هذا المكان الخالي التعيس.

جلب الشيخ بعض الطعام، وجلسنا في أرض الرواق، وبدأنا نأكل في الصحن الذي جلبه، ويحوي بعض قطع اللحم المشوي والخضروات المطبوخة، ونتجاذب أطراف الحديث، وسألتُ الشيخ:

ـ أتعيش هنا لوحدكَ في هذا المكان؟

ـ نعم يا بني؛ كما ترى؛ فليس هناك أحد سواي في هذا الجوار.

ـ أين أهلكَ هم الآن؟

ـ هم عديدون، بعضهم تحت الثرى بانتظاري، والبعض الآخر سئم المكان وصحبتي، وآثر صحبة الأصدقاء، ومن ضمنهم ابني الوحيد سعد... قلْ لي يا ولدي: ما اسمكَ؟

ـ أنا أُدعى صالح... عذرًا يا شيخ: لماذا لا يزوركَ ابنكَ؟

ـ لم أرَه من زمنٍ بعيدٍ، وكل يوم أجلس هنا في هذا الرواق الخالي، أدعو له بالخير والنجاح في حياته، وفيه لي بعض الراحة والسلوان فيما تبقى لي من الوقت في هذه الحياة.

ـ أنا آسف يا شيخ، إنْ كنتُ قد آثرتُ لكَ بعض الأحزان والشجون التي لا داعي منها الآن.

ـ لا بأس يا ولدي، أصبحتُ قليل الاكتراث والاهتمام في هذا الوقت من الزمان من كثرة الحرمان، وسؤالكَ هذا أسمعه دومًا من الزوار هنا... أين مسعاكَ يا ولدي؟.

ـ إلى المدينة يا شيخ، لقد سئمتُ الحاجة، وبئس العمل في داري، وأودُّ البحث عن جديدٍ في حياتي يسعدني ويحقّق أحلامي.

ـ وكأنكَ تذكُرني بابني الذي ترك الخان هنا ورحل بعيدًا عني سعيًا وراء أحلامه، ولكنكَ لازلتَ فتًا يافعًا، والمدينة مكان صعب الريادة.. هل تعرف أحدًا هناك ليعينكَ ويساعدكَ في مسعاكَ؟.

ـ لدي قريب في المدينة وعدني بالمساعدة وإيجاد عمل لي هناك، وكذلك بعض الأصدقاء الذين سبقوني إلى هناك، أنا لم أكمل دراستي في قريتنا، وأودُّ أنْ أعمل، وأنْ أُكمل ما بدأته، عسى فيه خيرًا لي ونجاحًا في المستقبل.

ـ لقد تأخر الوقت الآن للذهاب إلى المدينة، وكما تلاحظ فإنَّ الطرق تبدو خالية تمامًا عند حلول الظلام، ارتاح هنا اللَّيلة عسى أنْ تجد في صباح غد مَنْ يوصلكَ إلى هناك.

ـ أشكركَ يا شيخ، وأرجو ألّا أكون عبئًا ثقيلًا عليكَ.

ـ على العكس يا ولدي، يسعدني تبادل الحديث ودردشة الكلام... قلْ لي: من أين أتيتَ؟ ومن أي مكان؟ ومن هم أهلكَ الذين تركتهم؟

ـ أنا من قرية ليستْ بالبعيدة جدًا في ذلك الاتجاه على الطرف الآخر إلى الجنوب من الطريق السريع، تدعى قرية "الملوم"، وأهلها من عشائر مختلفة ومتنوعة، أمضيتُ عدة ساعات في المسير من هناك لأصل إلى الطريق السريع، وبإحدى المركبات أدركتُ إلى هنا... يا شيخ أودُّ أنْ أسألكَ عن هذا المكان: لماذا هو مقفرٌ وعديم السكان هكذا؟

ـ أنتَ محق يا ولدي، فإنه يبدو مكانًا مهجورًا ومقفرًا إلّا منِّي، ومن بعض الخفافيش والغربان، يتوقف الناس هنا أحيانًا للراحة، وشرب بعض الماء والاغتسال، ويمنون علي بما تيسر لهم من أجرٍ، وما تيسر لهم من خيرٍ وعطاءٍ.. هذا المكان كان في السابق مزدهرًا، ويمضي المسافرون فيه؛ وبالأخص التجار المرتحلين؛ وقتهم بالراحة، ويتناولون فيه بعض الطعام، وبعضهم كان يبيت اللّيلة هنا قبل أنْ يكملوا رحلتهم إلى مختلف الأركان على خيلهم وداوبهم ومعهم بضاعتهم.. ولكنَّ ذاك الزمن قد مضى وولّى، وتغيَّر الحال هنا بعد بناء ذاك الطريق السريع، ولم يعد الناس يمرون عليه كما كانوا يفعلون في الماضي، ولم يعودوا بحاجة إلى الخان، وهُجرتْ أروقته وغرفه، التي كانتْ يومًا ما تمتلئ بالضيوف والزوار... قلْ لي يا ولدي: هل لكَ أهل وعشيرة؟

ـ نعم يا شيخ، وهم كُثر وعلى ما يرام، وبحالٍ لا بأس به، نملك أرضًا كبيرة يعمل فيها أبي، ويعينه أخي في فلاحة الأرض وزراعتها، ورعي الأغنام والماشية كذلك، والتي نمتلك منها عددًا لا بأس به وما تيسر لنا، ووالدتي على رغم علتها تقوم بغزل القطن والصوف، وتحلب البقر، وتهيئ الطعام لنا، والحال بخير ومرضي للجميع؛ فيما عداي أنا الذي هجرتُ المكان.

ـ ولماذا لا تقنع بذاكَ الحال؟

ـ وددتُ من صغري أنْ أكون ذا شأن كبير، وبعلو المقام والمنى كثيرًا، عدم قدرتي على إكمالي التعليم، ولا ألوم أبي ولا أهلي على

ذلك أبدًا، ولكنَّ هذه هي رغبتي، ومشيئتي، وهدفي في الحياة، وأنا في الطريق مزمع على إتمام ما عزمتُ عليه من زمان.

ثم استطردتُ بعد برهةٍ من الصمت، وسألته:

ـ قلْ لي يا شيخ: لمَنْ هذا المكان؟ ومَنْ مالكه؟ هل يعود إليكَ؟

ـ لا، هذا المكان أنا لا أمتلكه، وليس لي فيه أي حجر، أنا أعمل هنا فقط في إدارة شؤونه والإشراف عليه، وقد بُني من زمنٍ بعيدٍ في ذكرى لأحد الأمراء طيب السريرة، وسيِّد للقوم، وعالي المقام، وكان يرتحل بكثرة، ويأتي إلى هنا مع بعض الأفراد والأعوان من حاشيته ومن الأصدقاء للراحة والاستجمام، حيث ينصب خيمته حول هذا المكان لوجود عين الماء تلك، ويذهب ليصطاد ما وجد في البرية من الحول والغزلان، وفي المساء يمضي الوقت هنا مع جماعته في نظم الأشعار وسرد القصص وطيب الحديث وشجي الغناء، ودأب الأمير على القدوم إلى هنا لعدة فترات وبانتظام؛ بعيدًا عن هموم الدنيا وصخب الرعية ومشاكلهم.. وفي يومٍ مغبرٍ وعاصفٍ أصابه الوهن والمرض وشدة الإعياء، ووافته المنية التي لم تمهله وقتًا هنا في ليلةٍ ظلماء سخماء، وألمَّ الحزن أهله ورعاياه، وكان للأمير زوجة تكنُّ له الحب بشدة وبسخاء، حزنتْ كثيرًا على فراق زوجها، وألمتها حسرة الرحيل هكذا بلا وداعٍ، وأمرتْ ببناء هذا المكان لذكرى زوجها وحبيبها الأمير، وأغدقتْ عليه بالمال حينها؛ ليكون مقامًا يرحب ويريح المرتحلين والغرباء به على السواء، ولكي تزوره هي كلما كان لها في ذلك مقدور ومستطاع؛ لتحي ذكرى زوجها الراحل بقراءة بعض قصائد الشعر والغناء.

ـ وهل لا تزال الأميرة تمرُّ هنا على الخان؟
ـ لا، لقد وافتها المنية هي كذلك، ورحلتْ منذ زمانٍ بعيد، والتحقتْ بزوجها الأمير الراحل في عالم الأموات، وتوقف القادمون إلى هنا لإحياء ذكرى الأمير، ولم يعد من الناس مَنْ يذكره، أو يذكر زوجته في شعرٍ، أو في غناءٍ، وهُجِرَ المكان مع رحيلها.
ـ لماذا لم ترحل أنتَ كذلك يا شيخ وتترك هذا المكان؟
ـ لا أقدر على ذلك يا بني، فلا أعلم أين أذهب؟ وماذا أعمل؟ لقد ولدتُ هنا، وقضيتُ كل حياتي في هذا المكان، وكما ترى شظف العيش وعسر المقدرة، وأنا لا أزال بأمل قدوم ابني الغائب عني...

ثم أكمل كلامه:
ـ لقد ألمَّ بي بعض التعب يا بني، وأنا ذاهب لآخذ قسطًا من الراحة وأنام، هناك في الغرفة بعض الفرش والأغطية اجعلها لكَ للمنام، وخيرًا ما يجلبه لكَ الصباح.
ـ أشكركَ يا شيخ على كرم الضيافة.

دخلتُ إلى الخان أتبع الشيخ، وكان أول ما رأيته هو غرفة كبيرة كأنها صالة واسعة الأركان، تتوزع فيها طاولات وكراسي، ويعلوها سقف مصنوع من عقود خشبية، تتدلى منها مصابيح الضياء المعلقة بأسلاك، ويؤطر جدرانها نقوش وزخارف، تتخلَّلها نوافذ مغطاة، ومحصنة بقضبان حديدية... قادني الشيخ من خلالها، وقال:
ـ هذه الصالة، وهنا أُقدِّم الطعام للزوار إنْ قدِموا.

ومضى الشيخ متوكئًا بخطى ثقيلة نحو بابٍ في نهاية البهو، وفتحه، وولجنا منه إلى دهليزٍ، وأشار إلى يمناه، وأردفَ:
ـ هذا هو المطبخ، وتلك غرف الخان على شمالكَ، يمكنكَ أنْ تنام في أي واحدة منها.

ومضى إلى غرفة له فيها منام بسيط من فرشٍ رث وعتيق، وكأنه لم يبدَّل لسنين، فشعرتُ بالأسى لحال الشيخ، ومضيتُ إلى بعض الفرش على الأرض في إحدى الغرف المجاورة، واستويتُ فيه أملًا في فجر يوم جديد... وداهمني بسرعة النوم الذي اشتقتُ إليه بعد جهد اليوم، وتعب الترحال.



الفصل الثالث

أيقظني ضجيج المركبات القادم من الطريق السريع صباحًا مبكرًا جدًا مخترقًا النوافذ المفتوحة على مصراعيها، ووثبتُ من الفراش لأنهض، وعلا صوت الشيخ مناديًا:

ـ تعالَ يا ولدي اغتسل واشرب بعض الشاي.

ـ دمتَ صباحًا يا شيخ، آسف لقد أخذني النوم بعد جهد يوم أمس في الطريق.

ـ لا تهتم، فضجيج المركبات على الطريق السريع يعلو مع الفجر ويوقظ كل الأحياء، أرجو أنْ تكون قد استرحتَ في نومكَ وأخذتَ قسطًا وافيًا من الراحة.

ـ نعم يا شيخ، لقد احتجتُ لهذه الاستراحة قبل أنْ أكمل طريقي.

ـ بالتوفيق يا بني، اشرب الشاي، ولدي بعض الخبز قد يسد بعض الحاجة.

جلسنا نرتشف الشاي بهدوءٍ، وسألته مجددًا عن العمل في الخان، وقلتُ للشيخ:

ـ ألَّا يعينكَ أحدٌ هنا في العمل؟

ـ لا، العمل هنا قليل جدًا في الخان، والعمال يرفضون القدوم إلى هنا للعمل؛ لقلة ما يحصلون عليه من مالٍ وأجر، وفي الماضي

البعيد كان ينتشر هنا بعض قُطاع الطرق، الذين يسلبون وينهبون من بضائع التجار، ولم يعد يُقدِّم من التجار سوى القليل منهم، والآن كما ترى يا بني هذا الطريق السريع، وأصبحتْ الناس تتنقل بالمركبات، ولم يعد لهم حاجة للوقوف هنا سوى لقضاء حاجتهم الضرورية.

لم يكمل الشيخ حديثه، حيث سمعنا نقرًا خفيفًا على الباب، فهبَّ الشيخ متثاقلًا؛ ليفتح ويرى مَنْ الطارق، فإذا به طفلٌ يتراوح عمره ما بين خمسة وسبعة من السنين، نحيف البدن بشعرٍ أسود كثيف، وملابس مهلهلة، تتساقط الدموع عن عينيه بلا كلام، وجزع قلبي لرؤياه، فهو يبدو مفزوع، ومرعوب الجنان، وبحالٍ يرثى له، وقال له الشيخ:

- ماذا بكَ يا ولدي؟.. وما جرى لكَ؟

لم يُجب الولد سوى بتمتمةٍ وبصوتٍ غير مفهوم، وهو يمد يده اليمنى إلى الشيخ؛ ليمسك باسمًاله، وبيده اليسرى يؤشِّر إلى مكانٍ ما، وعاود الشيخ سؤاله عمَّا في الأمر، ولم يُجب الطفل، وكل ما نسمعه منه هو أصوات غير مفهومة، وبدموعٍ متساقطة تغطي وجه الخائف والحزين المرتجف؛ لمس الطفل رداء الشيخ وسحبه، وكأنه يود أخذه إلى مكانٍ ما... وسرنا مع الطفل إلى خارج الخان نتبعه؛ كي يقودنا إلى ما يروم، وترجاني الشيخ أنْ أرافقه لكونه لا يقدر على مجاراة المسير السريع، فأخذتُ بيد الطفل علَّه يدلني على ما يريد.

مشينا مسافة ليستْ ببعيدة وسط الأرض الجرداء حول الخان إلى خلف مجموعة من الأشجار، وأشار الطفل، وهو يتمتم باتجاه شيء على الأرض، واقتربنا منه فإذا به امرأة ملقية بلا حِراك، وهرول الطفل نحوها، ولامسها يحاول تحريكها بلا مجيب، ووقفتُ بجانبها حائرًا خائفًا، لا أدري ماذا أفعل وسط بكاء وعويل الطفل اللامنقطع؟ وجمدتُ بلا حِراك، والطفل يتمتم بشيءٍ لا أفهمه، والمرأة لا تجيب ولا تتحرك، وقَدِمَ الشيخ بعد برهةٍ عدتها سنين، واقترب منِّي يتساءل:

ـ ماذا يجري؟

أشرتُ إلى المرأة.. فدنا الشيخ من البدن الساقط بلا حِراك، يستعلم عن حالها، وحاول هو كذلك تحريكها بلا استجابة، ثم نظر حوله، ونهض بصعوبة متوكئًا على العصى:

ـ يجب أنْ نطلب المساعدة والنجدة من شخصٍ ما، أنا لا أعلم إنْ كانتْ على قيد الحياة أم لا.

ـ أين المساعدة الطبية؟ وكيف نطلبها؟ (أجبته متسائلًا بشغفٍ وقلقٍ عميق يعتريني)

ـ يجب أنْ أذهب إلى الحي المجاور هناك؛ لأطلب المساعدة، ابقَ أنتَ هنا مع الطفل لحين عودتي.

ـ أنا خائف يا شيخ، لا أعلم ماذا أفعل مع الطفل، أو لهذه المرأة؟.

ـ لا بأس يا صالح لن يأخذ الأمر كثيرًا، فقط هَدِئ روع الطفل وروعك أنتَ إلى حين أنْ آتي بمَنْ يعالج الأمر، وينظر إلى حال هذه المرأة علّه يساعدها وينجدها.

مضى الشيخ متثاقلاً باتجاه الحي، وأنا مرتعد الأوصال، متجلد من الخوف بجانب الطفل النائح وبدن بلا حِراك، أحاول تهدئة الطفل، وتهدئة نفسي في نفس الوقت... نظرتُ إليها بتركيز، كانتْ تبدو امرأة مسنة صغيرة الحجم والبدن، مرتدية ملابس داكنة تغطي بالكامل كل بدنها المرتمي على الأرض، ويلف رأسها وصدغها وشاح أسود... أدرتُ وجهي عنها، وبدأت ألوم حظي على ما جرى وعن التأخير المفاجئ الذي حصل لترحالي، وكيف أخرج من هذه المحنة المفجعة للذهاب وإكمال رحلتي التي شُلَّتْ هنا في منتصف الطريق.

بدأت الأفكار توسوس، والهواجس تنخر في ذهني المشلول، وأصوات الطفل ونياحه تخرم أُذني، وبدني متصلد غير قادر على الحِراك، كأني جمدتَ في أتون هذا الزمان الغريب...

وبينما أنا على هذا الحال أتتْ من بعيد فتاة مهرولة باتجاهنا، ومن خلفها يمشي الشيخ ببطءٍ، واقتربتْ منا، ودنتْ، ومالتْ على جسد المرأة الملقاة بقرب الطفل؛ لتعاينها وتفحص البدن لترى أي علامة من علامات الحياة في جسدها...

مرَّتْ بضع لحظات قبل أنْ ترفع رأسها، وتسألني:

- هل أنتَ قريبها؟ (وكانتْ الفتاة تقصد المرأة الملقاة على الأرض)

- لا أعرفها ولم يسبق لي مشاهدتها من قبل. (أجبتُ بسرعة وبلا تردد).

غيَّم الصمت للحظات قبل أنْ يصل الشيخ، ويسألها:

- ماذا في الأمر يا بنيتي؟ وماهو حال هذهِ المرأة؟
- أخشى يا شيخ أنها قد فارقتْ الحياة، لم أجد أي نبض في عروقها، وجسدها بارد لا يستجيب، وكأنها توفيتْ من زمن.
- هل أنتِ متأكدة يا ابنتي؟
- نعم يا شيخ.
- وما العمل الآن؟ (استدركَ الشيخ في حيرة)
- نتصل بالشرطة، وهم سوف يتحرون الحادث، ويقومون بالإجراءات اللازمة.
- نعم يا بنيتي، لابد من إخبار الشرطة في الحال؛ للبحث عن أهلها وأقربائها وإخبارهم بما جرى لها.

مشى الشيخ باتجاه الطفل؛ ليبعده عن الجثة، واستدار نحوي، وقال لي:
- يا صالح لا يجب ترك الجثة هكذا على هذا الحال مرمية، أرجوكَ أنْ تذهب إلى الخان وتجلب بعض الأغطية؛ لنضعها على المرأة الملقاة، سوف تجد هذه الأغطية في غُرف الخان، اجلب ما تجد هناك بسرعة.
- نعم يا شيخ.

أجبته، وهرولتُ مسرعًا عائدًا إلى الخان، وأخذتُ ما وجدته هناك من أغطية ملقاة في غرفه، وعدتُ مسرعًا، وناولته الأغطية فألقاها على الجثة الهامدة بلا حِراك، وأنين الطفل متواصل بلا انقطاع.

استدارتْ الفتاة نحو الطفل، وقالتْ:

ـ أظن أنَّ هذا الطفل أبكم وغير قادر على الكلام، فهو لم يتوقف عن النوح والبكاء في صمتٍ وهوان، ربما بسبب الصدمة.

توقفتْ الفتاة عن الكلام، ومسحتْ الدموع عن عيني الطفل بمنديلٍ بيدها، ثم بدأت بالبحث في جيوبها، وأخرجت من جيبها شيئًا يشبه الهاتف النقَّال، وبدأتْ تلامس أناملها ذاك الشيء، ثم أخذتْ بالكلام، ووصفتْ ما هو الحال، وأين مكان الحادث؟...

وأنا مذهول أتابع بعيني ما يجري، وأقول في نفسي: حتى هذهِ الفتاة القروية تمتلك من هذا الهاتف النقَّال... وبدأتُ القول في نفسي: كم تخلفتُ عن ركب الحضارة، وعن ما هو متاح في هذا الزمان.

ثم أردفتْ الفتاة بالقول:

ـ إنهم قادمون. (وكانتْ تقصد الشرطة)

نظرتْ الفتاة إلى الشيخ، وقالتْ له:

ـ أتعرف هذه المرأة يا عمي الشيخ؟

ـ لا يا ابنتي، على الرغم من ضعف بصري وقلة ذاكرتي، فأنا لا أذكر رؤيتها من قبل.

ـ مسكين هذا الطفل، إنه يبدو قليل الفهم وأخرس، ولا نعرف مَنْ هو؟ ومن أين قدموا؟ وأين هم أهله؟ ربما تستطيع الشرطة أنْ تحل لغز ما حصل.

واستدركتْ قائلةً:

ـ ومَنْ هذا الشاب؟ (وكانتْ تنظر إليَّ باستفهام).

ـ إنه صالح.

أجاب الشيخ، واستطرد يقول:

- أتى من قرية بعيدة في الجنوب، وقضى اللَّيلة في الخان في طريقه إلى المدينة، وكان متهيأً للمغادرة لإكمال رحلته قبل أنْ يحصل ما حصل، وما جرى لهذه المرأة.

نظرتُ إلى الفتاة لأستطلعها، فلم يتح لي ذلك من قِبل كثرة الأحداث، ونظرتْ هي باتجاهي أيضًا...

استطرد الشيخ مهمومًا:

- هذه رنين من الناحية المجاورة للخان، سمعتني أطلب المساعدة وأتتْ للحال معي إلى هنا.

حلتْ لحظاتٌ من الصمت، تقطعها نياح الطفل وبكاؤه، وكانتْ كالساعات بالانتظار، أودُّها أنْ تمضي لألحق بالطريق والمضي بالترحال... ومضتْ دقائق وأخرى مثلها تتبعها، وكانتْ ثقيلة كثقل السندان، تسمع الطرق عليه، ويهتز في داخلكَ الوجدان، وما تبقى منه بعد الصدمة المفزعة...

وأخيرًا، وصلتْ مركبتان تحملان ألواح وشعار الشرطة، واقتربتا من حيث نقف، وترجل منهما بعض الرجال مزودين بالأسلحة وبعض الأصفاد، ومضوا يعاينون المرأة الطريحة؛ بعد السلام علينا... وقَدِمَ إلينا أحد الأفراد منهم يحمل معه سجلًا في يده، وبدأ بالسؤال عمَّا حصل لها:

- أودُّ أنْ أعرف اسمك وعنوانك؟ وما رأيت؟

أردفَ الشرطي، وهو يحادث الشيخ وبيده الكتاب، وفيه يسجل ما يسمعه، ويكتب ما يفهمه من كلام الشيخ عن تفاصيل الحادث.

أعطى الشيخ الشرطي ما أراده من معلومات، ووصف له كيف جرتْ الأمور على ما جرتْ هذا الصباح، وكيف وجدنا المرأة طريحة الأرض بلا حِراك، ولا نعلم مَنْ هي؟ ومن أين أتتْ؟ وأين كان مراميها مع هذا الطفل المعاق؟.

ثم أتى الشرطي بدوره إليَّ كذلك؛ لطرح نفس الأسئلة، وأجبته بما أعلم وما شاهدتُ.

وبينما الشرطي يستجوبنا قَدِمَ إلينا ضابط الدورية، يتفحص كل فرد بعينيه، ثم سأل نفس السؤال إذا كنا نعلم مَنْ هي المرأة؟ ومن أين أتتْ؟، وأردفَ يقول:

ـ سوف تأتي مركبة خاصة؛ لأخذ جثة المرأة إلى الطب العدلي للتأكد من سبب الوفاة، وأنتم حاليًا بمثابة شهود على ما جرى.

واستدار إلى الشرطي، وسأله أنْ يأخذ كل المعلومات عنا، ورد الشرطي بالإيجاب، وأردفَ يقول، بعد أنْ استعلم عني، ومن أين قَدِمتُ؟:

ـ أنتَ يا صالح من قرية بعيدة، ومسافر إلى المدينة، ولستَ من هذه الديار، ولا أعلم عنوانكَ بالتحديد؛ لذلك سوف تبقى هنا لبضع أيام إلى أنْ نتأكد من سبب الوفاة، ومما حصل لهذه المرأة.

اعترضتُ على ما قاله ضابط الشرطة:

ـ أنا ذاهب في طريقي إلى المدينة، وكل ما أعلم قلته لكم، وأنا لا أعرف مَنْ هذه المرأة المسكينة، ولا هذا الطفل، وليس لي أي علاقة بالأمر كله.

أردفَ الشيخ للضابط مستنكرًا كذلك أوامره الجائرة:

- ماذا تريد منه؟ اتركه لشأنه يذهب ويكمل طريقه، ليس له علاقة بأي شيء جرى هنا.

- آسف يا شيخ - أردفَ الضابط - أنها أوامر وإجراءات احترازية، يجب التأكد من كل شيءٍ وبالتحديد سبب وفاتها، ولن يستغرق الأمر كثيرًا، ويمكن لصالح أنْ يستأنف سفره بعد ذلك، إنْ كان كل شيءٍ على ما يرام، وإنْ كانت وفاة المرأة طبيعية وقضاء وقدر، وليس فيها حادث إجرامي.

- وماذا عن الطفل؟ (سألت رنين الضابط بحدة)

- لا أعلم، ولا يمكنني أخذه مع الجثة، ولا أنْ آخذه إلى مركز الشرطة.

ثم أردفَ يتابع:

- سوف أتصل بمركز الشؤون الاجتماعية؛ كي يأخذوه إلى دار الأيتام كإجراءٍ مؤقت إلى حين أنْ نعرف مَنْ هم أهله؟ ومَنْ هم أقرباؤه؟ إنْ كان له أحد ليتسلمه ويأخذه عنده بعد التأكد من هويته.

ثم تابع كلامه:

- هل هو بخير؟ (سأل الضابط رنين عن الطفل).

أجابته:

- لا أعلم، إنه أخرس معقود اللسان لا يتكلم، وقليل الفهم لا يعي ما جرى للمرأة وما حصل هنا لهما، وقد تكون هي أُمه، فهو كما ترى لم ينقطع عن النوح والبكاء لحد هذه اللحظة.

استطردتْ رنين:

ـ إنه مسكين في أصعب حال، ويحتاج لمَنْ يسكّن روعه، ويمده بالاطمئنان.

ـ لا نعلم إنْ كان جائعًا أو عطشان. (استفسر الشيخ) ثم تابع: سأصحبه إلى الخان؛ ليغتسل، وليحظى ببعض الشرب والأكل إلى أنْ تقرِّر ما العمل.

وكان يوجه كلامه إلى الضابط؛ الذي أجابه:

ـ نعم يمكنكَ أخذه الآن إلى أنْ أعود إليكَ بخبرٍ ما... وأنتَ يا صالح سوف ترافق الشيخ إلى الخان، وتبقى هناك لحين ما ننهي هذه الإجراءات، ولا تحاول المغادرة أبدًا. (قالها الضابط بلهجة آمرة)

مشينا نجرُّ أقدامنا جرًا، ومعنا الطفل الذي أبى أنْ يترك المكان، وعينيه الدامعتان لا تغافلان بدن المرأة الملقاة، وكنا نسحبه معنا بلطف، ونحاول تهدئته وتطييب خاطره بالكلام، على الرغم من أنه لا يفقه ما نقوله له.

وأثناء عودتنا سمعتُ ضابط الشرطة يتحدث إلى رنين بكلامٍ خشن ويزجرها، وكأنه تغيَّر من شخصٍ مؤدب يقوم بواجبه إلى آخر وقح رديء المزاج عصبي:

ـ عودي إلى دارك الآن، وهذا خروجك الاضطراري مسامح هذه المرة؛ لأنه كان استثناء لتقديم المساعدة للشيخ الذي كان في حالٍ صعب، ولن أقبل بذلك مستقبلًا لأي كانتْ من الأسباب، لأنكِ يجب أنْ تبقي محتجزة في دارك ممنوعًا عنكِ مواربته، كما تقضي بهذا الأوامر.

لم تجب رنين بشيءٍ، وإنما استدارتْ ومشيتْ في غضبٍ وتعالٍ، ونحن نراقبهما من بعيد.. ثم وقفتْ وتغيرتْ ملامحها فجأة، ونظرتْ إلى الضابط، وقالتْ له في لهجة استعطاف، وحنان، وخنوع مفتعل:
- أودُّ أنْ أطمئن على الطفل المسكين إنْ سمحتَ لي بذلك، فقط دعني أَمُرُّ على الخان للسؤال عنه، فهو في حالة سيئة وواجب العناية به ورعايته، إلى أنْ تنقضي هذه الإجراءات، وكما ترى فإنَّ الأمور صعبة على الشيخ غير القادر على الاهتمام بالطفل لوحده في مثل هذه الظروف.

لم يُجب ضابط الشرطة، ولكنه بقي يفكر، وينظر إلينا ونحن عائدون إلى الخان.. وبعد برهةٍ قال لها:
- اذهبي الآن لداركِ إلى أنْ يتمَّ نقل الجثة، وبعدها يمكنكِ فقط أنْ تذهبي للخان للسؤال عن الطفل، وتساعدي الشيخ في أمر رعايته المؤقتة ولا غير ذلك، وتعودين لداركِ بعدئذ.. هل هذا واضح؟.

ردَّتْ رنين بالإيجاب، وتابعتْ مسيرها عائدة نحو الحي الذي قَدِمتْ منه، وأنا أتابعها بطرف عيني.

وبعد مسيرٍ بسيط قبل الوصول إلى الخان، تجرأتُ بدافع الفضول، وسألتُ الشيخ عمَّا سمعناه، وما جرى بين رنين والضابط، ولكنه أجابني بعدم علمه بأي شيء سيئ عن رنين، وكل ما يعلمه أنها فتاة مؤدبة مثقفة من أهل الحي، وما جرى لها سوف يستعلمه لاحقًا منها عند مرورها بالخان؛ للاطمئنان على الطفل.

وصلنا الخان بعد جهدٍ، وأخذتُ الطفل لغسيل وجهه ببعض الماء، والذي لم ينقطع عن البكاء، وكان متقد العينين، وبوجهٍ شاحب، وبملابس رثة يملؤها الغبار، وجلسنا على الأرض في الرواق خارج الخان، وبدأتُ أُحاول استخدام لغة الإشارة؛ على الرغم من عدم معرفتي التامة بها؛ مع الطفل، محاولًا معرفة مَنْ هو؟ وماذا يجول في خاطره؟ ومَنْ هي هذه المرأة المتوفاة؟ وماذا تربطه بها من قرابة؟... كثيرة هي الأسئلة التي أودُّ معرفة إجاباتها منه، وما باليد كثيرًا من الحيلة.

جلسنا في سكونٍ بعد يأسي من حصولي على أيَّة إجابة مفهومة منه، وكان الطفل قد بدا وكأنه آمن بما حصل له، واستسلم لقدره، وهدأ بعض الشيء، وأشرتُ له بيدي على فمي كأنما أقول له:

ـ هل تود بعض الأكل؟

وكان الرد بـ: آه.

وفهمتُ منه أنها تعني نعم.

في أثناء ذلك قَدِمَ الشيخ ومعه بعض الخبز والطعام والماء، وأعطاه بيده ليأكل، وكانتْ عيناي تراقبه عطفًا وتلهفًا لسبر غور أعماق هذا الكيان، وهطلتْ دموعي مترقرقة أسىً على حاله، وما جرى له هذا اليوم المشؤوم، وعلى حالي وما يخبئه القدر لي من مفاجآت محزنة وصعبة.

جلس الشيخ بجانبنا، وأردفَ بالقول يخاطبني:

ـ شد من عزمكَ يا ولدي، ولنساعد هذا الطفل المسكين في محنته هذه إلى أنْ تنجلي الأمور.

ـ أنا أحاول أنْ أتواصل معه بالإشارات اليدوية، وكذلك هز الرأس، وهو يستجيب للبعض منها.

ـ نعم يا ولدي، يجب أنْ نجد أيَّة وسيلة للمخاطبة معه، وتفهُّمه على الأقل.

ـ ربما الشرطة تعلم عن شخصٍ متمرس يعرف لغة الإشارات يجلبونه للمساعدة، ويفك عقدة ما حصل، ونعلم مَنْ هو؟ ومَنْ هم أهله وذويه؟.

ـ لا تنتظر الكثير منهم، فهم منشغلون بقضايا أدهى وأهم من أمر هذا الطفل المعاق.

هززتُ رأسي دليلًا على عدم اقتناعي بكلامه، وقلتُ للشيخ:

ـ في هذه الظروف الصعبة، يجب أنْ يساعدونا، على الأقل يساعدون هذا الطفل المسكين، أعتقد أنكَ قد تسرعتَ وظلمتهم بعض الشيء يا شيخ، يجب أنْ ننتظر لنعرف ماذا سوف يفعلونه إزاء الطفل؟.

ـ أقولها لكَ يا صالح عن خبرة بالتعامل معهم، وليس جزافًا وتظلمًا عليهم، لقد احتجنا إلى مساعدتهم هنا في الخان مرات عديدة في الماضي، وكانوا دائمًا يتجاهلونا، ويبطئون في القدوم وحل المشاكل المتراكمة هنا وتأجيل البت بها، لكنْ أقول لكَ: إنَّ هذه هي أول مرة أحتاجهم في حالة وفاة وموت، ولم يسبق لي مواجهة مثل هذه المشكلة من قبل هنا.

ـ هل كانتْ تحدث مشاكل كثيرة في الخان؟

ـ نعم كحال أي مكان يرتاده العديد من الزوار والغرباء، ولكنَّ هذا كان في الماضي، وانعدمتْ بعد تناقص عدد القادمين وشحة الزوار، وأصبح المكان ـ كما ترى ـ منسيًا ومعدومًا.
ـ كما تقول يا شيخ، هذا كان في الماضي، وربما الشرطة تغيَّروا الآن كذلك، وأصبحوا أكثر حرصًا وأكثر عونًا للناس.
ـ أتمنى ذلك بصدقٍ؛ من أجلكَ وأجل الطفل؛ لتنتهي هذه المحنة بسرعة وتعاود سفركَ.. كانتْ الشرطة هنا في السابق في حالٍ سيئ لا يملكون عربات، ويتنقلون سيرًا على الأقدام من مركزهم البسيط الواقع في الحي؛ وأعتقد أنه الآن مغلق؛ وكان التُجَّار القادمون إلى الخان في الماضي لا يثقون بهم أبدًا، ويستأجرون حُرَّاسًا لحمايتهم، وحدث ذات مرة أني ذهبتُ إلى مكتب قائم مقام الحي؛ لأشتكي إليه إهمال الشرطة لنا وعدم حلهم للمشاكل العالقة وبطئهم الشديد في المساعدة والاستجابة لنداءتنا الملحة، وألقى عليَّ في حينها محاضرة طويلة، حاول فيها إقناعي بأنَّ الشرطة منشغلة ومهتمة بأمور حماية النظام وأمنه، وهذه أولوية لها، ويليها في الأهمية المسؤولون المهمون والأثرياء، وما شاكلهم في هذه البلاد، وما تبقى في أسفل الهرم العريض من عامة الناس، يكون لهم حيز قليل من مهام الشرطة ومسؤوليتها... أزعجني كلامه حينها وبدا وكأنه مغلوب على أمره، وخرجتُ في حينها من مكتبه غاضبًا، ولم أذهب بعدها إلى الحي سوى لشراء حاجيات الخان الضرورية... وكما ترى؛ فإنَّ هذا الطفل المعوق بحسب نظرية القائم مقام، هو نواة صغيرة جدًا صامتة وتائهة في أسفل هذا الهرم الشاهق، ومن

الصعب جدًا أنْ ينظروا إليه من ذاك العلياء؛ ليلحظوها في خضم كل ضجيج وصخب هذه الجماهير العريضة الطامعة اللامبالية.

وجدتُ أنَّ مثل هذا الكلام سلبي وغير مُجدي في مثل هذه الظروف الصعبة، وقلتُ له:

ـ عقَّدتَ الأمور جدًا يا شيخ، وأظلمتها في وضح هذا النهار.

في خضم هذا الحديث، أتتْ رنين محملة ببعض الأشياء، وأردفتْ بالقول:

ـ جئتُ ببعض الطعام؛ لعلمي بعدم قدرتكَ على إعداده لسد حاجة الطفل. (قالتها بشكلٍ لا يجرح مشاعر الشيخ؛ لقلة ما لديه من طعام) وأكملت حديثها:

ـ جلبتُ كذلك بعض الملابس للطفل، وبعض اللُّعب؛ لتنسيه بعض الشيء مما يعانيه في هذه الظروف الصعبة.

ـ أنتِ فتاة نبيهة، وحسَّاسة، وتتفهمين قيمة الواجب في هذا الوقت الحرج.

ـ أي خبر من الشرطة؟ (سألت رنين، وهي جالسة بجانب الطفل تعطيه بعض الطعام، وتراعيه بحنانٍ كأختٍ كبرى له).

ـ سؤالكِ جدًا مبكر، وتعلمين هذا.

ـ نعم يا شيخ، آسفة لسخف سؤالي وكِبر آمالي في حلٍ سريع لهذه المشكلة.

حشرتُ نفسي في المحادثة قسرًا:

ـ كأنكِ توافقين رأي الشيخ؟.

تساءلتْ رنين:

ـ وماهو رأي الشيخ؟

ـ إنه يشك في أنَّ الشرطة سوف تبدي المساعدة لهذا الطفل المعوق المسكين.

أجابتني، وكأنها تفكّر قبل أنْ ترد:

ـ لن يقدروا على عمل أي شيء الآن؛ لأنهم لا يعلمون مَنْ هو هذا الطفل؟ ومَنْ هم أهله؟ ومن أين قَدِمَ؟ وهذه الإجراءات روتينية سوف تأخذ وقتًا طويلًا لإتمامها وإنجازها إلى حين.

ـ وما ذنب هذا الطفل؟ فهو بحاجة شديدة إلى أهله، وإلى معالجة صحية ونفسية، وإلى مكانٍ لرعاية المعوقين في مثل حاله الصعب.

ـ ما تقوله قد يكون صحيحًا، ولكنْ إلى أنْ تعرف الشرطة مَنْ هم أهله؟ يبقى هذا الطفل مجهول المصير.

أردفَ الشيخ بالقول:

ـ وإنْ اودعوه دارًا للأيتام؛ لجهلهم بأهله؛ سوف تجده بعد حينٍ في أحد شوارع المدينة يتسول، وينام تحت إحدى الأشجار في العراء، فالضعيف هنا في هذا الزمان، ومَنْ لا أهل له، وبلا مال، ولا صوت مسموع؛ يضيع، وتخنقه العبرات، وتدوسه الأنانية، وتهمله عدم المبالاة لكثير من الناس.

حلَّ صمتٌ شديد، وألمٌ كبيرٌ اعتصر فؤادي من كلام الشيخ في مواجهة هذا المصير المجهول الذي ينتظر هذا الطفل المسكين اليتيم في ظروفٍ قاسية لا ترحم.. ونظرتُ إلى حالي وتراءى لي كم كنتُ محظوظًا في هذهِ الدنيا! فلدي أهلي الذين ساندوني واهتموا بي منذ

الصغر، وأنا قادرٌ على إدراك الأمور في الحياة وقادرٌ على إيصال صوتي وإسماع مَنْ أشاء ما يكمن في داخلي وما يخالج أعماقي من أفكارٍ ورغبات.

كسرتْ رنين جدار الصمت بسؤالي:

ـ سمعتُ أنكَ تروم الرحيل إلى المدينة، إذا سمحتَ لي بالسؤال عن غرضك من الذهاب إلى هناك؟

ـ أودُّ أنْ أكمل دراستي إنْ قدرتُ على ذلك، وأنْ أجدَّ عملًا أعيش منه هناك.

ـ هكذا بكل سهولة؟.. هل هناك مَنْ تعرفه في المدينة؟

ـ نعم لي قريب وعدني بالمساعدة في إيجاد عمل لي.

ـ هل سبق لكَ الذهاب إلى هناك، أي إلى المدينة؟

ـ لا هذه أول مرة أذهب إلى هناك.

ضحكتُ بسريرتي، وأكملت كلامي بالقول:

ـ إنها لأول مرة أرحل لوحدي بعيدًا عن أهلي، وبعيدًا عن دياري.

ابتسمتْ رنين برقة شديدة، وقد تكون ضحكة استخفاف بي، لا أعلم ما في دخيلتها، ولكني بدأتُ أتفرس أكثر بملامحها، وأقرأ قسمات وجهها بعد أنْ أتيح لي ذلك الآن، ولم أكن قادرًا على ذلك في خضم الأحداث التي جرتْ صباح اليوم، وكانتْ تبدو لي دقيقة الملامح، سمراء اللون، قصيرة الشعر ذو لون داكن، وبعيونٍ شهلاء نجلاء، وقسمات وجه تدل على الصرامة والشدة، وكانتْ طويلة فارعة ذات بدن نحيف كأنها لم تأكل لزمنٍ، ولكنَّ الجلَّد والإصرار واضح على شخصيتها، وتظهر شدة الإرادة من خصالها...

قطع سلسلة أفكاري صوت طنين قادم من داخل ملابسها، وأخرجتْ رنين الهاتف النقَّال، وبدأتْ تتخاطب، وأنا مشغولٌ بهذا الشيء "الهاتف النقَّال" وهي تحتضنه كطفلٍ صغيرٍ جدًا إلى أُذنها، ورمقتني رنين بنظراتٍ، وخجلتُ وأدرتُ وجهي؛ لظنها أني قد أسترق السمع لحديثها، ولا تدرك أن اهتمامي كان فقط ينصبُّ على هاتفها، وكأنه اهتمام الطفل بلعبة يودُّها، ولم يتسنَ له الحصول عليها بعد.

أردفتْ رنين بنبرة صوت خافتة تتحدث مع الهاتف:

ـ تعلمين أنه لا يمكنني المجيء إلى المدينة في هذه الأيام، ولكني سوف أبقى باتصال دائم مع الجماعة. (هذا ما تناه إلى سماعي).

ثم أدخلتْ الهاتف في جيبها في الرداء الذي ترتديه، وأكملت اللعب مع الطفل.

استطرد الشيخ يسألها:

ـ يا بنيتي، سمعتُ ضابط الشرطة يزجركِ، ويعلو صوته عليكِ.. هل هناك ما تقدرين أنْ تخبرينا به لعلَّنا نقدر أنْ نقدِّم لكِ بعض المساعدة؟

لم تُجب رنين على السؤال، وظلتْ صامتة للحظات، وهي تلاعب الدمية مع الطفل، وكانتْ تبدو مشغولة بأفكار وساهية عمَّا حولها، ثم التفتتْ نحو الشيخ، وقالتْ بنبرة وكأنها للتو أفاقت من سهوها:

ـ همومي كثيرة يا شيخ.

ثم غيَّرتْ رنين موضوع الحديث، واستطردتْ تقول:

ـ لدي إحدى الصديقات؛ وهي طبيبة نفسانية، سوف أطلب منها أنْ تمرَّ هنا، لربما تقدر أنْ تساعدنا في فِهم دواخل الطفل، وكيفية التعامل والتخاطب معه، عسى أنْ تقبل دعوتي بلا مقابل.
ـ فكرة سديدة يا ابنتي.

أخرجتْ الهاتف ثانيةً، وبدأتْ بالنقر عليه ثم الاتصال، وابتعدتْ بعض الشيء عنا، وكأنها تودُّ إبقاء المحادثة بعيدًا عن أسماعنا.

تحدَّث الشيخ معي:
ـ هل حالكَ الآن على ما يرام، أقصد بعدما جرى، واضطراركَ للبقاء هنا، وتأجيل رحلتكَ المزمعة إلى المدينة؟
ـ أنا على ما يرام يا شيخ فقط هي خيبة الأمل.
وأردفتُ بالقول:
ـ عسى أنْ تؤول الأمور إلى خير، وأستكمل رحلتي قريبًا بعد هذا التوقف الاضطراري.
ـ أيمكنكَ الاتصال بقريبكَ في المدينة لإعلامه عمَّا حصل؟ ولماذا كل هذا التأخير؟
ـ إنه لا يعلم بعد بمجيئي، ولم أخبره برحلتي إلى هناك، وعلى أيَّة حال أنا لا أعلم رقم هاتفه وكيفية الاتصال به؛ لعدم امتلاكي هاتف، ما أملكه فقط هو عنوانه ومحل إقامته.
ـ كان يجب إعلامه قبل توجهكَ إليه، فقد يكون مسافرًا أو مشغولًا وغير قادر على مساعدتك في مثل هذا الوقت.
ثم استطرد الشيخ بعد نفسٍ عميق:

ـ يبدو أنكَ تعلّق آمالاً كثيرة على قريبكَ وقدرته على إعانتكَ في تحقيق ما تروم إليه، أرجو ألَّا يخيَّب آمالكَ، فالحال صعب في المدينة لبعض الناس هناك، والتنافس شديد لتوفير لقمة العيش والحياة الرغيدة، وهي حلم لكثير من الباحثين عن روشتة السعادة بأقصى سرعة.

بينما نحن نتحدث؛ رجعتْ رنين إلى حيث نجلس، وبدأتْ بالكلام:

ـ أرجو ألَّا أكون أقاطع الحديث.

وتابعتْ رنين:

ـ فقط لأُعلمكم بأنَّ الدكتورة وافقتْ على المجيء إلى هنا بعد إلحاحي الشديد عليها، وتعهدي بدفع أجور أتعابها كاملةً لها.

ـ كيف ذلك يا ابنتي؟ إنها سوف تكلفكِ الكثير. (قال الشيخ، وهو يستفهم منها عن تلك التكاليف).

ـ لا يهم ذلك ـ أجابت رنين ـ المهم أنْ تقدر على مساعدتنا، ومجيئها لن يكون هباءً بلا نتيجة، لابد من أنْ تنصحنا بكيفية التعامل مع الطفل بدون الإساءة إليه، ومساعدته، وفِهم ما حصل له، ولهذه المرأة المسكينة.

تساءلتُ في نفسي:

ـ لماذا هذا الاهتمام الشديد من قِبلها لهذا الطفل؟ (على الرغم من أنه يصب في صالحي إنْ حُلَّتْ الأمور بسرعة).

صمتَ الجميع لبرهة، ثم استدركتْ رنين بالكلام للشيخ:

ـ آسفة يا شيخ على تكرار سؤالي، إنْ كنتَ على معرفة مسبقة بهذه المرأة المتوفاة؛ لأنها قد تكون قادمة نحو الخان مع الطفل، ولم تكن

بعيدة جدًا عنه قبل أنْ تسقط وتموت هذه المسكينة، أقول هذا إنْ قدرتَ أنْ ترى وجهها، وتتفرَّس في ملامحها؛ على الرغم من قصر الوقت وهول المفاجأة، وقد تساعدكَ ذاكرتكَ الآن على إدراك الأمور بوضوحٍ أكثر، فالذاكرة أحيانًا تعمل بعد حينٍ وتبدأ بلملمة الخيوط المبعثرة؛ لتكوِّن صورة ولو شاحبة عن الماضي، وتبعث الذكريات المدفونة في قعر الذهن، وبالأخص لأنها كانتْ امرأة مسنة وربما التقيتها في الماضي البعيد.

ـ لماذا كل هذه المحاضرة الطويلة؟ (قاطع الشيخ كلام رنين ببعض الانزعاج)... قد أكون أعرفها، ولكني لا أقدر على تذكرها الآن بوضوحٍ، فكثير من الناس مرَّوا هنا مرور الكرام، أو قضوا وقتًا ما، وأحتاج لزمنٍ لتذكر إنْ كانتْ من الزوار أو من الأقارب، ربما تحمل في جعبتها ما يدل على اسمها ونسبها، أو أي شيء يدل على هويتها.

ـ أنا لم أبحث في أكمتها، والشرطة هي المخولة الآن، وقد يخبرونا لاحقًا بما يعلمون، وعندها نكون على يقين من هوية هذه المرأة المتوفاة.

حشرتُ نفسي مرةً أخرى في المحادثة، وقلتُ إلى رنين:

ـ هل تعرفينها؟ يبدو عليكِ الاهتمام بأمرها كثيرًا، وأمر الطفل كذلك.

أجابتني بعد ترددٍ:

ـ كنتُ أفكّر بهذه المرأة، وتراءى لي وجهها، وكأني شاهدتها من قبل، لا أعلم ربما تخيلات، ولكنَّ بعض الملامح تذكّرني بامرأة

شاهدتها هنا من بعيد الزمان بالقرب من الخان، وكانتْ مع فتاة وكانتا جالستين هنا في الرواق، وكنتُ أنا مارَّة بالقرب منهما عندما أطلَّ ابنكَ من الخان، ومعه بعض الطعام وجلس معهما، وأكملتُ طريقي إلى داري، ورغم بُعد الزمان إلَّا أني لا أزال أتذكر بعض ملامح المرأة، وقد علقتْ في ذهني منذ ذلك الحين.

ـ هل أنتِ متأكدة؟ أم أنكِ تخمنين وتحاولين تكوين صورة من الخيال؟ (سألتُها بشيءٍ من الاستغراب، ولكنها لم تجبني).

حلَّتْ برهة صمت، قال الشيخ على إثرها:

ـ أحسُّ بالندم الآن؛ لأني لم أتفرَّس كثيرًا بوجه تلك المرأة، ولم أقضِ وقتًا في محاولة التعرف عليها، واستعجلتُ الذهاب لطلب العون على أمل أنْ تكون على قيد الحياة، وهناك ربما رجاء في مساعدتها في محنتها.

ـ لا بأس الآن، فالأمر بيد الشرطة. (أجابت رنين)

قَدِمَتْ مركبة تسير ببطءٍ إلى قرب الخان، وتوقفتْ في المرآب القريب، وبقيتْ واقفة لبرهة من الزمن، ولم يترجل أحدٌ من تلك السيارة، ونحن كنا نتابع هذه المركبة المتوقفة إلى حين، ظنًّا منا أنهم من الشرطة أو زوَّار للخان... ولم تدم طويلًا تساؤلاتنا، حيث تحركتْ المركبة، وغادرتْ في نفس الاتجاه الذي قَدِمَتْ منه... وعدنا للحديث المقطوع عن المرأة المتوفاة.

أردتُ أنْ أسأل الشيخ عن ابنه:

ـ هل رحل ابنكَ عن هنا من زمنٍ بعيد؟

- نعم منذ عدة سنين.

- هل زاركَ بعد رحيله؟

- نعم لقد أتى هنا للاطمئنان على حالي وحال الخان، وكنتُ لا أزال قادرًا على إدارة هذا المكان، وقبل رحيله استدان منِّي بعض المال، وأخبرني بزواجه في المدينة من فتاة، ومن ثمَّ رحل، ولم أرَه بعد ذلك حتى الآن.

- ألم يقلْ لكَ مَنْ هي الفتاة التي تزوجها؟ ومن أين هي؟ (سألتْ رنين باستغراب مصطنع؛ أو ذلك ما خُيِّل لي من نبرة صوتها).

- لا لم يذكر لي أي شيء عنها، ربما كان يخجل من شيءٍ ما، أو إحساس تملكه بالتقصير؛ لعدم إبلاغي مسبقًا بزواجه ودعوتي لحضوره، والحقيقة لقد آلمني الأمر كثيرًا كونه ابني الوحيد، وليس لدي أحد آخر أفرح به وأفتخر لزواجه، على الرغم من ضيق الحال وقصر الإمكانية، ولكنْ كنتُ سوف أعمل ما أستطيع لمساعدته في زفافه وفرحه مع باقي الحاضرين.

صمتَ الشيخ في حزنٍ، وطأطأ رأسه في أسى، وأحسستُ بأنه يبكي في داخله، وأردتُ أنْ أساعده في محاولة إيجاد وسيلة؛ ليتصل بابنه، وسألتُ رنين:

- هل تعرفين ابن الشيخ؟

نظرتْ رنين إليَّ في ذهول، وتغيرتْ ملامح وجهها وتعابيره، وكأنَّ السؤال كان مفاجئًا لها، وسرحتْ للحظات، كنتُ أراقبها عن كثب، وأجابتني بكلماتٍ متعثرة:

ـ نعم كنتُ أمرُّ من هنا في الطريق إلى المدرسة، وأراه أحيانًا جالسًا في الرواق مع الشيخ، أو مع الزوار، ولم أرَه بعد رحيله من هنا لهذا الحين.

استدركتُ بقولي لها:

ـ كنتُ أقصد إنْ كنتِ تعرفين وسيلة للاتصال به، أو مكان تواجده في المدينة إنْ كان لا يزال يعيش هناك؛ لكي يطمئن الوالد على ابنه.

أجابتني بعجلة وبدون تردد:

ـ لا، لا أعلم أي شيء عنه، وأين يوجد هو الآن؟

لاحظتُ كذلك في نظراتها بعض الحزن، ونوع من الشوق، وفهمتُ بداخلي أنها كانتْ تكنُّ له مشاعرٍ، جعلتها تنظر إلى تلك المرأة وابنتها بنظرة خاصة، أبقتْ ملامح وجههما في ذهن رنين رغم كل هذه المدة من الزمان الذي مضى.

بقينا جميعنا جالسين في صمتٍ أطبق علينا، وكان الطفل لا يزال يلاعب دميته بيديه، ويصدر بعض الأصوات غير المفهومة. وكنتُ أنا أفكّر بحالي، وأحسب الساعات الضائعة، ومتى أرحل عن هنا؟.



كنا لا نزال في جلستنا في الرواق نتبادل الحديث، وكذلك نحاول الكلام مع الطفل؛ عندما اقتربتْ سيارة أخرى ببطءٍ نحو الخان، وبدأنا ننظر بترقب؛ لنرى مَنْ هو القادم هذه المرة؟ لربما الشرطة لتعلمنا بشيءٍ ما، أو يكون أحد الزوار الطالبين للراحة من عناء الطريق... وفي هذه الأثناء رنَّ هاتف رنين، وأجابته بالقول:

ـ نعم أنا هنا، يُمكنكِ القدوم الآن.

نهضتْ رنين وأقفة، واتجهتْ صوب السيارة المتوقفة، تلوح بيدها، ثم ترجلتْ امرأة وتعانقتا مع بعضهما، وقَدِمَا إلى حيث كنا نجلس، وألقتْ المرأة التحية؛ لتستطرد رنين قائلةً:

ـ إنها الدكتورة ميساء، أتتْ لترى الطفل.

أجاب الشيخ بعد أنْ نهض للتحية:

ـ أهلًا بالدكتورة، نشكركِ على مجيئكِ بهذه السرعة، وعسى أنْ لا يكون مجيئكِ قد أتعبكِ وعطّل أعمالكِ؛ لبُعد المسافة وضيق الوقت.

ـ لا بأس يا شيخ أنا جئتُ لإلحاح رنين الشديد، وأتمنى أنْ أقدر على المساعدة لأجل هذا الطفل المسكين.

واستطردتْ الدكتورة بالقول:

ـ أودُّ الجلوس مع الطفل على انفراد؛ لكي لا يحوِّل انتباهه عني، وأحاول أنْ أفهم منه أي شيء ممكن.

أخرجت ميساء كتابًا كبيرًا وأوراقًا مبعثرة من حقيبتها، وجلستْ بالقرب من الطفل الغارق في اللّعب بالدمُى؛ وكأنه لم يرَ دمية من قبل، أو كأنه يغرق نفسه في اللهو لنسيان ما حدث... وجلسنا بعيدًا عنهما؛ لنمكّن الطبيبة من محاولة فِهم علة هذا الطفل، الذي لا نعلم حتى اسمه... وسألتُ رنين:

ـ هل تسألين الطبيبة عن وسيلة لمعرفة اسم هذا الطفل لكي نعرف كيف نناديه؟

ـ هي الآن مشغولة معه، وسوف أسألها لاحقًا عندما تفرغ من عملها معه.

كنتُ شديد الاهتمام بما تحاول ميساء عمله مع الطفل، وكنتُ أُراقب كل ما يحدث، ونسيتُ همومي وحظي العاثر في خضم هذه الأحداث المتتابعة بوتيرة عالية ومتلاحقة على نقيض حياتي الماضية بطيئة الإيقاع المملة في القرية، ولاحظتُ أنَّ الطبيبة تعطي بعض الصور للطفل، وتريه بعض الإشارات اليدوية، وتسجِّل في دفترها ماهية رد فعله... وبقي الحال كذلك إلى حين، ونحن جالسون عن بُعد في ترقب وصمت...

وفجأة تكلّم الشيخ، وقال لي:

ـ هل تقدر يا صالح أنْ تجلب بعض الحاجيات من المحال القريبة في الحي؟

ـ نعم يا شيخ.

أجبته على الحال، ونهض الشيخ وأعطاني بعض النقود، ودلني على طريق المحال، وماذا يجب أنْ أجلب معي من هناك.

ذهبتُ على الحال إلى تلك المحال التي وصفها لي، ولم تكن بالبعيدة عن الخان، وسرتُ على توصيف الشيخ لموقعها... وفي طريق العودة كنتُ أفكّر في نفسي وأني سوف أبقى هنا لبعض الوقت، ولا يمكن أنْ أقضي كل وقتي جالسًا وأعتاش من جيب الشيخ؛ الذي هو نفسه لا يجد الكثير مما يأكله، وفي نفس الوقت أنا لا أملك كثيرًا من النقود لأستهلكها هنا في هذا المكان، وقد تعطّل مشروعي مؤقتًا في الذهاب إلى المدينة.. إنه موقف صعب بلا شك، ويجب أنْ يُحل بشكلٍ أفضل لي.

أعطيتُ الحاجيات إلى الشيخ، وكانتْ الطبيبة لا تزال جالسة مع الطفل، ورنين تراقبهم عن بعد، وبادرتُ بسؤال الشيخ عن زوار الخان:

ـ لم ألحظ أيًا من الزوار توقف في الخان هذا اليوم، هل هذا الحال هو السائد هنا أم أنَّ هناك مَنْ يَقدِّم إلى هنا أحيانًا؟

ـ يأتي بعض الناس إلى هنا بشكلٍ متقطع وغير منتظم؛ لأنه لا يوجد شيء كثير لأقدِّمه لهم منذ زمنٍ، وأنا غير قادر على ذلك الآن.

ـ يمكنني أنْ أساعد ما دمتُ أنا هنا باقي ولو لفترة وجيزة.

ـ لا بأس، إنْ كان هناك من قادمين. (قالها الشيخ، وسألني إنْ كان يمكنني الطهو).

ـ يمكنني أنْ أطهو بعض الطعام.

ـ حسنًا، يمكن أنْ نضع هذه الحاجيات هناك في المطبخ، وسوف أُريكَ المكان هنا حتى تتعرف عليه بشكلٍ أفضل.

أخذ الشيخ يريني الغرف في الخان، ودخلنا إلى المطبخ حيث يبدو على ما يرام، وإنْ لم يكن مستخدمًا منذ زمنٍ بعيد، ووضعنا الحاجيات التي جلبتها؛ وإنْ كانتْ قليلة في الأدراج الفارغة، وأراني محتويات المطبخ الأخرى من معداتٍ بسيطة...

بدأتُ بتهيئة المكان بحسب تعليمات الشيخ، حيث أشار لي بالقيام أولًا بتنظيف مرافق المطبخ ومكان جلوس الرواد في الصالة والطاولات وحتى النوافذ...

وهكذا بدأ أول عمل في الخان.

وفي هذه الأثناء جاءتْ رنين، وقالتْ:

ـ إنَّ الطبيبة تود أنْ تغادر.

فذهبنا إلى الرواق؛ لنسمع ما توصلتْ إليه من أي معلومات عن الطفل، الذي كان لا يزال جالسًا يلاعب الدمية بتركيزٍ بالغ، ولاهٍ عن الجميع غير مبالي بمَنْ يحيطه.

ـ يبدو أنَّ الطفل لم يذهب نهائيًا إلى أي مدرسة أو أي مكان للتعليم، وهو لا يعلم لغة الإشارات؛ التي هي جزء أساسي من التعليم في المدرسة لأطفالٍ مثل حاله، وأنا أعتقد أنه مصاب بصدمة نفسية شديدة، يمكن من جراء ما حدث له في هذا الصباح، وكان لا يبالي الكثير بما كنتُ أحاوله معه، ولم أُوفق في جلب اهتمامه إليّ، ولكنَّ هناك طرق أخرى لاستثارة انتباهه، وهي إعطاؤه صور تمثّل رموزًا، وصور لأشياء حياتية نقوم بها يوميًا، وقد تساعد مؤقتًا في التخاطب إلى حين ذهابه للمدرسة، ويبدأ تعليمه هناك.

ـ ألم تقدري أنْ تعلمي أي شيء منه؟ (سألت رنين بخيبة ظاهرة)

ـ كما تشاهدين فإنَّ الطفل معوق وأبكم، ويعاني من تراجع فكري، وقلة استيعاب لمجريات الحياة وما يدور حوله، وهذه كلها أعراض مرض يدعى "التوحُّد" ويحتاج المصابين به إلى الكثير من الرعاية والاهتمام لكي يلحقوا بأقرانهم الذين هم في المدارس ومتواصلون في التعليم، ويجب أنْ يتعلموا كيفية التعبير عن حاجاتهم اليومية بشكلٍ مبسط، مثل: استخدام الإشارات اليدوية، وبرنامج الصور، وهذا لن يتمَّ بليلةٍ وضحاها، وإنما يحتاج إلى وقتٍ طويل، وشرحٍ مسهب ومتكرر باستمرار، وكما فهمتُ منكِ بأنَّ الشرطة تبحث عن ذويه، ويمكن أنْ نسألهم لِمِ لَمْ يهتموا به ويدخلوه المدرسة من قبل، ويجب كذلك الاتصال بالباحث الاجتماعي الذي مهمته رعاية الطفل وتحديد حاجاته التعليمية والحياتية، وكيف يمكن لأهله رعايته بشكلٍ إيجابي... سوف أترك هذا الكتيب معكِ لتحاولي معه أنْ تريه هذه الصور، وكل صورة تدل على حاجة ما يمكن تلبيتها، مثل: صورة للشرب، وأخرى للأكل، وأخرى للعب.. وهكذا، عندما يرى الصورة سوف يتعلم ماذا تعني؛ مع الوقت وتكرار الاستخدام المركز معه.

أعطت الكتيب إلى رنين، وبدأتْ توضح لها ماهية هذه الصور، وكيف يمكن استخدامها، وأثارتْ هذه الطريقة من المخاطبة اهتمامي الشديد؛ لكونها عملية بسيطة تبدو للوهلة الأولى، وحاوية على كثير من الصور ذات دلالات حياتية، والمهم أنْ يدرك الطفل دلالة الصورة؛ كي يصبح التخاطب معه أكثر سهولة، والأهم أنْ يُقبل عليها كأنها لعبة تسلية أكثر من أنْ تكون درسًا أو واجبًا؛ لتماشي قدراته العقلية.

رحلتْ الطبيبة على أمل العودة قريبًا إنْ أتيح لها ذلك للجلوس معه، وقالتْ قبل أنْ ترحل:
- يجب أنْ يكتسب الطفل ثقةً بأحد منا؛ لكي يتقبل الجلوس معه واستخدام الصور والتمرن عليها.
بعدها استقلتْ سيارتها، وغادرتْ المكان.

عدتُ للعمل في أروقة الخان؛ لتنظيفه وتهيئته في حال ورود أي من المسافرين، ولكنَّ عقلي كان مشغولًا بكيفية تعليم الطفل طريقة التخاطب؛ لأنها سوف تكون مفتاحًا للكثير من الألغاز، ولفائدة الطفل في المستقبل، وربما لرحيلي السريع.

كان اليوم يمر ببطءٍ، وأنا مشغول بالعمل في الخان مع الشيخ، ورنين جالسة مع الطفل تراعيه، عندما حلَّ منتصف النهار، وقَدِمَتْ بعض السيارات، وترجَّل منه بعض الأفراد قَدِموا للراحة والتغسيل، وسألوا الشيخ إنْ كان لديه طعامٌ معدٌّ، فأجابهم بالإيجاب.

وهكذا ابتدأ عملي في الخان، وبدأتُ أعدُّ الطعام المطلوب بإشراف الشيخ، وتقديمه للزبائن الذين أعجبتهم الوجبة؛ أو على الأقل هذا الإطراء سمعته، وكان شيئًا مشجِّعًا؛ لأنه يمثِّل أول عمل مدفوع الأجر أمارسه بعيدًا عن أهلي ومعتمدًا على نفسي؛ رغم الظروف الغريبة التي جلبتني إلى هنا، ولكنها لا بأس بها من بداية، والأحلى أنهم أعطوني بقشيشًا، وكانوا كرماء معي، وأذكر قول أحد الزوار:
- لم نكن نعلم أنكم هنا تقدمون وجبات للطعام في الخان، لقد توقفنا فقط لقضاء الحاجة والاغتسال، وكنتُ أنوي الذهاب إلى مكانٍ آخر لتناول وجبتي، فأنا من مستخدمي هذا الطريق بشكلٍ متواصل،

وسوف آتي إلى هنا كلما مررتُ على الطريق السريع لتناول الطعام؛ لأنه كان جيدًا أفضل من باقي الأماكن التي أمرُّ عليها، وبالتأكيد سوف أبلِّغ رفاقي عن الخان.

- إنها بداية جيدة يا صالح.

قال الشيخ، واستطرد ضاحكًا:

- ربما قدومكَ قد جلب الحظ، ولا يمكن أنْ تدري ماذا يخبئ القدر؟

ونحن على هذه الوتيرة من العمل البطيء، قَدِمَتْ سيارة الشرطة، وترجَّل ضابط الشرطة الذي قَدِمَ إلى الخان، وبدأ بالسلام، ثم أردفَ بالقول:

- جئتُ أولًا لأطمئن على الحال، وكيف حال الطفل؟

أجابته رنين:

- إنه بخير، وهو كما ترى جالس هنا لا يتحرك سوى القليل، ومعظم الوقت يلعب مع الدمية، وقد جاءتْ صديقتي الطبيبة النفسية؛ لمعاينته وتقديم النصيحة لنا في كيفية التعامل معه... هل عرفتَ أي شيء عن ذويه؟.

- لا لم نحصل على أي معلومات، فالمرأة المتوفاة لا تحمل أي شيء يدل على هويتها، ولقد فتشناها ولم نجد أي دليل، كذلك فتشنا المكان الذي ربما توفيتْ فيه عسى أنْ تكون هناك حقيبة أو حاجة تعود لها من الممكن أنْ تدل على هويتها، ولم نوفق في ذلك، ولا تزال المرأة في الطب العدلي بانتظار نتائج الفحص من المختبر للتأكد من سبب الوفاة، وكذلك جئتُ لأتأكد من بقاء صالح هنا وعدم رحيله إلى أي مكان إلى أنْ نتأكد من سبب وفاة المرأة.

أجبتُ بعصبية ظاهرة:

ـ وهل أنا المشبوه هنا؟

قلتها، وكان كلام الضابط قد عكَّر مزاجي، وأزال الفرح المؤقت الذي أحسستُ به في عملي.

ـ لا، أنتَ لستَ مشبوهًا بأي شيء حاليًا، ولكنْ كما أوضحتُ لكَ مسبقًا بأنكَ لستَ من هذه الديار، وبالتالي بقاؤكَ هنا أسهل لي للوصول إليكَ عند الحاجة... لا تهتم فربما لن تقضي سوى وقتٍ قصير، ويمكنكَ متابعة طريقكَ بعدئذٍ إنْ شئتَ.

واستطرد يقول:

ـ جئتُ كذلك لأسأل إنْ شاهدتم أو لاحظتم، عندما وجدتم جثة المرأة عن أي حقيبة تعود لها، أو أي حاجة قد تكون لها بجانبها، أو حول المكان؟

أجبنا بالنفي لعدم عثورنا على أي متعلقات تعود للمرأة، أو أي حقيبة.

ثم سأل الضابط إنْ كان الطفل يحمل أي حقيبة، أو في يده أي حاجة عند مجيئه للخان، أو كنا قد فتشنا جيوب الطفل بحثًا عن أي شيء يدل على هويته، نظرًا لكون الطفل معوق، وقد يكون في ثناياه ما يدل عليه... وكان النفي كذلك هو ردنا عليه.

عندها توجه الضابط إلى الطفل، وطلب من رنين أنْ تستنهضه لكي يتمَّ تفتيشه.. وأخذ يُفرغ جيوب الطفل، إلى أنْ عثر على بضع قصاصات من أوراقٍ صغيرة ملفوفة بعناية في أحد جيوبه، وأخذ

الضابط يفك ثنايا الأوراق ببطءٍ، ثم نظر فيها لبرهة من الزمن، واستطرد:

ـ يجب أنْ أرحل الآن؛ لتسليم هذه الأوراق الصغيرة إلى المفتش لاستكمال التحقيق.

وسألته إنْ كان اسم الطفل مكتوبًا على الأوراق، فأجابني الضابط:

ـ أظن ذلك.

وعاد يستطلع الأوراق الصغيرة، وأردفَ قائلًا:

ـ أظن أنَّ اسمه، هو سلمان، كما هو مكتوب على هذه القصاصة من الورق.

سأل الشيخ عن ذويه وسكناه، فلم يُجبه الضابط، وقال:

ـ إنَّ الأمر الآن بيد المفتش؛ لكي يتأكد أولًا من هوية الطفل وذويه، وبعدها قد يمكن إطلاع الجميع إنْ سمح المفتش بذلك، وأعود أكرر يا شيخ: إنَّ الطفل وديعة، ونحن نعلم أنكَ إنسان طيب لا تشوبكَ أيَّة شائبة، وإنه هنا مؤقتًا لحين التحري عن ذويه، والاتصال بهم إنْ كان له من أهل، وأرجو العناية به لحين عودتي لاحقًا إليكم.

ومن ثمَّ استدار نحو رنين، وقال لها:

ـ كم أمضيتِ من الوقت هنا في الخان؟

أجابته مباشرة وبسرعة:

ـ جئتُ قبل الظهيرة؛ لأني كما أوضحتُ لكَ سابقًا قد اتصلتُ بطبيبة نفسية، وقَدِمَتْ بنفسها لترى الطفل، وأعطتنا هذا الكتيب المنهجي؛ لكي نحاول أنْ نتخاطب معه؛ لأنه كما ترى أبكم.

ـ حسنًا، ولكنْ يجب أنْ تعودي إلى داركِ قبل المساء، هل هذا واضح لكِ؟
ـ نعم، سوف أعود للدار بعد الاطمئنان على الطفل.
ثم أدار ضابط الشرطة ظهره لنا، ورحل مع صاحبه.
بادرتُ بالقول:
ـ هذا تطوُّر لا بأس به، فنحن نعلم على الأقل اسم الطفل الآن، وربما قريبًا جدًا نعلم مَنْ هم ذويه؟ وقد تُحل المشكلة بأسرع مما كنا نتوقع.

فيما كنتُ أتكلَّم عن الطفل، لاحظتُ بوادر قلق وارتباك تعمُّ رنين، التي عادت وجلستْ بجانب سلمان، وأخذتْ تحاول تشجيعه على مشاهدة الصور ومحاولة فِهمها في الكتيب الذي كانتْ تقلّب أوراقه معه، وإنْ أحسستُ أنَّ تفكيرها مشغول بشيءٍ آخر غير الطفل، وربما لها مشاكل أخرى مع الشرطة لا تريد الإفصاح عنها الآن.

عدتُ لعملي في الخان لقدوم زوار آخرين، وقال لي الشيخ:
ـ يجب أنْ تذهب للمحال مرة أخرى لجلب حاجيات أكثر نحن في حاجة لها؛ لأنَّ المواد التي جلبتها من قبل بدأتْ بالنفاذ، ولم أحسب حساب قدوم الكثير من الزوار لهذا اليوم.

رددتُ بالإيجاب عليه، وذهبتُ مرة أخرى للمحال القريبة، ولكنَّ ذهني لم تفارقه الأحداث المتتابعة التي جرتْ لحد الآن: من قدوم ضابط الشرطة، والتعرف على اسم الطفل، إلى التساؤل عن ماهية مشكلة رنين مع الشرطة، ولماذا لا يمكنها مغادرة سكناها إلَّا بموافقة منهم؟... أسئلة تحتاج إلى أجوبة قد تأتي مع الزمان.

عدتُ إلى الخان مع الحاجيات المطلوبة، وأدرجتُها في أدراج المطبخ كذلك، ثم ذهبتُ إلى الصالة لأخدم الزبائن إنْ احتاجوا أي شيء، وناداني الشيخ عندما رآني في الصالة، وطلب تحضير بعض الطعام للزوار الجالسين.

انهمكتُ في إعداد ما طلب منِّي، وفكرتُ في نفسي إنَّ هذا لم يكن أبدًا طموحي، ولم يخطر على بالي أبدًا أنْ أعمل هنا كنادل، وكطاهي، ومنظف أيضًا فوق ذلك، ولكنْ لا بأس بها من بداية ما دام أنه عمل، ويجلب لي بعض المال الذي أنا في أشد الحاجة إليه، ويلهيني في هذا الوقت الذي يجب أنْ أقضيه في هذا المكان، الذي يبدو لي كأنه ملعون، وكذلك أنا أساعد الشيخ المسكين في عمله؛ ولو بشكلٍ مؤقت، إلى أنْ تُحل قضية المرأة المتوفاة، ويُعاد الطفل المعوق إلى أهله قريبًا.

بينما كنتُ مشغولًا بالعمل والتفكير، نأدت رنين، وقالتْ إنها يجب أنْ ترحل إلى دارها؛ لأنها لا يمكنها المكوث أكثر من ذلك هنا في الخان، ويجب أنْ يجلس أحدٌ مع الطفل.

قلتُ للشيخ:

- أجلس أنتَ مع سلمان، وأنا أقوم بخدمة الزبائن وهم ليسوا بالكثر، وسوف أكون بقربك إنْ احتجتَ أي شيء أو مساعدة مع الطفل.

وافق الشيخ على ذلك، وذهب ليجلس مع الطفل، وأعطته رنين الكتيب المصور، وشرحتْ له كيفية التعامل مع الصور الكثيرة متعددة المعاني فيه، ومحاولة التخاطب مع سلمان بها... ثم رحلتْ باتجاه دار سكناها في الحي القريب جدًا من الخان.

كان الهدوء يعمُّ المكان في المساء، ولا نسمع سوى أزيز بعض السيارات المارة على الطريق السريع من بعيد، وكذلك نسمع دندنة سلمان الذي يصدر أصواتًا وهو يلعب مع الدمية، ويتطلع من حينٍ إلى آخر حوله، وينظر للشيخ الجالس بجانبه.

كان سلمان طفلًا هادئًا جدًا، ومسالمًا، ومنعزلًا كثيرًا، ولم يتحرك بعيدًا عن البقعة التي كان يجلس عليها، على الرغم من كونه طفل، والمفترض أنه يعجّ بالنشاط والحيوية، والتحرك في كل مكان، واستكشاف ما حوله، وامتلاك الفضول الطبيعي في أي طفل في سبر كل أركان وخبايا أي مكان.. ولكنَّ سلمان كان يقضي الوقت جالسًا ومتربعًا، ولم يبدي أي اهتمام بما حوله، واكتفى بهذه البقعة ليستقر بها... وتساءلتُ: إنْ كانتْ هذه طبيعته أي أنه غير محبٍ للتجوال، أو بسبب علته وإعاقته، أم أنه كان يتصرف بما فرض عليه سابقًا من قِبل أهله، أي أنه كان يقضي وقته في داره بلا حِراك، وقد يبرِّر ذلك عدم ذهابه للمدرسة، وعدم رغبته في تحري المكان ولامبالاته بما يجري، والذي قد يكون بسبب عدم إلمامه بما يجري من أحداث، وكون المكان هو غير بيئته العائلية، والناس الذين يراهم هم وجوه جديدة لم يرَهم من قبل... أسئلة محيرة لم تُجبها الطبيبة، ولا الشرطة ولا بد من الانتظار لمعرفة ما عصي للان عليَّ فهمه، ربما نحصل على ردود عند قدوم الشرطة مرة أخرى إلى هنا.

ظل قدوم الزوار على المكان بتناوبٍ متباعد وبأعداد قليلة، ويقل أكثر كلما اقترب المساء... وجلسنا نحن الثلاثة نأكل وجبة من

الطعام أعددتها بعدما فرغ المكان من الزوار، وبدأ سلمان يلتهم الأكل لإحساسه بالجوع بعد أنْ قضى اليوم مكتفيًا بوجبة الصباح، وبعض الطعام الذي جلبته رنين إليه عند الظهيرة، وبادر الشيخ بالكلام:

ـ كان يؤشّر لي على هذه الصورة.

وأراني إياها، وكانتْ عبارة عن صورة ترمز للأكل...

ضحكتُ وقلتُ له:

ـ لا بد أنه جائع جدًا، وهذا جيد، إذ أنه يمكن أنْ يخبرنا بما يريد أو ما يشعر به؛ من خلال استخدامه هذه الصور.

ـ إنها طريقة ليستْ بصعبة الاستخدام على الإطلاق. (قال الشيخ).

أخذتُ الكتيب من الشيخ للإطلاع على محتوياته، وكيف يتم استخدامه، وفيه صور رمزية صغيرة، وكل صورة تدل بوضوح على طعام، مثل: تفاحة، وصور أخرى على عواطف، مثل: فرح أو حزن، والأخرى على عربة أو حيوان، وغيرها كثير من الرموز المتعددة... قلتُ:

ـ إنها طريقة بسيطة، وقد تكون فعَّالة حتى مع الناس العاديين إنْ كانوا مرضى أو مصابين وغير قادرين على الكلام لأي سبب كان، وعلى سلمان أنْ يتعلم كيفية ربطه ما بين ما يحتاج وما يريد أو يشعر، وما بين هذه الصور؛ لكي تسهل أمور حياته اليومية.

ـ هذا واجب أهله، الذين يبدون مقصرين بحقِّ سلمان، ولكنْ يجب أنْ ننتظر قبل أنْ نحكم عليهم لربما لهم ظروفهم الخاصة.

ثم استدرك الشيخ:

ـ سوف أعطيكَ أجرتكَ عن عملكَ اليوم في الخان، وكان يومًا جيدًا لا بأس به من العمل، وهناك غرفة خالية صغيرة سوف نعدها لمنام سلمان بها، ولا أظن أنَّ أحدًا من الشرطة سوف يأتي هذه اللَّيلة إلى حين أنْ يبتوا بأمر ذوي سلمان.

ـ لا بأس يا شيخ، هناك العديد من الغُرف الخالية في الخان.

ـ نعم سابقًا كان الزوار يملأن غُرف الخان، ويقضون اللَّيالي هنا قبل أنْ يكملوا رحلتهم، ولم أعد بقادرٍ لوحدي على هذا العمل الآن.

ـ كيف كنتَ قادرًا على إدارة الخان بعد رحيل ابنكَ عنه؟

ـ كان يعمل لدي اثنان من العمال، وكانا يساعدانني في الخان، ولكنْ بعد ضعف الواردات لقلة الزوار، لم أقدر على صرف مرتبيهما، ورحلا هما كذلك، وبقيتُ هكذا لوحدي.

ـ كنتُ أفكّر في أنَّ الخان يمكن أنْ يعمل جيدًا إذا كانتْ المساعدة لك متوفرة.

ـ ربما، ولكنْ ليس هناك مَنْ يود العمل هنا.

ثم نهض الشيخ، وقال:

ـ لنذهب ونعدُّ الغرفة لمنام سلمان، أظن أنَّ التعب قد ناله ويود الاستلقاء بعد عناءِ هذا اليوم الطويل، وغدًا لناظره قريب.

أنهضتُ سلمان من مكانه، وأخذناه معنا إلى داخل الخان، وتوجهنا مع الشيخ إلى صالة الجلوس، ومنها توجهنا إلى غرف الخان الخالية، واجتاز الشيخ جزءًا من الممر الموصل إليها؛ ليفتح أحد الأبواب إلى غرفة فيها منام مرتَّب ودرج صغير بجانبه، وفي الجانب الآخر يوجد دولاب صغير للملابس، وهناك نافذة تتوسط

الجدار يغطي جزءًا منها ستائر، ويمكن أنْ نرى من خلال تلك النافذة إنارة الطريق السريع من بعيد، والذي تقطع نوره المتدفق أغصان الأشجار المتمايلة، التي تقع على أطراف الخان مع هبوب الرياح، وتبدو الغرفة للوهلة الأولى نظيفة، وأثاثها بسيط ومتناسب مع كون الغرفة معدة لاستقبال الضيوف... وأشرنا للطفل لمكان السرير، وسألت الشيخ حينها: إنْ كان لديه بعض الملابس المعدة للنوم، حتى يمكّن لسلمان استخدامها وارتداؤها، ولكي نغسل ملابسه الوسخة التي قضى النهار كله مرتديًا إياها. وأجابني بالنفي؛ لعدم امتلاكه ما يلائم الطفل.. ثم قلتُ:

ـ لدي بعض الملابس النظيفة في حقيبتي قد لا تلائم حجمه الصغير، ولكنها نظيفة، وإضافة إلى الملابس التي جلبتها رنين، ويمكنه النوم بها بعد أنْ يغتسل.

ذهبتُ لأجلب الملابس إلى سلمان، الذي كان يغتسل، ثم ارتداها وأوى إلى الفراش، وأبقينا ضوء الغرفة منيرًا؛ لكي لا يفزع الطفل وهو لوحده، ولا نعلم كيف كان يقضي أيامه مع ذويه.

ذهب الشيخ للنوم كذلك، وخرجتُ أنا للجلوس في الرواق الخارجي لوحدي، أفكّر فيما جرى، وماذا يخبئ القدر لي من مفاجآت جديدة، وبدأتُ أتصفح في ذهني أحداث اليوم من أخبارٍ متوالية، يحتاج فيها العقل إلى التوقف لبرهة؛ للاستيعاب، والهضم، وفِهم ما جرى لحد اللحظة.



يقال (إنَّ نعمة السكينة لا تدم طويلًا) وخلوتي في رواق الخان للتفكير في حالي البائس، قطعت إربًا عندما اقتربتْ عربة من الخان، وتوقفتْ في الصحن، وترجل منها بعض الرجال الذين قَدِموا صوبي، وعرفتُ منهم ضابط الشرطة الذي كان من ضمنهم، وهو يسير خلف شخصٍ آخر يبدو أعلى رُتبة منه، ومعهما شرطي آخر يرافقهما، ودنوا بالقرب منِّي، وألقى التحية الشخص في المقدِّمة.

ـ أنتَ صالح.

وأجبته حالًا:

ـ نعم أنا هو، هل هناك شيء يا سيدي؟

ـ لا تخف أنا مفتش الشرطة، أين الشيخ؟ وأين الطفل؟

ـ إنهما في داخل الخان كلًا في منامه بعد هذا اليوم المجهد.

ـ اذهب يا صالح، وأيقظ الشيخ فقط، وأنتَ اذهب وتأكد من حال الطفل ولا توقظه. (وكان يوجه كلامه للشرطي المرافق الذي أتى معي للتأكد من الطفل).

أيقظتُ الشيخ، وأخبرته بأمر المفتش، وقفلنا عائدين إلى حيث واقفين، ولكنهم كانوا قد اتخذوا مجلسهم داخل الصالة، وسلَّم الشيخ عليهم، وجلسنا حول الطاولة.

ـ خير يا سيادة المفتش، هل هناك أمر تود قوله ولا ينتظر للغد؟
ـ نعم بالتأكيد يا شيخ.
وصمتَ المفتش لبرهة، وكأنه يرَّتب أفكاره في ذهنه، ثم أردفَ يقول:
ـ لقد أجرينا تحرياتنا عن هذا الطفل وعن ذويه، وأستطيع أنْ أخبرك أنَّ اسمه سلمان بن سعد الغريب.
ـ هل تقصد أنَّه ابن سعد ولدي؟
ـ نعم يا شيخ، إنه حفيدكَ من ابنكَ الوحيد سعد.
ثم سأله بعد برهة من الزمن:
ـ مَنْ هذه المرأة التي كانتْ مع الطفل؟ ولماذا لم يأتِ ابني معه؟
ـ إنها جدته وكانتْ تبغي جلبه وإحضاره إليكَ قبل أنْ تفارق الحياة.
ـ لماذا لم يحضره ابني؟.. هل هو على ما يرام؟.. هل هو في السجن؟... قلْ لي يا سيادة المفتش؛ أرجوكَ؛ عن حال ابني سعد.
ـ يا شيخ أنا آسف جدًا.
ثم صمتَ قليلًا، وأردفَ ينطق الكلمات بعسرٍ وببطءٍ:
ـ ابنكَ سعد قد توفى.
كانتْ الصدمة شديدة على الشيخ، الذي ظلَّ صامتًا لبرهة من هول الخبر الصاعق، وظلَّ يمعن النظر في المفتش كأنه فقد القدرة على الكلام والرؤيا بعد فاجعة هذا الخبر، ثم وكأنه استيقظ من حلمٍ، وبالأحرى من كابوسٍ ثقيل لا يود المغادرة، وسأل الشيخ المفتش:
ـ ماذا حدث؟ ومتى توفي ابني سعد؟

ـ ابنكَ توفي منذ عدة أسابيع، لقد أقدم على قتل نفسه، أقصد أقدم على الانتحار، بعد أنْ ضاقتْ الدنيا به، وفقد الأمل بكل ما حوله، وترك هذا الطفل الذي هو ابنه الوحيد، والذي رفضتْ أمه أنْ تقبل بحضانته بعد طلاقها منه منذ زمنٍ، وكانتْ له مشاكل مالية كبيرة، ولم يقدر على حلها، وأصبح مفلسًا، ولم يتمكن من رعاية ابنه المعاق، وأغلقتْ جميع الأبواب بوجهه، وتقطعتْ سبله وأقدم على ما أقدم عليه.

كان كلام المفتش أشبه بمطرقة، تنصب هاوية بقوة تزلزل بدن هذا الإنسان الكهل الضعيف، الذي كان بلا حول، يتلقى الضربات تلو الأخرى، ولم تبقَ في البدن من مقاومة لهذا الأمر المريع الذي أصبح واقعًا مؤلم وحزين.

وبعد صمت لبرهة، شدَّ الشيخ من أزر نفسه، وتشجّع وسأل المفتش:

ـ هل أقيمت لابني مراسم العزاء؟

ـ لا علم لي بذلك، ولا أظن أنَّ أحدًا قد أقام سراديق العزاء لابنكَ، وسوف أسأل أحدًا ممن قد عرفه في المدينة وأخبرك لاحقًا.

ـ إنْ علمتَ بشيءٍ.

ـ إنه مدفون في مقبرة المدينة الكبرى، وتمتْ الإجراءات على حساب البلدية، التي دفعتْ مصاريف الدفن؛ لعدم امتلاكه وتركه أي مال، ولم يجدوا أحدًا من معارفه؛ ليتولى أمر هذه الإجراءات، واضطرتْ البلدية للقيام بالمراسم المطلوبة.

بقي الشيخ في ذهولٍ لما يسمعه، وظل الكابوس ينبئ بثقله عليه، وتتجسد الصورة أكثر وأكثف، وتتحوَّل إلى حقيقة وواقعة مؤلمة جدًا، وبدأ يذرف بعض الدموع، وأظن أنها من الأسى والحزن على فقدان ابنه الوحيد، والذي لم يتمكن حتى من وداعه في ظروف قاسية جدًا، ولم يحضر حتى مراسم دفنه، ودُفن بعيدًا غريبًا وحيدًا في مكانٍ كان حلمه، وأضحى سبب مصرعه، وترابه احتضنه... (غريبة هذه الدنيا وما يجري فيها)!.

تساءل الشيخ بعتابٍ:

ـ لماذا لم يبلغني أحدكم عمَّا حصل لابني في ذلك الوقت؟

ـ لم نكن نعلم أنه ابنكَ، ولم يخبرنا أحد ممن يعرفه عن أقارب ابنكَ، وحتى طليقته لم تخبرنا عن أي معارف له وعنك، ويمكن أنه لم يخبر أي أحد عن أصله وعن أهله وأقاربه.

صمتَ الشيخ، وأحسستُ بما يعاني من ألمٍ بداخله، وكان ابنه يخجل من ذكر أبيه الذي يعمل في الخان ويتنكر من ذكر أصله، وعند فشله لم يعد إلى منشأه، بل فضَّل الموت على الفشل، وقد لا يعلم أنَّ الموت هو الفشل في الحياة، وأنَّ الموت قد انتصر.

عاد الشيخ يسأل مرة أخرى:

ـ هل سلمان هو ما تبقى لي من ذكرى ابني؟

ـ نعم يا شيخ إنه ابنه الوحيد من زوجته السابقة.

ـ هل تعلم لماذا رفضتْ والدته رعايته والاهتمام به؟

ـ لا أعلم ذلك، ولكنْ نظن ربما لأنها قد تزوجتْ من شخصٍ آخر بعد طلاقها من ابنك، وظروف سلمان تختلف عن باقي الأطفال

كونه معوقًا، ويتطلب رعاية واهتمامًا ومصاريف، جعلها ترفض رعايته، وأوكلتْ المهمة لوالده المفلس وغير القادر على الاهتمام به، مما صعب الحياة على ابنكَ كثيرًا، أظنه كان يعاني كثيرًا قبل أنْ يتخذ القرار، وينهي حياته بهذا الشكل الحزين... قلْ لي يا شيخ: هل زاركَ ابنكَ قبل أنْ يتوفى؟

ـ لقد زارني قبل بضع سنين، وعندما سألته عن أحواله أجابني بأنه في أحسن حال، ويعمل في التجارة، وقد طلب منِّي بعض المال لاستكمال شراء البضائع، ووعدني بإعادتها مع الفائدة في مستقبل قريب، ولم أرَه منذ ذلك الحين.

ـ نعم، لقد كانتْ تجارته ناجحة، ووفق في جمع بعض المال بحسب تحرياتنا عنه، ولكنْ قبل عدة أشهر لا نعلم ماذا حدث؟ ولا زلنا نتحرى عن سرقة بضاعة عائدة له وكلفته الكثير، واستدان لتأمينها، ولدينا شبهات، ولكنَّ الأمور لا تزال غامضة لنا بعض الشيء، ونحن دؤوبون في البحث عن الجُناة ودوافع السرقة.

وتابع المفتش يقول:

ـ لقد جلبتُ معي الأوراق الشخصية الثبوتية التي تعود لابنكَ وحفيدكَ، ومهمتي الآن أنْ أسألك كونكَ الشخص الوحيد الباقي لهذا الطفل: إنْ كنتَ تقبل استقباله وإبقاءه عندكَ وتولي رعايته، أم إذا كنتَ لا تستطيع ولا تقدر على ذلك، فسوف نأخذه إلى دار الأيتام، وهذه الإجراءات يجب أنْ نتممها، وأنتظر منكَ ردًا؛ لنعرف ما هو قراركَ الآن.

لم يتردد الشيخ للحظة بالجواب على سؤال المفتش:

ـ يا سيادة المفتش قراري هو احتضان حفيدي، وزهرة ابني الوحيد الراحل، وعلى رغم كبر سني فإني سوف أرعاه بكل ما أستطيع، وأستمد منه عزيمة وقوة، ولا أتخلى عن واجب دعيتُ له رغم الظروف.

ـ لا يا شيخ لن ندعكَ لوحدكَ هكذا مع الطفل، سوف نرسل إليكَ مَنْ يعينكَ، ونطلب من الباحث الاجتماعي أنْ يهيئ للطفل مكانًا في المدرسة التي حُرم منها، ونتمنى التوفيق لكَ.

كان الموقف قد آلمني جدًا، وأحسستُ بشجنٍ مروع داخلي لما أصاب الشيخ من توالي المصائب، وتعاطفتُ مع موقفه في احتضان حفيده المعاق، وعدم تفريطه بما بقي له من ذكرى لابنه، وتساءلتُ: كيف سوف يوفق في إدارة الخان ورعاية الحفيد؟ لا بد أنْ تتوفر له المساعدة، وربما سوف توفرها له الشرطة، أو جهة أخرى، لا أعلم.

سأل الشيخ مرة أخرى عن المرأة التي جلبته... وأجابه المفتش:
ـ كما قلتُ لكَ إنها جدته، ولمَّا لم تكن الأم تقبل رعاية الطفل الذي استقبلته عنوة بعد موت أبيه، وكان يقضي الأيام محبوسًا في غرفة صغيرة في دارهم، لا يجرؤ على الحِراك خشية منهم، إلى أنْ قرروا جلبه وتركه لكَ بعد أنْ تأكدوا من أنكَ لا تزال على قيد الحياة، وبحسب أحد الأقارب الذي رافق الجدة وسلمان إلى هنا، فإنه أوصلهما إلى جادة الطريق بالقرب من الناحية، حيث تركهما للسير باتجاه الخان، ووعد أنْ يعود لأخذ الجدة من الخان بعد زمنٍ، تكون فيه قد سلَّمتْ الطفل إليكَ بعد شرح الظروف، وما جرى

للوالد وللطفل من مشاكل، وعدم قدرتها على تبنيه، وترحل بعدئذ راجعة إلى ديارها مع هذا القريب، الذي ذكر أنه أتى إلى هنا وبقي جالسًا في السيارة بانتظارها، وقد شاهد الشيخ جالسًا مع الطفل ومع شخصٍ آخر، وأظنه كان يقصد صالح، ولم يرَ الجدة، وظلَّ منتظرًا لوقت، ولكنْ مع اقتراب سيارة الشرطة قرَّر الرحيل والعودة إلى المدينة، ظنًا منه إما أنَّ الجدة قد عادت للمدينة مع غيره؛ لأنه قد تأخر عليها، أو أنَّ شيئًا ما حصل مع الشيخ تطلَّب استدعاء الشرطة، مما دفعه للهرب، وقفل عائدًا إلى المدينة خوفًا.

ـ أي أنها كانتْ بخير، عندما أوصلها هذا السائق إلى هنا. (سأل الشيخ)

ـ عندما حققنا معه هذا المساء، ذكر أنها كانتْ بصحة جيدة على رغم كبر سنها، وسألنا ابنتها التي ذكرتْ الشيء نفسه من أنَّ والدتها لم تعاني من شيءٍ يذكر قبل رحيلها إلى هنا.

ـ كيف استطاع الطفل أنْ يأتي إلى هنا ليطرق الباب ويبلغ عن جدته؟

لم يُجب المفتش الشيخ على سؤاله، وإنما استدار، ونظر إلى الضابط الجالس بجانبه في شيءٍ من الحيرة، والذي أجاب بدوره:

ـ ربما لم يجد الطفل حوله سوى الخان، وأتى إلى هنا طلبًا للمساعدة.

ثم استطرد، يقول:

ـ أنا أعلم أنه معوق، والفهم عنده ضئيل، ولكنْ قد يكون هذا هو التفسير الوحيد الذي أراه منطقيًا.

واستطرد مفتش الشرطة بالقول:

- هذه الأمور سوف تتضح مع الوقت، ولكنَّ المهم كان لدينا هو مسألة سلمان وحلها كان أولوية لدينا، وأتمنى أنْ تستقر الأمور معكَ، وإنْ كان صالح يرغب في البقاء لفترة لحين استقرار الأمر معكَ.

ووجَّه المفتش الكلام لي:

- يا صالح، لقد تحرينا عنكَ وعن أهلكَ، وأنتم ناس فلاحون ذوو سمعة طيبة وأصل معروف، وتعرفون قيَّم الواجب والالتزام، وإنْ قبلتَ البقاء هنا لفترة وجيزة لتساعد الشيخ وحفيده في هذه الظروف الصعبة، سوف نجازيكَ ببعض المال، وندفع لكَ أجركَ عن أتعابكَ، ونكافئكَ لوقوفكَ بجانب الشيخ، وأنتَ لستَ غريبًا عن تقاليد الشهامة والمروءة، واعلم أنَّ هذا ليس أمرًا، بل طلبًا منِّي إليكَ.

أجبته حالًا، وبلا تردد:

- أنا لم أكن أفكّر أبدًا بترك الشيخ وحده هنا في مثل هذه الظروف، ولم أكن أفكّر أبدًا بأي ثمن جزاء ذلك يا سيادة المفتش، والشيخ أكرمني منذ مجيئي إلى هنا، ولن أتخلى عنه وعن الطفل.

- أشكركَ يا بني - قالها المفتش - أرحتني؛ لأني في الحقيقة كنتُ في قلقٍ شديد من ترك الطفل مع الشيخ لوحده، وكنتُ عازمًا أنْ أودعه دار الأيتام، ولكنْ لشدة تأثري وحزني لما جرى للاثنين وددتُ أنْ يرى الشيخ حفيده عسى في ذلك صالح للجميع.

نهض المفتش ومعه المرافقون، يودون الرحيل، وبادر بالكلام قبل أنْ يغادر:

ـ سوف أبقى على اتصال معكما لمتابعة كل شيءٍ يجري هنا، وإنْ احتجتما أي شيء، أو وصلتكما أي معلومة أو خبر؛ لا تترددا في الاتصال بي.

مدَّ يده، وأعطاني ورقة مكتوبًا بها اسمه وعنوانه ورقم هاتفه.. وقبل أنْ يرحل سأله الشيخ:

ـ أنا أريد زيارة قبر ابني.. هل لكَ أنْ تعطيني العنوان؟.

أخذ المفتش الورقة منِّي، وكتب على ظهرها عنوان المكان، وناولني إياها... ورحل الجميع.

عاد الشيخ ليجلس على الكرسي غارقًا في التفكير مقلّبًا المواجع في داخله، وتساءل في حيرة:

ـ لماذا لم يصلني خبر وفاة ابني قبل هذا اليوم؟ تُرى كم كان يعاني لوحده هناك!.

مسكين، قالها، وسكرات الألم والأسى تخنق الكلام في حنجرته، وأضحت الكلمات تتساقط من فمه مترافقة مع الدموع المنهملة مبعثرة، تنعي الماضي الذي رحل بلا عودة ولا رجعة، خيبة وحسرة تتنازعان مع الألم والحزن على ملئ أركان الفؤاد المهموم المغتم برحيل الوحيد البعيد...

وعلا صوته بالقول:

ـ لماذا ينتصر الموت دائمًا ويحجب عنا الغالي والعزيز؟ يا بني الوحيد لن تراكَ عيناي إلى حين، ولكنها تغتسل بماءٍ حزين ينبع من قلبي الممتلئ بالحزن وأفواجٍ من الشجن.

ـ لا يا شيخ الموت لن ينتصر ما دام سلمان معكَ، اذهب إلى النوم وارتاح الآن.

نهض الشيخ ومضى إلى منامه، وتبعتُه إلى حيث منامي لأرتاح، فلا فائدة بعد من التفكير بما جرى حتى الآن لكثرة الأحداث، وأضحى ذهني مشوشًا وفي حاجة ماسة للراحة.

نهضتُ باكرًا في الصباح، وبدأتُ في عملي بهمّة وبجدية؛ علَّه ينسيني ويقويني في باقي النهار... وقَدِمَ الشيخ ومعه سلمان، وكانتْ عينه تبدو متورمة من شدة السهر والتفكير والحزن...

بادرتُ بالكلام:

ـ لقد أعددتُ الإفطار للجميع.

وأخذتُ سلمان من يده، وبادرته بالكلام، وأنا عالم بعدم الجدوى، لكنْ يجب أنْ يتعود علي، ويكتسب الثقة بي كأخٍ أكبر له وكصديقٍ، وجلسنا حول المائدة، وقلتُ للشيخ:

ـ أنتَ بمثابة جدّ لي يا شيخ، وأرجو ألَّا تفهم كلامي بشكلٍ خاطئ، ولكنَّ الطفل قد عانى كثيرًا في الماضي، ولم يشعر بالحنان من قبل أبدًا، ولم يشعر بالأمن ولا بالاطمئنان، ويجب أنْ نوفر له ذلك لأجل ابنكَ المرحوم سعد.

وتابعتُ بعد برهةٍ من الصمت:

ـ يجب أنْ نشعره بحبِّ الأهل له، وبأنَّ العائلة تحيطه، ونوفِّر له المرح والابتسامة؛ ليصبح أكثر ثقة، ويحس أنه في بيته وبين مَنْ يحبونه.

ـ نعم يا ولدي هذا ما يجب أنْ نعمله ونتصرف وفقه.

بدأنا بتناول الإفطار، والمزاح مع الطفل، وقلتُ للشيخ:

ـ كنتَ مجحفًا بحقِّ الشرطة لحد الآن، لقد عملوا بجهدٍ مع الطفل وتأمين وضعه هنا.

ـ لا بأس، وأتمنى أنْ يكملوا ما بدأوه.

ثم غيَّرتُ مسار الحديث، وسألتُ إنْ كنا نحتاج لشراء بعض المواد الضرورية للخان.

أجابني الشيخ بالإيجاب، ومن ثمَّ عجلتُ بعد تناول الإفطار بالذهاب لجلب ما نحتاج قبل بدء الزوار بالتوافد على الخان، وكنتُ أحس بنوعٍ من المسئولية والالتزام بجانب رغبتي بالعمل تجاه تهيئة المكان لاستقبال الضيوف المارين.

وبينما أنا منهمكٌ بإعداد بعض الحاجات في المطبخ، سمعتُ الشيخ يناديني إلى صالة الطعام، وذهبتُ لأرى الشرطي ومعه امرأة، فألقيتُ التحية، وردَّ ضابط الشرطة:

ـ يا صالح، إنها الباحثة الاجتماعية، لقد تعرفتْ على سلمان، وتودُّ رؤية غرفته للاطمئنان على كل شيءٍ يحيطه هنا.

أخذتها إلى الغرفة المخصصة له وعاينتْها، وسألتني: إنْ كان سلمان يملك أي ثياب وأي حاجات للعب... أجبتها بالنفي.. فقفلتْ عائدة إلى الصالة، حيث وجهتْ حديثها للشيخ:

ـ يجب شراء بعض الملابس للطفل، وكذلك بعض اللُّعب، ويجب تهيئة الغرفة لتكون غرفته، أعني أن تحتوي على بعض الأثاث يصلح للجلوس، ولاحتواء مواد الدراسة.

واستطردتْ:

ـ سوف آخذ مقاييسه لأجل شراء الملابس له؛ لعلمي بعدم قدرتكما على ذلك، وكذلك سوف أبتاع له بعض الألعاب، وسأتصل بمدرسة تكون على استعداد لاستقبال سلمان لغرض الدراسة والتعلُّم فيها، أرجو ألّا أكون لحوحة، ولكنَّ هذا واجبي والدولة تدفع لي لكي أتأكد من كون سلمان في حالٍ جيد، ويتابع الذهاب إلى المدرسة لذلك سوف أُقدم إلى هنا مرات متكررة وعديدة للاطمئنان عليه، وأنا أعلم أنَّ الظروف صعبة للجميع هنا ولذلك سوف نلبي أي شيء تحتاجه لتسهيل رعاية سلمان والاعتناء به.

سأل الشيخ الباحثة الاجتماعية:

ـ كيف لم يذهب الطفل من قبل إلى المدرسة؟ وكيف لم تعرفوا بحاله الصعب والإهمال الذي عانى منه كل هذه السنين؟

ـ لقد غُيب وأُخفي عن نظر الجميع، وأقصد بحسب المعلومات التي حصلنا عليها من الشرطة، إنه كان شبه مسجون لا يبرح الغرفة التي خُصصتْ له، وهو لم يختلط مع أي أحد؛ حتى الأطفال من أقرانه، وبالتالي غاب عن أعين الجميع، ولم يشك أحد بوجود طفل ما مسجون في بيت، ويبدو أنَّ بعض الناس يخجلون من كون أحد أبنائهم معوَّقًا، وليس مكتملًا وطبيعيًا كباقي الأولاد، وبالتالي يحاولون إخفاء الأمر بأي شكل؛ كي لا تتأثر صورتهم الاجتماعية داخل هذا المجتمع، ولم نكن لنعلم به لولا أنْ انفرط عقد العائلة وافترقوا، وبدأ الجميع بالتهرُّب من المسئولية، ومحاولة دفع مشكلة سلمان نحو الآخر، وبالطبع عندما لم نعلم بوجوده أصلًا لم نتحرك،

ولكنَّ الآن سوف نلاحق الأم لتقصيرها بالواجب تجاه ابنها، والمشكلة الأدهى أنَّ سلمان لا يقدر على الكلام، وبالتالي لا يمكن أنْ نعرف منه إنْ كان قد تعرض لأي سوء أو أذى أو ضرب واعتداء، ولكنْ مع التعليم ومحاولة تمرينه على المخاطبة، سوف نصل إلى تفسير لبعض ما حدث له ولوالده المتوفى.
ثم استكملتْ حديثها بالقول: إنها ذاهبة لشراء بعض الحاجيات لسلمان، وستعود لاحقًا إلى الخان.

غادر الاثنان معًا، وعدتُ إلى عملي بسبب قدوم بعض الزوار، بينما جلسا الشيخ والطفل خارجًا في الرواق، وبدأتُ أُدير المكان لوحدي بلا توجيه أو إرشاد من الشيخ، والأمر أصبح أقل عسرًا عن البداية، وهذا ما كان يفرحني لتمكني من إتمام العمل لوحدي، وتعميق الثقة بنفسي على الإنجاز، والمقدرة في أي ظروف صعبة، وفي مكانٍ مجهول بعيدًا عن أهلي وعن معارفي، في عمل شيء لم أعمله من قبل ولم أمارسه، على الرغم من أنه قد يبدو شيئًا يسيرًا لقلة الزوار القادمين الآن إلى الخان، وربما قد يتغير ذلك الحال في المستقبل القريب لصالح الجميع... ولكنْ فجأة التف وتبرم عِقد الأفكار المتلاعبة في ذهني، وشردتْ أفكاري في أمرٍ آخر مرَّ علي ولم يخطر لي أنْ أمعن التفكير به كثيرًا سوى الآن، وهو شدة قسوة الأم التي رفضتْ الاعتناء بطفلها المعوق الوحيد المحتاج لكل اهتمامٍ ورعاية، ونبذته وأودعته إلى حضن جدران الغرف، يتنادى الطفل المروع فيها الحنان من الحجر، ومن برودة الجدران، ولكنْ هل هي المذنبة أم المجتمع الذي نمتْ فيه تلك القسوة والظلم تجاه

كل شيء؟ لا يكون طبيعيًا بمقاييس البشر أنفسهم، ويفشل هذا الشيء في تحقيق أنْ يكون ندًّا لكل ما هو إنساني، ويسقط في أعينهم إلى ما هو من دون البشر.

ونظرتُ إلى حالي، وقلتُ في نفسي: كم أنا محظوظ بحبِّ أهلي لي، والعطف والحنان الذي تلقيتُه من صغري... ولكني حزنتُ كذلك لشعوري وكأني ولد عاق ترك أهله، ورحل في سبيل تحصيل شيء مادي ودنيوي لا يمكن أنْ يحل ولا أنْ يعوض عن أي فراغ عاطفي وأي إحساس عائلي، وتفتقد رابطة الانتماء والارتباط، وتستبدلها بالتملُّك المادي الأجوف، إنها مفارقة غريبة تبعث في النفس مختلف العواطف المتباينة، والتي تنبعث في وقتٍ واحد في داخلي.

وبينما أنا مستغرقٌ في خضم هذا التفكير العميق، وذهني مشغول بشدة بما جرى، وكذلك بعملي الجديد في الخان، ذهبتُ لرؤية الشيخ والطفل اللذين كانا لا يزالان جالسين في الرواق، وكان الشيخ ينظر للبعيد بذهولٍ، وبدأ بالكلام عن ابنه سعد، وكيف يتذكره في صباه، وكم كان يلعب هنا وهناك عندما كان صغيرًا، وكيف نضج وكبر وبدأ بالعمل هنا إلى أنْ أصبح رجلًا يدير المكان، ويهتم بكل شؤون الخان، ثم قرَّر الرحيل هكذا فجأة بلا سابق إنذار، وجرى ما كان ولم يعد ولم يرَه بعدئذ.

طيَّبتُ من خاطره ببعض الكلمات، التي قد لا تشفي الألم ولا تلئم أي جرح، ولكنَّ الكلام ييسر الأحزان أحيانًا، ويدفع الذهن إلى محاولة التناسي، ومحو الصورة الثقيلة الجاثمة على ذاكرة الإنسان ولو قليلًا؛ ليتمكن من التفكير في شؤونه الأخرى.

ونحن في جلستنا الكئيبة هذه، قَدِمَتْ رنين، وألقتْ التحية علينا، وجلستْ بجانب سلمان، وسألت:
ـ كيف الحال؟
ولم يجب أحدٌ عن هذا السؤال الغريب، والذي يبدو في غير محله، ولكنْ لها الحق، فهي قد لا تعلم ما جرى، وكيف أنَّ الأمور تحوَّلتْ وتطوَّرتْ بهذا الشكل المعقد المأساوي في نفس الوقت.. والآن بعد سؤالها، يجب أنْ نعيد شرح كل شيءٍ لها بما تنطويه من إعادة للتذكير بالأحزان والآلام من مساء البارحة حتى اليوم، وفتح مواضع الجراح.
قرَّرتُ أنْ آخذها على جانب، وأتكلَّم معها على حدة، وأشرح لها ما حصل بدون زيادة مواجع الشيخ مرة أخرى، وناديتها، وقلتُ لها:
ـ لنمشي من هنا، وأنا أفسِّر لكِ بعض الأشياء، التي يجب ألَّا تقال أمام سلمان لصغر سنه.

تعجبتْ رنين لكلامي، ونهضتْ وسارتْ معي، وكانتْ تبدو مترقبة لما سوف أقوله لها.. ولمَّا كان سرد الأحداث المتتابعة ليس من نقاط قوتي الأدبية، ولم أكن من قبل حكواتي، ولكني حاولتُ أولًا أنْ أطلعها على أنَّ سلمان هو حفيد الشيخ، وأنَّ والده قد توفي قبل مدة منتحرًا، وأنَّ المرأة المتوفاة هي جدته، كانتْ تروم جلبه لجده ليتولى أمره، وتوفيتْ في الطريق، وأنَّ الجد قد أبلغ الشرطة بنيته إبقاء الطفل معه، وهو ما تبقى له من ذكرى لابنه الوحيد... وذكرتُ كل هذه الحوادث بسرعة، وأنا أودُّ الانتهاء من سردها؛ لكونها عملية مؤلمة، وتكرارها يهيج الأحزان، التي قد خمدتْ بعض

الشيء، وكنتُ أراقب تعابير وجهها خلال مراحل سرد ما لدي من أخبار، والتي كانتْ تتغير وتتبدل لوقع المفاجأة على ما أظن، وبدأتْ بعض الدموع بالانهمار على وجنتيها، وصمتتْ وابتعدتْ هي بعض الشيء عنا أملًا في استيعاب ما جرى... ثم مضتْ رنين إلى الشيخ، وتكلمتْ معه بصوتٍ متأثر حزين:

- أنا آسفة على ما جرى يا شيخ، وأودُّ العون والمساعدة في هذه المحنة الصعبة.

- مشكورة يا ابنتي، لقد قمتِ بالواجب، وأنا الآن كما ترين جلَّ اهتمامي ينصبُّ على هذا الطفل المسكين، الذي تُرك بلا والدين.

- هل وافقوا على بقائه هنا معكَ؟

- نعم، لقد جلبتْ الشرطة بعض الأوراق التي وقَّعتُها، وكذلك حضرتْ الباحثة الاجتماعية التي أخذتْ على عاتقها إدراج سلمان في المدرسة، وتقديم العون له في باقي الأمور الأخرى، ووعدتْ بالقدوم هنا دائمًا للإطلاع على شؤونه وأحواله.

تركتهما يتحدثان، وذهبتُ إلى داخل الخان لأتمَّ عملي الذي بدأته، وترتيب الحاجات داخل المكان، ولكنَّ أحداث الأمس، وما تراءى لسمعي عمَّا حصل لابن الشيخ، وكيف تهاوتْ أحلامه، وضاعتْ كل آماله وأمواله، وصورة نهايته الأليمة قد أدخلتْ الوسواس في ذهني، وبدأتْ الأفكار تراودني، والشكوك تساورني حول المغزى والهدف من ذهابي إلى المدينة... ولأول مرة من زمنٍ بعيد، بدأتُ في التمعن في الغرض والدافع نحو الذهاب إلى هناك، وهل يمكن أنْ تتحقق الأحلام بمجرد الذهاب إلى المدينة، أم أني أعيش وهمًا

كبيرًا صنعته لنفسي؟ وأحلامي هي فقاعة هلامية كبيرة نفختها وملأتها بأوهامٍ مضلّلة، تقودني إلى سُبلٍ مظلمة لا تؤدي سوى إلى الضياع وهزيمة الذات، وسط جلبة الصراع وسعيرالطمع، الذي يغمر البشر هناك بلا نهاية.

استفقتُ من تفكيري على صوت بعض زوار الخان، وهم يدخلون الصالة، وللحال ذهبتُ لأسأل عن حاجتهم، وعن ماذا يمكن أنْ أوفّر لهم من طعامٍ وشراب هذا اليوم.

مرَّتْ فترة الصباح بهدوءٍ مع توارد الزوار بشكلٍ متقطع للخان، وقال لي الشيخ: إنه بدأ يشعر أنَّ هناك بعض الزيادة في عدد القادمين.

رغم الفتور عند الظهيرة لحركة المركبات، إلّا أنَّ بعضهم كان يأتي والخان يعمل بشكلٍ أفضل مما كان، وهذا يسعدني كثيرًا؛ وكأني جلبتُ بريق الحظ لهذا المكان المنسي.

وفي خضم العمل قَدِمَتْ سيارة تابعة للشرطة مرة أخرى، وحبسنا الأنفاس وتوقعنا السيئ؛ لكون أي مجيء كان لنقل الأخبار ومعظمها سيئ، وقلنا عجبًا: ماذا يمكن أنْ يكون أكثر مما كان؟

ترجَّل ضابط الشرطة ورافقه مساعدٌ له، وقَدِمَا إلى الخان، وذهبا مباشرة إلى حيث يجلس الشيخ مع الطفل ورنين، وتحدَّث الضابط إلى الشيخ، قائلاً:

- اعذرني يا شيخ، فنحن أكثرنا المجيء إلى هنا، ولكنْ يجب أنْ نكمل عملنا.

أجابه الشيخ مستسلمًا لما سيقوله من سوء الأخبار:
ـ لا بأس، ولكنْ ما الجديد لتخبرنا به يا سيادة الضابط؟
ـ أخشى أنَّ ما سأقوله مهم وضروري لحضور الجميع لسماعه.
ـ نحن جميعًا هنا كما ترى. (أجاب الشيخ)
ـ أبلغنا مختبر الطب العدلي بعد الفحص الأولي للجثة، من أنه يعتقد أنَّ جدة الطفل قد توفيتْ نتيجة الاختناق من أثر الضغط على رقبتها بشدة، والذي أدَّى إلى وفاتها، وأنَّ هناك آثار لرضوض حول الرقبة، وكذلك على صدر المجني عليها.. وبعبارة أخرى، إنَّ الجدة قد تكون قُتلتْ، وأنَّ الطفل سلمان هو شاهد على هذه الجريمة، ويجب أنْ يتمتع بالحماية من قِبل الشرطة، وبأمر من السيد المفتش العام، ولهذا جئتُ لأخبركم، ولكننا يجب أنْ ننتظر التقرير النهائي لتشريح الجثة؛ لنعرف بالضبط أسباب الوفاة.
ـ كيف سوف يخبر سلمان عمَّا حدث؟ (سأل الشيخ)
ـ لا أعلم هذا، ولكنه يجب أنْ يتمتع بالحماية إلى أنْ نصل إلى الجاني، ويجب ألَّا يقترب منه أحد سوى المخولين من قِبل الشرطة، وقد أبلغني المفتش أنَّ رنين بالذات ممنوعة من التقرُّب إلى الطفل، وكذلك من التقرُّب إلى الخان منذ هذه اللحظة.

استدار ضابط الشرطة نحوها، وأمرها بالمغادرة، والرحيل عن الخان فورًا، وعدم الاقتراب مطلقًا من الخان أو من الطفل... وتمَّ له ذلك، ورحلتْ الفتاة وهي باكية، ومتعجبة لما يقوله ضابط الشرطة، والذي أوصى مساعده بمراقبة المكان من الخارج، ومن كل النواحي.

ـ لكنْ يأتي هنا الكثير من الزوار، ومن كل مكان للراحة والأكل، ولا يمكن منعهم من المجيء إلّا إذا كنتَ تريد غلق الخان بأمركَ هذا. (قال الشيخ للضابط بعصبية وبانزعاجٍ واضح)

ـ لا تخف يا شيخ لن نغلق الخان، وكل ما سوف نفعله هو توفير بعض الحماية للطفل من أي سوء، ولا تهتم فلن يكون وجود الشرطة ملحوظًا، وإنما سوف يرتدون زيًّا مدنيًا، ويجلسون مع الناس بشكلٍ اعتيادي غير مثيرٍ للانتباه، أو لمضايقة أي أحد من رواد الخان، وغرضهم فقط هو المساعدة وليس الأذى إلى أيٍّ كان.

لم يجب الشيخ سوى بهز رأسه متعجبًا، ومستسلمًا لما يحصل له ولحفيده وللخان، ثم سأل الشيخ:

ـ ولماذا يفكّر أحد ما بقتل هذه المرأة المسنة؟.. هل تمتلك ثروة، أم أنه كان حقدًا وانتقامًا؟

أجابه الشرطي بعدم علمه أي شيء عن الضحية، ولكنْ لاحقًا ربما يبلغنا المفتش عن أي شيء يعرفه، ويود أنْ يطلعكما عليه شخصيًا.

ظلتْ علامات التعجب، والاستغراب هي السائدة، وأصبح الترقب هو سيِّد الموقف في الخان، ودخلنا دائرة الضوء والشبهة من جديد، وكانتْ دوامة الأحداث لن تنتهي بسلام، وفقّاقيع المخفي والمستتر تتصاعد وتملأ المكان.

استكمل الشرطي الحديث، وقال موجهًا الكلام لي:

ـ يا صالح سوف تخدم الشرطة عند حاجتهم لأي شيء من الخان، وتعاملهم مثلما تعامل الزوار، وأقصد أنْ يدفعوا لكَ أجر ما يطلبونه منكَ؛ لأنهم سوف يتواجدون هنا بشكلٍ متواصل، ولا يوجد تفضيل في المعاملة.

وكان ردي له بالإيجاب، وكان لي خيار غير ذلك، ولكنْ في قرارة نفسي كنتُ سعيدًا بعض الشيء؛ لأنَّ ذلك يعني على الأقل زيادة الرواد للخان؛ وإنْ كانوا من الشرطة، ولكنهم زبائن في كل حال، ومن جراء تواجدهم يزداد العمل والدخل معًا، وإنْ كان بشكلٍ مؤقت، ولكنه أفضل بأي حال من لا شيء.

ونحن في خضم هذه المعمعة من الأحداث، أطلَّت علينا الباحثة الاجتماعية، والتي قَدِمَتْ ومعها بعض الحاجيات التي ابتاعتها، وأخذتها إلى غرفة سلمان حيث بدأتْ بترتيب حاجياته الجديدة، وكانتْ تشير إليَّ عن كل حاجة، وأين يجب أنْ توضع؟... ومن ثمَّ عدنا إلى الرواق حيث كان الطفل جالسًا، وقالتْ الباحثة:

ـ سوف يذهب سلمان قريبًا جدًا إلى المدرسة، لقد وجدتُ له مكانًا مناسبًا جدًا، وسوف ينتظم يوميًا في الذهاب إلى هناك، ويبدأ تعليمه ودراسته، ويجب أنْ تحرصوا على انتظامه اليومي.

فرحنا كثيرًا لهذا الخبر؛ لأنه يعني أنَّ سلمان سوف يبدأ التعلُّم والدراسة، وكذلك اللَّعب والاستمتاع مع أقرانه، وهذا ما كان يفتقده كثيرًا في السابق، ولم يحظَ به من قبل.

سألتها عن ماهية هذه المدرسة؛ لعلمي بكون سلمان هو طفل معوق لا يقدر أنْ ينتظم في مدرسة اعتيادية، وأجابتني الباحثة:

ـ إنها مدرسة خاصة لتعليم الأطفال المعوقين والمصابين بمرض التوحُّد، وأنَّ سلمان سوف يكون ضمن مجموعة من الأطفال المصابين بنفس الإعاقة في صفه الدراسي.

ارتحنا كثيرًا لهذا الخبر السار، وبالأخص أنا؛ لشعوري بالعاطفة تجاه هذا الطفل، وحسبته كأخٍ صغير لي، وتمنيتُ أنْ يبدأ بالتعلُّم سريعًا؛ كي يتجاوب معنا، ويفهمنا ونفهمه نحن كذلك؛ لأنَّ التخاطب هو ما يجعلنا أكثر إنسانية وأكثر ترابطًا وأكثر تآخيًا الواحد مع الآخر.

مضتْ بعض الأيام، وبدأ سلمان بالذهاب بانتظام إلى المدرسة، وانتظم عملي كذلك في الخان حيث أصبح لي غرفتي الخاصة بي، وجعلتُ لها بعض الأثاث البسيط، وكذلك كانتْ لسلمان غرفته الخاصة به، وبدأ يشعر بالانتماء إلى هذا المكان، ويعرف طريقه إلى الغرف داخل الخان، ويتجول حوله في الرواق والمرآب... وكان الشيخ شديد الفرح بحفيده ويحاول تعلُّم بعض طرق التخاطب مع الطفل، وشجعتنا الباحثة الاجتماعية، والتي دأبتْ على زيارة الخان باستمرار وتناوب منتظم، أنْ نتعلم هذه الطرق لكي نقدر أنْ نجاري ما يتعلمه سلمان في المدرسة، وأعطتنا بعض الكراسات لنقرأها في أوقات الفراغ، وفاجأني دور الباحثة الاجتماعية في مساعدة سلمان لجهلي بوجوده أصلًا، والحقيقة أنها أعانتْ الطفل كثيرًا، وكنتُ أتمنى أنْ تكون قد ساعدته منذ البداية، ولكنها لم تكن تعرف بقضيته من قبل لإهمال أهله وحبسهم إياه، وتقع هذه المسئولية على كل مَنْ كان حوله، وبالأخص والديه، ولكني لستُ بقاضي ولن أنتقد أحدًا، والأهم الآن أنه في حالٍ أفضل عمَّا كان، وكذلك حالي فهو أفضل بكثير بعد أنْ استقررتُ في عملي، وأصبحتُ معتمدًا على نفسي في إدارة الخان، وأستطعتُ أنْ أكوِّن

كثيرًا من الصداقات مع الزوار القادمين مما أسعدني، وجعلني أقبل أكثر على العمل وإجادته، وارتبطتُ أكثر مع الخان الذي أصبح داري، وعملي، وبمثابة عائلتي الثانية مع الشيخ وسلمان... لكني لم أنسَ أبدًا أهلي، وقررتُ الذهاب لزيارتهم والاطمئنان عليهم بعد أنْ استحصلتَ موافقة الشرطة على أنْ أعود بعجلٍ، واتفقتُ مع أحد السواقين أنْ يقلني إلى هناك، ويعود بي إلى الخان، وهذا ما فعلته بعد اطمئناني عليهم وإخبارهم بحسن حالي، وما جرى لي من حوادث أثناء ترحالي، وإقامتي، وعملي في الخان، وعن طيبة الشيخ، وقصة ابنه المتوفى، ومعاناة حفيده المسكين، وكذلك أني سعيد بعملي هناك، وكوَّنتُ بعضًا من الصداقات مع الزوار والقادمين للخان، وكيف أنَّ عددهم بدأ يزداد، وقدومهم يتضاعف؛ لحسن الخدمة هناك، وطيب الطعام... وأخيرًا طلبتُ منهم زيارتي في الخان... وعدتُ بأسرع ما أمكنني إلى مكان عملي مع السائق، بعد أنْ ودَّعتُ والدي الذي أرجو أنْ يكون قد سامحني لرحيلي... ووعدوني بالمجيء إلى الخان إنْ تمكنوا من ذلك في المستقبل.



الفصل السادس

كنتُ أذهب يوميًا إلى المحال المجاورة للخان في الحي؛ للتسوق وجلب الحاجيات.. وفي إحدى المرات شاهدتُ رنين قرب أحد المحال، وتبادلنا التحية، وسألتني عن سلمان، وأجبتها، بأنه بخير، وأنه منتظم في الذهاب إلى المدرسة، ويتلقى التعليم، ويلعب مع الأطفال أقرانه... وسألتني عن الشيخ والخان وعملي هناك، وأخبرتها أنَّ كل شيءٍ على ما يرام... وتأسفتْ رنين لعدم قدرتها على زيارة الخان، والسؤال عن الأحوال، ولكنها مرتاحة لهذه الأخبار الجيدة، التي ذكرتها لها، وقالتْ لي إني يمكن أنْ أزورها في دارها إنْ أردت؛ لكي أوصل لها آخر الأخبار والمستجدات عن الخان... ودلتني على دارها ولم يكن ببعيد، وأكملت حديثها بأنها لا تغادر المنزل إلَّا عند الضرورة، ويمكنني من القدوم متى ما أشاء.

شكرتُها على الدعوة، ووعدتها بالزيارة في أقرب زمان، وعدتُ للخان محملًا بالحاجيات، ولكنَّ السؤال لم يفارق ذهني: لماذا رنين ممنوعة من القدوم إلى الخان؟ ولماذا هي ممنوعة من الطواف والخروج من الدار؟ وقررتُ في سريرة نفسي أنْ أسأل ضابط الشرطة الذي يَقدم إلى الخان بين الحين والآخر عن رنين، وعن سوء معاملتهم لها، ولم تُجب هي نفسها عن السبب عند سؤالها،

ولكنْ قد يجيبني الضابط، وهذا ما أنا عازم على فعله، ولكنْ يجب أنْ أنتظر الزمن المناسب للسؤال، عندما لا يكون مشغولًا أو مع غرباء، ويجب أنْ أتحلى بالشجاعة والأدب في السؤال؛ لعدم علمي بردة فعله على فضولي، وحشر نفسي في موضوعٍ لا يخصني.

وحانت فرصتي حين مرَّ في مساء أحد الأيام؛ ليسأل عن أحوال الخان، وحال الطفل سلمان، وبعد تقديمي له الشاي، سألت الضابط بلطفٍ وكياسة وأدب:

ـ يا سيادة الضابط لدي سؤال يشغلني منذ زمنٍ، ولم أحصل على إجابة عليه لحد هذا الوقت.

نظر إليَّ بتساؤل غريب:

ـ كيف يسعني الإجابة عن سؤالكَ؟

ـ إنَّ الموضوع لا يخصني في الحقيقة، ولكنه عن شخصٍ كان يزورنا ويساعدنا هنا في الخان، وقد مُنعتْ من القدوم بأمر منكم، ولم نعد نراها بعدئذ.

ابتسم الضابط وكأنه انتبه إلى ما أقصده، ولم يُجب أي شيء في انتظار ما سوف أقوله، فأكملتُ كلامي إليه:

ـ أنا أقصد رنين، فهي تبدو فتاة طيبة، قدَّمتْ المساعدة لنا منذ البداية، ولم يبدر منها أي شيء يضر، أو يؤذي الطفل، أو أي شخص آخر، وحتى الشيخ تعجب من موقف الشرطة منها، وعند سؤالها رفضتْ الإفصاح لنا عن أي شيء، ولا أدري إنْ كنتَ أنتَ سوف تحجب شيئًا عن سر منعها من القدوم، أم ستوضح لنا ماذا في الأمر؟.

ـ إنَّ الأمر ليس بسرٍّ كبير أو لغزٍ ما، وهو معروف عند الكثيرين من أهل الحي الذي تقطنه رنين منذ زمنٍ بعيد، ويقولون عنها: أنها تقوم باستحضار الأرواح، وتعمل كوسيط روحي. وجميع أهل المنطقة؛ وحتى بعض الناس في المدينة؛ يعرفون بها ويلتمسون منها خدمات تقدِّمها لهم مقابل أجر مالي، ولا أعلم كيف غاب هذا الأمر عن مسامع الشيخ ومسامعكَ، يبدو أنه لم يعد يسأل، أو يهتم بأي شيء يدور حوله لكبر سنه.. على كل حال لقد أمر القاضي بوضع رنين تحت الحجز المنزلي الاحترازي بعد عدة شكاوي أُقيمتْ ضدها في المحاكم، ولم يعد مسموح لها ممارسة الوساطة الروحانية وغيرها من أعمال الشعوذة في المدينة، ويجب أنْ تبقى في الحي، ولا تغادره أبدًا إلَّا بأمرٍ من القاضي، ولهذا السبب مُنعتْ من القدوم إلى هنا.

ـ لكنها تبدو فتاة مثقفة، ولا تظهر بشكل مشعوذة أو ساحرة.

ـ وهل لهم أشكال مختلفة عنا؟

سأل الضابط بابتسامة وبعض السخرية، ثم استطرد يقول:

ـ إنَّ رنين ـ كما يقول البعض ـ لها قدرات كبيرة، وموهبة عظيمة، وربما قد تكون مبالغة من قِبل السذج من الناس، أو لأغراض مادية لجني أرباح أكثر من أعمالها، ولكنها أثارتْ الكثير من المشاكل، والصراحة أقول لكَ: نحن نخشاها ونتجنبها متى ما كان ذلك ممكنًا.

ـ لكنْ حتى هذه اللحظة بالرغم من كل ما ذكرته لي عنها، وأنا لا أعرف ماذا فعلتْ؟ ولماذا هي معاقبة وممنوع عليها زيارتنا؟، نحن لم نطلب منها أي وساطة روحية، أو غيرها من أعمال الشعوذة.

ـ هذه أوامر السيد المفتش، وأنا كذلك ليس لي علم لماذا مُنعتْ من القدوم إلى هنا؟ أنا حديث العهد بهذا المكان، ونُقلتُ إليه من وقتٍ قريب فقط، وما أسمعه وأقوله لكَ ليس سوى إشاعات من زملائي في الشرطة، لماذا لا تسألها بنفسك؟. (وبدأ يضحك الضابط ساخرًا)

أجبتُه وعلامات الاستفهام لا تزال تسرح في ذهني:

ـ نعم، سوف أفعل ذلك، إنْ كان هذا مسموحٌ لي من قِبل الشرطة في زيارتها.

ـ بالطبع يمكنكَ أنْ تزورها والتكلُّم معها، فهذا ليس ممنوعًا، وهي تستقبل أُناسًا عديدين يمرون عليها في دارها، وما يجري هناك يقع على عاتق الشخص نفسه.

ـ هل تريد تخويفي من الذهاب إلى هناك والتكلُّم معها؟

ـ لا، لكن هل تود أنْ تطلب منها عمل جلسة روحية، أو وصفة سحرية؟

استمر الضابط بلهجته الاستخفافية:

ـ أنتَ يا صالح شخص فلاح؛ وهذه ليستْ إهانة؛ لكنَّ الأمور لديكم في الحياة بسيطة وغير معقدة، ولا يوجد الكثير من الأسرار التي تودون معرفتها بهذه الطرق الملتوية الغريبة.

ـ لقد كان هذا أحد أسباب رحيلي عن دار أهلي وقريتي، وهو أني أريد أنْ أرى الحياة، وأتعرف عليها بوسعها، بعد أنْ عشتُ مغمورًا في مكانٍ منسي ومنعزل... ولكنْ هل لكَ أنْ تقول لي ماذا يطلب الناس منها عمله بالتحديد؟.

ـ قلتُ لكَ لا أعلم بالضبط؛ لأني لم أحضر أيًّا من تلك الجلسات، وقد يكون معرفة أسرار أشخاص توفوا ودفن سرهم معهم، ويودون إعادة نبش الماضي بأي وسيلة، أو قد يطلبون منها قراءة المستقبل لهم؛ وكأن ذلك ممكنًا للبشر العاديين؛ وقد يكون غيرها من الأمور الخاصة الأخرى... وعندما تزورها يمكنكَ سؤالها مباشرةً عن خدماتها المتنوعة للعامة من الناس.

كانتْ هذه هي نهاية محادثتي مع ضابط الشرطة المستجد في المكان، والتي أضافتْ إلى ذهني أسئلة أكثر من أجوبة، وجعلتني في شوق أكثر لمعرفة مَنْ هي رنين؟ وما هي قدراتها المزعومة تلك؟ وماذا يطلب الناس منها عمله لهم؟... سوف أحاول زيارتها متى سمح الوقت لي بذلك، وعندما لا يكون هناك عمل في الخان؛ لأخذ الزمن الكافي للجلوس معها، إنْ هي قبلتْ طبعًا بذلك، ولكنْ قد يكون برفقتها بعض الزوار الآخرين، ولا يكون ذلك مناسبًا لزيارتي لها، ولكني عزمتُ ويجب أنْ أحاول أنْ أرى رنين؛ لأنَّ شيئًا ما يدفعني لذلك.

وعادت إلى ذاكرتي للحال صور وذكريات من قريتي، وبالتحديد صورة مالية العرافة، وهي فتاة طيبة في العشرين من عمرها، تسكن في إحدى القرى القريبة من قريتنا، وكانتْ تدور على القرى المجاورة محملة ببعض السلال من القش، والتي تحتوي على الكثير من الصحون والقدور، وتعرضها للبيع على الأهالي هناك، وكانتْ تأتي إلى قريتنا دوريًا من حينٍ إلى آخر، وتمرُّ على دارنا، وتفترش بضاعتها على الأرض بعد أنْ تنتزع حذاءها، وتتربع على البساط

المفروش؛ على الرغم من وجود الكنبات في صالة الدار؛ وتستفيض بالشرح عن نوعية القدور، وصلابتها، ومقاومتها للصدأ، وجودة ونقاء الصحون المصنوعة من البورسلين الفاخر... وعندما نستفسر عن مصدرها وكيفية حصولها عليها، كانتْ تجيبنا أنها من عمها التاجر في المدينة، والذي كان يمدها بهذه البضاعة؛ لتبيعها وتعين أمها وأخوتها.. وكان بيتنا هو أول مَنْ تمرُّ عليه في القرية؛ لأنَّ والدتي كانتْ لا تخيب آمالها في شراء بعض الحاجيات منها بحجة التهيئة لزواجي المزعوم، ولكنْ في الحقيقة كانتْ مالية مرحب بها دائمًا؛ لأنها كانتْ تنقل أخبار ما يجري في القرى المجاورة، والتي نمتْ ببعضهم بصلات القربى والرحم، وكذلك الأخبار عن الفتيات المعروضين للزواج، ولكنَّ الأهم جدًا هو كان قدرتها المعروفة على قراءة البخت والطالع، والتي كانتْ والدتي تستمتع بشدة بالاستماع إليها مقابل أجر مادي تتقاضاه عن قراءتها تلك.. وطلبتْ منها والدتي يومًا أنْ تقرأ البخت لي، وجلستُ على الأرض مقابلها أتفحصها بنظراتي، وكانتْ ترتدي سراويل داكنة اللون تغطي جسدها بالكامل ـ كعادتها دائمًا ـ ويلف وسطها الممشوق زنار من الجلد الأسود اللون، ويلف رأسها وشاح بألوان زاهية، ويعتمر صدرها بقلادة من الفضة مخرمة، وتحوي عددًا من الحجر الأبيض اللون، ويخرم أنفها قرط ذهبي، وتغطي يدها رسوم موشومة داكنة اللون، ويرصع أناملها عدد من الخواتم، والحلقات من اللُّجين الخالص كسحنة وجهها.. وبدأتْ قراءتها لي بعد أنْ أخرجت من جيبها كيسًا صغيرًا، يحوي بعض الأحجار الملونة، ورمتْ بها على

الأرض، وقالتْ لي: بأني يجب أنْ آخذ هذه الأحجار بكلتا يدي، وأبقى ممسكًا بها لفترة من الزمن... بينما هي تمسك بكلتا يدي بقوة تعتصرها، وتقول بعض التعاويذ غير المفهومة لي.
ثم رفعتْ يدها عني، وقالتْ، قبل أنْ ترمي الحجر:
ـ يجب أنْ تتمنى شيئًا.

وفعلتُ كما أشارتْ لي، ورميتُ الأحجار من يدي، وبقيتْ هي تنظر ممعنة بهذا التشكيل الملون من الأحجار، ثم قالتْ لي:
ـ هل تمنيتَ أي شيء؟
ـ نعم ربما لا أدري.
أجبتُها بابتسامة، وكنتُ أمعن النظر في عينيها الخضراوين، التي كانتْ تشع كأحجار الزمرد، وتزين وجهها الناعم الصافي الرقيق، وأحسَّتْ هي بنظراتي إليها، وكانتْ والدتي جالسة إلى جانبنا، وقالتْ لي:
ـ ليس هذا وقت المزاح يا صالح، استمع إلى ما سوف تقوله مالية لكَ، واصغي جيدًا لها؛ لأنها فتاة فريدة نعمتْ بهذه القدرة، ومن حظكَ أنها هنا لتقرأ ما يخبئه لكَ القدر.
ـ طيب يا أمي، ولكني اودها أنْ تكتب كل شيءٍ على ورقة، ولا أحد يعرف أي شيء سواي عن قراءتها.

كتبتْ مالية ما قرأته من الأحجار على ورقة وطوتها، وأعطتني إياها، وحشرتُ تلك الورقة في غلاف مفكرتي، ولم أفتحها لحد الآن لأقرأ ما كتبته لي مالية من رؤية مستقبلية، ولكنها خطرتْ على بالي عند حديثي مع ضابط الشرطة، وكان ذهني يعمل مقارنةً غير

واقعية بين مالية ورنين، وشتان بين الاثنتين؛ على الرغم من تشابه المهنة من الظاهر، ولكنْ ما تفعله مالية بحسب عُرفنا القروي لا يعدو أكثر من تسلية بريئة للاستمتاع، على عكس رنين التي تتطرف في عملها إلى حدود غريبة، لم أسمع بها من قبل.

ذهبتُ للجلوس مع الشيخ في الرواق وكان معه سلمان، ويبدو أنَّ صداقة حميمة قد تكوَّنتْ بينهما وانسجام كبير، وبدأ الشيخ يتفهم بعض الإشارات الظاهرة من سلمان، وكذلك أنا أستطعتُ أنْ أتعلم بعض الأشياء من لغة الإشارات، على الرغم من انهماكي الشديد في العمل، وتمكنتُ من فهم بعض ما يقصده أحيانًا، وكنا نأخذ الأمور بشكلٍ مرح وبتسلية، وتكون جلساتنا مليئة بالضحك عندما تختلط الأمور علينا، ويبدو سلمان وكأنه طفل حديث الولادة من ناحية الذهن، وببدنٍ لا يتوافق مع مستوى التفكير، ولكنَّ هذه الأمور يمكن التعوُّد عليها، وتصبح أكثر تفهمًا مع الوقت والصبر والتعلُّم، ونحن نتعلَّم معه ومنه يوميًا، ونرافق كل إشارة يتعلمها في المدرسة؛ لتصبح جزءًا من برنامجنا في المخاطبة اليومية، وكأننا نتكلَّم بلغتين في آنٍ واحد، وهذا مما يسعد الجميع، وبالأخص أنا؛ حيث كنتُ أحسُّ بألمٍ كثيرٍ عندما يأتي إلى ذهني كم أمضى سلمان من الزمن معزولًا ومحتجزًا في غرفته فقط لكونه مختلف،وغير مكتمل النمو الفكري والعقلي كنظرائه من باقي الأطفال، والآن أراه يتمتع بالحرية، ويستمتع بمرافقة الكبار والأطفال معًا...
سألتُ الشيخ الجالس بجانب سلمان:
ـ أرجو أنْ لا أكون قد قطعتُ جلستكما.

ـ يمكنكَ المشاركة معنا إنْ وددتَ، سلمان يضع أصابعه على فمه، وحسبته يود أنْ يأكل، وجلبتُ له الطعام، ولكنه أبعده عنه، وظننتُ أنه يطلب شيئًا آخر بهذه الإشارة، وطالعتُ الكتاب، وهذه الإشارة تعني شكرًا أو أرجوكَ، وتهتُ في أي منهما يقصد بإشارته هذه الآن، تبدو الأمور سيان في كتاب الإشارات.

ـ أظنه يقصد اقرأ لي، يمكن أنه يودكَ أنْ تقرأ له هذه القصة المصورة والتي جلبها من المدرسة معه؛ لإكمال قراءتها هنا وسماع صوتكَ تقرأها له.

ـ اها، هذا ما فاتني فهمه.. طيب سوف أقرأ له باقي القصة بحسب ما هو مؤشر عليها.

بدأ الشيخ بالقراءة، وسلمان مشدود لسماع ما يقوله، ولا أدري إنْ كان يفهم ما يقوله الشيخ، أم أنَّ سلمان فقط يود الاستماع لنبرة الصوت! أعتقد أنه يحتاج إلى وقتٍ طويل قبل أن يبدأ بفهم ما يدور حوله، وهذه أول الخطوات التي يحبو بها.

أنهى الشيخ قراءته للقصة، وأعطى الكتيب لسلمان؛ لكي يقلّبه بيديه، وعندها بادرتُ بسؤاله عن رنين:

ـ قلْ لي يا شيخ: ألم تسمع عن أي شيء غريب في الناحية؟ (وكنتُ أُشير إلى الناحية القريبة من الخان).

ـ ماذا تقصد بشيءٍ غريب؟

ـ أقصد عن شخصٍ ذي قدرات أكثر من الطبيعي، ويعيش في الناحية، ويمارس الوساطة الروحية والسحر.

ـ لا لم أسمع بأي من هذه التخريفات.

ـ هذا كان نفس ردي على الشرطي عندما سألته عن رنين.
ـ تقصد أنَّ رنين ذات قدرات خارقة، وتقوم بجلسات روحية؟
سأل الشيخ، وكان غارقًا في الضحك والسخرية من هذا الزعم.
أجبته:
ـ هذا ما قاله الشرطي، عندما سألته لماذا هي محتجزة في الدار وممنوع عليها المجيء إلى هنا؟.
ـ يا بني هذا شيء بعيد عن التصديق، قد يكون الشرطي يمزح معكَ، وأراد التهرب من الجواب الصادق، وهو يعلم أنتَ من قرية بعيدة، وهذه الأمور تجري على بعض عقول الفلاحين الطيبين، وهم يصدقون الكثير من الهراء والسخف الذي يدور هنا وهناك.
ـ إنه لم يكن يمزح، حتى أنه قال لي إنه يخاف منها ويتجنبها، وطلب منِّي أنْ أذهب بنفسي لسؤالها إلَّا إذا كنتُ خائفًا، ولا أقدر على ذلك.
ـ لا زلتُ أظن أنها مزحة يا بني، وأنا هنا منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا، ولم أسمع بهذا الشيء أو شخص له قدرات، ولكني تذكرتُ الآن أنَّ جدتها كانتْ تمارس الشعوذة من قبل في هذه النواحي، وهي ماتت من زمنٍ بعيد، وأظن حتى قبل ولادة رنين، وربما انتقلتْ هذه العدوى الخبيثة إلى حفيدتها، ولا أعلم الكثير عمَّا يدور هناك؛ لقلة اختلاطي مع أهل الناحية، وانشغالي بهموم الخان، وابتعادي عن هموم الناس، ولم يتح لي معرفة ما يجري في الحي من أمورٍ لحد هذا الوقت.

ـ بالضبط هذا ما قاله الشرطي لي من أنكَ لم تعد تهتم بأمور الناس أبدًا، وأنكَ انعزلتَ هنا عن البقية، وقد يكون الشرطي صادقًا فيما يقوله عن رنين، على الرغم من غرابة الموضوع ـ كما يبدو.
ـ لماذا يحتجزونها؟! إنْ كانتْ قد عملتْ شيئًا ضد القانون فهناك السجن، أما أنْ تكون محتجزة في دارها، ويمكن لها التجول بحرية في الناحية، وهي لم تعمل شيئًا غلط سوى المزاعم، والتي قد تكون ملفقة بامتلاكها قدرات خاصة، فهذه تبدو صعبة الفهم لي، وغير منطقية على ال أطلاق.
ـ وماذا تظن يا شيخ عن هذا الأمر كله؟
ـ تذكّر أني سألتها مرة سابقة ولم تجبني، وأنا أعرفها من قبل ولكنها كانتْ معرفة قليلة سطحية، كانتْ تمرُّ على الخان؛ لتشرب من ماء السبيل في طريقها للمدرسة، وكانتْ تسلّم علي كلما تمرُّ وتحادثنا مرة أو أخرى، وأذكر أنها سألتني عن سعد ابني، وأجبتها بأنه رحل، وسألتها عن أهلها وأين يسكنون؟ وهذا جلُّ ما أعرفه عنها، وربما كانتْ صدفة عندما ذهبتُ إلى الناحية لطلب المساعدة؛ كما تذكر حين حادثة وفاة الجدة، وشاهدتها واقفة بالقرب من أحد المحال، وطلبتُ منها المساعدة، وقَدِمَتْ معي... والباقي تعلمه ولا أودُّ أعادته مرة أخرى.
ـ سألت الضابط إنْ كان مسموح لي الذهاب إلى دارها، وقضاء بعض الوقت هناك معها، وأجابني: نعم، إنها غير ممنوعة من تقبل الزيارة، وهناك أناس عدة يزورونها لحد يومنا هذا لطلب أشياء تعملها لهم.

ـ حيرَّتني يا بني، وشوقتني لمعرفة ماذا في الأمر، على الرغم من تشككي في كل هذا الموضوع.

ـ هل تحب أنْ تأتي معي؟

ضحك الشيخ، وقال:

ـ هل تخاف من الذهاب لوحدكَ هناك يا صالح؟

ثم أكمل حديثه بابتسامة، وقال:

ـ لا، أنا لا أقدر أنْ أرافقكَ؛ لأنَّ همومي أكثر من الذهاب للتحري، وكِبر سني يجعل منِّي سخرية للجميع عند سماعهم مجيئي للحي؛ للتساؤل عن مثل هذه الترهات، وبالمناسبة فهي لم تتزوج على ما أظن، وفي نهاية عقدها العشريني، وأعتقد أنَّ الناس قادرة أنْ تؤلف قصص بارعة عن العوانس وبالأخص المثقفات منهم، وأتمنى أنْ لا يكون حال رنين، هي من إحدى بطلات تلك القصص الخرافية.

ـ ليس هناك أمامي سوى سبيلٍ واحد للتأكد من الأمر، وهو الذهاب إليها وسؤالها مباشرةً، والاستعلام منها عن هذه القصص الغريبة، سوف أذهب الآن إليها في دارها.

ـ مهلكَ يا صالح، الوقت متأخر الآن يا بني، ولا يصح الذهاب هناك بهذا الشكل المفاجئ من دون ترتيب، أو موعد معها.

ـ لا أملك وقتًا آخر، وكما ترى؛ فأنا مشغول النهار بأكمله في العمل.

ـ ماذا سوف تقول لها عن سبب مجيئكَ في هذا الوقت المتأخر من المساء؟

ـ سوف أتحجج بأني محتاج إلى مساعدة، ونصيحة منها.

هز الشيخ رأسه، وكأنه غير مقتنع، وأردفَ يقول:
- الأفضل الذهاب في النهار، وأمام الجميع من سكان الحي؛ ليعلموا بذلك وليس متخفيًا في ظلام اللَّيل؛ ليدور الكلام عن أشياء أخرى، ولماذا العجلة هكذا؟ في النهار يمكنني أنْ أحل محلكَ في وقت الظهيرة عندما تقل وتيرة العمل هنا.
- لا بأس.. كما تقول، سوف أزورها ظهر غدٍ إنْ سمح الوقت لي بذلك.

جاء الصباح، ومعه حلَّ النهار البهيج، وأنا أزداد تشوقًا ورغبةً في الذهاب هناك؛ إلى دار رنين والجلوس معها وتبادل شجون الحديث واستجلاء بعض غياهب الأمور، وما وراء الإدراك والفهم لدى الإنسان العادي، وذهني كان مشغولًا تمامًا بسبر غور تلك الأشياء، وكيفية يمكنه من تملُّك، أو كيف الحصول على هذه القدرات الفائقة إنْ كانتْ حقيقية؟ وهل هي هبة من الطبيعة، أم اكتساب يأتي مع التمرين والولع بها، أم أنها طفرة جينية تؤشر على قدرات سابقة كانتْ متوفرة لدى الجنس البشري، وانقطعتْ لسببٍ ما، وبدأتْ العودة بشكلٍ بسيط ومتخفي إلى البشر والذيين حُرموا منها...

وبدأتُ أُدور هذه الأمور في عقلي البسيط، وأقول في نفسي:
- إنْ كانتْ لدي قدرات خارقة خامدة، أو متخفية تنتظر التجلّي والإفصاح، ولكنْ كيف سوف أجدها وأبرزها للعقل والإدراك؟ وماذا سوف أعمل بها؟ وكيف يمكن أنْ أُفيد أو أنْ أستفيد منها؟ وهل أنَّ هذه القدرة، هي فقط للبقاء ضد الفناء ومقاومة الاندثار واستمرار الوجود؟ وإنْ كانتْ هي أصلًا موجودة لدى الإنسان

واضمحلتْ لظروفٍ ما، فإنها يمكن أنْ تعود إنْ عرفنا كيف؟ وطورنا أنفسنا؛ لاكتسابها من جديد، وكأني بدأتُ أحلم بامتلاكِ هذه القدرات الخارقة، مع علمي في داخلي أني فقط أحلم، وأتوهم، وأتمنى لا أكثر من ذلك...

واستكملتُ تفكيري، ومحاورتي النفسية بالقول:

ـ إنْ كان هناك بعض الناس ممن يفتقدون بعض الحواس، وتغيب عنهم القدرات الحسية الواعية، فإنه لابد من أنْ يكون هناك البعض الآخر من الناس، الذي يمتلك قدرات إضافية وأكثر من الطبيعية، وقد تكون خارقة؛ لأنَّ الأساس في الطبيعة، هو التوازن فيها، وهو مما يجعلها تدوم وتستمر، وعندما تتأرجح وتختلف هذه الموازين ندخل في دوامة اللا توازن، وعنف الفوضى، وتتبنؤ بنهايتها وخرابها وزوالها، وإنَّ كل شيءٍ في كوكبنا هذا مبني على التوازن، مثل: اللَّيل والنهار، والخير والشر...

استفقتُ من تفكيري الفلسفي العميق، وأنا لا أزال أمارس عملي برتابة وإيقاع بطيء منتظرًا الفرج، وقلة القادمين للخان؛ لكي أستغل الفرصة المتاحة، وأذهب لرؤية رنين عسى أنْ تعطيني بعض اليقين... وسنحتْ هذه الفرصة المنتظرة منتصف الظهيرة، وسلمتُ العمل للشيخ، وقلتُ له:

ـ إني ذاهبٌ إلى رنين، يمكن أنْ تكون هي في الدار الآن وتستقبلني.

هز الشيخ رأسه بالإيجاب.

حثثتُ الخطى نحو الناحية، والتي لم تكن بعيدة عن الخان، إذ أنَّ الطريق من الخان يخترق بعض الأرض الجرداء المحاطة بالأشجار نحو الجهة الشرقية من المكان، وعبرتُ على قنطرة فوق غدير الماء، يخترق سلسلة الأشجار الباسقة نحو طريق ترابي، يتلوى ما بين أعمدة الشجر مفضيًا إلى بعض البساتين المثمرة، والمحاطة بأسوار خشبية متهالكة أصابها الصدأ من القِدم وعدم الصيانة، ويرافقني بعض الشجر الضئيل المترامي على جوانب الطريق، ولا أسمع سوى صوت الماشية والبعير إلى أنْ وصلتُ إلى حافة نهاية البساتين، وظهرتْ لي بعض الأبنية المتراصة قليلة العلو على جانب الطريق المعبد، وهي المحال التي أشتري منها الحاجيات، وحييتُ الناس هناك؛ لأني أصبحتُ معروفًا لديهم؛ لترددي اليومي عليهم لشراء حاجيات الخان، وأكملتُ مسيري على الطريق المعبد بالأسفلت، والتي تؤطره الأبنية وبعض الدور من نواحيه، وبعد مسير عدة دقائق انحرفتُ عن الطريق العام إلى شارع جانبي مبلط بشكلٍ عشوائي، وغير متسق، ومتهالك نتيجة كثرة الاستخدام وقلة الرعاية، وتحيطه دور مبنية من طابوق وملبخة بأسمنتٍ وبعض الشجيرات، واقتربتُ من أحد هذه الدور، وأظن أنه الدار الذي وصفته رنين لي من قبل، ولا يبدو مختلفًا عن سياق الدور حوله من حيث تصميمه وطريقة بنائه سوى ببعض الألوان الباهتة، التي تزين شُرف الأسطح المستوية.

دنوتُ من البوابة الخارجية، وطرقتُ جرس الباب المنتصب على علوٍ، أنتظر الفرج عسى أنْ لا أكون قد أخطأتُ العنوان...

فتحتْ الباب امرأة مسنة، ولكنها تقف بطولها، سمراء اللون، شاحبة، مرتدية سروال طويل جدًا، ويغطي رأسها وشاح مزدهر الألوان، وسألتني بصوتٍ أجش عمَّا أريد؟.

ألقيتُ التحية بشكلٍ مؤدب، وبلباقة متناهية، وقلتُ:

ـ هل أستطيع التحدُّث إلى رنين؟

ـ ومَنْ أنتَ؟

ـ قولي لها: إني صالح من جهة الخان.

ـ انتظر هنا، وسوف أبلغها ذلك.

ردَّتْ الباب في وجهي، وأنا لا زلتُ في الانتظار في الخارج، وبعد هنيهة فُتِحَ الباب، ورأيتُ رنين التي ألقتْ التحية عليّ:

ـ أهلًا يا صالح.. كيف حالكَ؟ وكيف حال الجميع في الخان؟

ـ نحن بخير، جئتُ للتحدُّث معكِ إنْ كان لديكِ وقت، وأتمنى أنْ يكون مناسبًا الآن.

ـ نعم لا بأس تفضل بالدخول.

ولجتُ البوابة الخارجية إلى داخل الدار، ومررتُ من خلال ردهة صغيرة أتبع رنين إلى بابٍ آخر، يؤدي إلى غرفة تبدو واسعة للوهلة الأولى، يفترش المكان فيها من آرائك وكنبات وثيرة، وبعض الكراسي الخشبية، والتي تحيط مائدة كبيرة يستوي عليها بعض الكتب ومبخرة وحمالات الشموع، وتترامى بعض الطاولات الصغيرة الأخرى، التي تحمل زهريات ممتلئة بالورود ومنتشرة في أركان المكان، ومن خلفها ستائر من المخمل الأحمر السميك تغطي النوافذ، ويتدلى شمعدان كبير من سقف الغرفة، وتمتلئ

أسطح الجدران من لوحات لأشكالٍ غريبة فاقعة الألوان زاهية، لا تعطي معانٍ كثيرة، ولا تدل على شيءٍ، أو أني لم أفهمها ولم يتسنَ لي النظر المعمق بها، ويفوح المكان برائحة البخور العطرة، ولكنْ أكثر ما أعجبني هو تناسق ألوان الغرفة على كثرتها وتنوعها الشديد، تعطي انطباعًا ممتلئ بالحيوية والحرارة، يختلف عن شكل البناء من الخارج البليد وباهت الألوان، وأشارتْ إلي بالجلوس، واستويتُ في مكاني على الكرسي الخشبي الواسع، والمغطى مقعده بالقماش المزركش...

سألتني رنين إنْ كنتُ أودُّ شرب الشاي.

ولم أُمانع أبدًا في ذلك، وذهبتْ... ومن ثمَّ عادت بعد دقائق محملة بإبريق الشاي وعدد من الفناجين، وقدَّمتْ لي بعض الكعك مع الشاي، وسألتني:

- كيف حال سلمان في الخان والمدرسة؟

- إنه بخير فقد تعوَّد على المكان، وأصبح يتجول في المنطقة بحرية أكثر، ويستكشف ما حوله، وأصبح الزوار يتعرفون عليه، ويشعر بأمان أكثر من قبل، وانتظم في الذهاب إلى المدرسة، ويأتي كل يوم ببعض الصور الجديدة التي تعلم معناها هناك، ولنتعلمها معه ونواكب كل جديد في حياته.

- وكيف حال الشيخ؟ وهل تغلَّب بعض الشيء على حزنه؟

- إنه بخير كذلك، وسعيد بقضاء بعض الوقت مع حفيده، وفي العمل في الخان بعد أنْ ازداد عدد الرواد إليه، وتحسن وضعه المالي.

ثم أردفتُ بالقول، بعد برهة صمت:
ـ الحقيقة أنا جئتُ هنا لأسألك، وأنا جدًا محرج من السؤال، ولكنْ لم أتلقَ إجابة عليه من أحد، وأتمنى أنْ لا أكون متطفلًا أو قليل الأدب.
ـ تسأل عن ماذا يا صالح؟
ـ أسألك، لماذا لا تستطيعين المرور على الخان وزيارتنا هناك؟
لم تجبني على سؤالي، وأشاحتْ وجهها، وبدأتْ تنظر في اتجاهٍ آخر في صمت، وبعد لحظات أردفتُ قائلًا:
ـ لقد تطفلتُ عندما سنحتْ الفرصة لي، وسألتُ ضابط الشرطة عن أسباب منعهم إياكي من زيارتنا، وكانتْ أجابته مقتضبة وغريبة.
ثم عادت تنظر إلي بترقب، كمَنْ يستفسر عن ماهية جوابه على تساؤلي.
ـ ذكر لي الضابط بأنكِ تمتلكين قدرات غير طبيعية، وتمارسين الوساطة الروحية والسحر.
ضحكتْ رنين، ومالتْ إلى الخلف لتتكئ على الكنبة، ونظرتْ إلي بسخرية، وسألتني:
ـ هل صدقتْ هذا التهويل من الكلام؟
هززتُ رأسي باستسلام، وقلتُ لها:
ـ حتى أنه حذرني منكِ، ومن التقرُّب إليكِ.
استمرتْ رنين بالسخرية، وبعد أنْ استكملتْ ضحكها، أردفتْ:
ـ أعتقد أنَّ ضابط الشرطة صاحبك، ربما يبالغ كثيرًا في وصفه لي بامتلاكي قدرات غير طبيعية، وأنا فقط أُساعد الناس على قدر إمكاني وأحقق لهم رغباتهم، وبالأخص عندما يُقدمون علي أمهات

ثكالى، يودون الكلام وسماع أخبار أبنائهم، الذين غيبهم الموت عنهم، وليس في هذا أي شيء خطأ، أو أي شرٍّ مؤذٍ لأي أحد، وبالعكس يحس الأهل بعدها براحة تامة، ويقل حزنهم كثيرًا، وتندمل بعض الجروح، والتي كانتْ تدمي قلوبهم.

ـ كيف يمكنكِ الاتصال بشخصٍ مات وغاب عن هذه الأرض؟

ـ إنه علم، وبعض العلماء يدعونه "الاتصال الروحي"، وأنا أدعوه إحساس الطاقة المنبعثة.. وروح الميت ليستْ غائبة عن هنا، بل تحوم في مستوى آخر متسامية في الأثير المحيط بنا، شفافة لا تدركها حواس الإنسان العادية البدائية.

ـ اعذريني، لقد صعَّبتِ الأمور علي، هل يمكنكِ تفسير ذلك؟

ـ نعم، عندما يموت الإنسان تنبعث منه روحه، وتتحرر من البدن، وتنطلق على شكل طاقة ضئيلة، تتحرك حولنا بقدرتها الذاتية والمستمدة من الأثير بذبذباتٍ قصيرة، لا يمكن لأي أحد أنْ يحس بها سوى قلة قليلة جدًا من الأحياء، الذين يقدرون على الشعور بها؛ لامتلاكهم قدرة مميزة خالصة من نقاء النفس على التخاطب معها، وفهمها، ونقل الرسائل إلى البشر.

ـ إذن أنتِ يمكنكِ فهم الأرواح والتخاطب معها؟

ـ نعم، هم يأتون إليَّ أحيانًا لإيصال رسائل إلى أهلهم، وأصدقائهم، أو بعض الناس يَقدِمون إلي لطلب التخاطب مع أقربائهم المتوفين من زمنٍ.

ـ عن ماذا تتكلم هذه الأرواح؟

ـ إنها أسرار لا يمكنني إخباركَ بها، ولكنْ بشكلٍ عام يسألون عن بعض ما جرى في الماضي للمتوفين، وعن خباياهم، وكذلك عن أحوالهم الراهنة، ويتساءلون عمَّا يحصل بعد الموت.

ـ هل تخبرينهم بكل شيءٍ تقوله لكِ تلك الأرواح؟

ـ نعم، وإلَّا توقفوا عن الاتصال بي، وبعضهم يرفض أحيانًا أنْ يبوح بأي شيء، حتى لو طلبتُ منه أو أمرته بذلك، إنهم يعيشون عالمهم الخاص، الذي هو مختلف تمامًا عن عالمنا المحسوس البدائي.

ـ هل هم موجودون الآن حولنا؟... سألتُها، وأنا خائف ومرتعد من الفكرة ذاتها (إنَّ هناك أرواح ما حولنا وتراقبنا، ونحن لا نعلم بها) وأحستْ هي بخوفي من خلال تلعثم كلامي.

ـ نعم بالتأكيد.

قالتها، وهي تضحك، وأكملتْ كلامها:

ـ لكنهم غير مؤذيين لأي أحد، يجب أنْ تخشى من البشر أكثر؛ لأنهم الذين يسببون الأذى والألم، وليس الأرواح.

ـ كيف يمكنكِ أنْ تفهمي ما يقولون، أعني أنهم لا يملكون لسانًا للتكلُّم من خلاله؟

ـ الروح، هي طاقة ـ كما قلتُ لكَ ـ وتكون بشكل كيان متوازن مستقل من جسيمات صغيرة جدًا، تتحرك، وتتنقل في الفضاء مجتمعة بلا زمان محدد، وبشكل موجات وترددات، ويمكن أنْ تحس بها، وتجذبها نحوكَ من خلال بعض الذبذبات، التي تبثها لهذه الطاقة، مثل: موجات صوتية خفية، ولكنْ لا يمكن سماعها بالأذن

العادية، ويجب أنْ تمتلك طريقة خاصة؛ لتفسير هذا الطنين الخافت الصادر عنهم، وبالأخص في الأماكن الباردة حتى لا تمتزج مع الحرارة المنبعثة من مصادر أخرى.

ثم توقفتْ عن الكلام، وبدتْ وكأنها غائبة عن الوعي بعيون مفتوحة، وجسم يرتجف، كأنها أصابها الصرع فجأة، وبعد ثوانٍ عادت إلى وعيها مجددًا، ونظرتْ إلي بشكلٍ غريب غار فيه قلبي من الخوف، ونهضتُ لأرحل، وقلتُ لها:

ـ يجب أنْ أرحل، فقد تركتُ الشيخ لوحده في الخان، ولابد لي من العودة الآن للعمل.

عادت رنين إلى حالتها الطبيعية، ونهضتْ هي كذلك، وقالتْ لي:

ـ نعم يجب أنْ ترحل إلى الخان.

رافقتني إلى الباب الخارجي، وعندها تشجعتُ، وسألتها:

ـ أنتِ لم تفعلي شيئًا مؤذيًا لأي أحد، بل إنكِ تساعدين الناس بعملكِ هذا، إذن هل لكِ أنْ تقولي لي لماذا هذا الحَجْر عليكِ من قِبل الشرطى؟

ـ لأني مزعجة للبعض من الدجالين، ومخيفة للبعض الآخر من الناس المنافقين.

قالتها رنين بابتسامة، وهي تسخر بصمتٍ، ولا أدري منّي أم من كلام ضابط الشرطة، ولكنْ في هذه اللحظات، وعلى الرغم من خوفي الشديد منها، أحسست في داخلي بأني معجبٌ جدًا بشخصيتها ورصانتها، وشدة تمالكها لأعصابها، وقدراتها التي تزعم امتلاكها، وأفضتْ نفسي إليها بالقول:

ـ أشكركِ على استقبالكِ لي بدون موعد، وأرجو أنْ تسامحي تطفلي وأسئلتي الكثيرة؛ لأني كنتُ جدًا متشوق لسماع ما سوف تقولينه لي؛ وبالمناسبة كان الكعك الذي قدمته لي لذيذًا جدًا.

ـ لا بأس يا صالح، أنا متعودة على الزيارات المفاجئة من قِبل الأحياء والأموات يوميًا.

ـ هل سيمكنك في يومٍ ما المرور على الخان وزيارتنا؟

ـ نعم.. ربما في المستقبل القريب.

شكرتها بعد الاعتذار مرة أخرى، وهممتُ بالخروج من الدار، عندما دخلتْ ـ فجأة ـ فتاة صغيرة العمر، وتبدو في العاشرة من عمرها، وهرولتْ لتحتضن رنين بشدة، والتفتْ يدي رنين حول تلك الفتاة بحنانٍ، وأحسستُ بعمق العلاقة بينهما ـ وكأنهما أم وابنتها ـ بعدها استأذنتُ، وخرجتُ من دارها وكلي إحساس بأني تحررتُ من الجو المخيف، الذي كان يحيطني ويغمرني داخل تلك الغرفة، التي تستحضر الأرواح فيها ـ كما تقول رنين ـ وسألتُ نفسي: كيف تجرأتُ على القدوم إلى هنا وطرح مثل هذه الأسئلة الفضولية عليها؟

وقفلتُ عائدًا في طريقي إلى الخان، وأنا أُكلِّم نفسي مطأطأ الرأس غارقًا في الأفكار الكثيرة التي مرَّتْ علي، وتناهى إلى سمعي صوتٌ يناديني، ونظرتُ إلى خلفي لأجد صاحب أحد المحال يدعى "كريم" يناديني، وقد مررتُ به ولم أنتبه إليه وألحظه لشدة انشغالي، وعدتُ أدراجي إلى صاحب المحل، وألقيتُ التحية عليه،

واعتذرتُ لمروري هكذا بدون سلام، وبرَّرت ذلك بأنَّ ذهني مشغول جدًا، وأجابني بالقول:

- لا يهم يا بني، تفضل بالجلوس داخل المحل.

أحسستُ في داخلي بأنه يود استجوابي، ويستنطقني عن سبب ذهابي إلى بيت رنين، فهو بالتأكيد قد شاهدني متوجهًا إلى هناك... دخلتُ إلى بهو المحل أتبعه، وأسير برفق ما بين البضائع المكدسة، والمترامية على جوانب المكان إلى كرسي بجانب مكتبه الخشبي القديم، وجلس بجانبي، وكان ضخم البنيان، ممتلئ البدن، برأسٍ كبير، وحليق تمامًا، يذكّرني ببطيخ الصيف الشهي، ومن ثمَّ علا صوته مناديًا:

- رحمة، اجلبي لنا الشاي يا ابنتي.

نظرتُ حولي، ولاحظتُ فتاة قادمة نحونا من الغرفة المجاورة، طويلة حسناء، حنطاوية اللون، نجلاء شهلاء العيون، هيفاء بشعرٍ جاعد أسود منسدل، يغطي لوحي الأكتاف العريضة بحنانٍ ولطف، ونظرتْ إليَّ بعينيها الواسعتين الناعستين، وألقتْ التحية عليَّ، ورددتُ بأحلى منها، وأحسستُ لحظتها لأول مرة في حياتي بسهامٍ صامتة انغرزتْ في قلبي، وأوقدتْ لهيبًا كان خامدًا في فؤادي، وعيوني مسمرَّة عليها تكاد تغادرمضاجعها، وترتمي عليها من شدة الشوق واللهفة.

أردفَ كريم صاحب المحل بالقول:

- هذه رحمة ابنتي، والمسؤولة عن الحسابات في المتجر.

ثم نظر إليها، وقال:

ـ هذا صالح، إنه يعمل في الخان مع الشيخ، ويشتري بضائعه من هنا.

هزتْ رأسها الصغير، وغابتْ رحمة عنا، وذهبتْ عائدة إلى الغرفة التي قَدِمَتْ منها، وعيوني تلاحقها إلى أنْ اختفتْ عن ناظري مؤقتًا، وقلتُ في نفسي: كيف قُدِّر لي أنْ لا أراها من قبل هنا؟

واستدرت، وبادرتُ بالقول:

ـ يا عمي أنا لا أودُّ أنْ أُشغلكَ عن عملكَ، وأُضيِّع وقتكَ المزدحم في هذه الظهيرة.

قلتُ كلمة "عمي" عفويًا، ولكنها نزلتْ على قلبي بحبورٍ كنزول من السماء على المرتحلين في البيداء وقت الربيع.

ـ لا بأس يا صالح، أنتَ تعلم أنَّ في وقت الظهيرة يقل العمل في المحال.. قلْ كيف حال الشيخ؟ وكيف حال حفيده سلمان؟ وكيف العمل في الخان؟

ـ إنهما بخير، والعمل يسير بشكلٍ لا بأس به.

كانتْ أجابتي جدًا مقتضبة؛ لأنَّ العقل في هذه اللحظات، قد هوسه الجنان، وغاب في أحلام اليقظة، وأوهام الهوى المفاجئ.

أفاقني العم مرة أخرى:

ـ هل يقدر الشيخ على العمل لوحده في الخان؟

ـ نعم بالأخص عندما يكون عدد القادمين قليلاً جدًا.

بعد برهة من الصمت، قَدِمَتْ رحمة وبيديها صينية الشاي، ووضعتها على الطاولة بجانب الكرسي بيديها التي تغطيها الأساور والدمالج الذهبية، وتدلى من عنقها قلادة من سلسلة مذهبة، تحمل قلبًا مرصعًا بالحجر، كان يستريح ما بين ثدييها الناهدين، وخشيتُ أنْ تفزع منِّي إنْ سمعتْ نبضات قلبي، الذي كان وقتها يدقُّ بعنف كلما اقتربتْ منِّي، وكأنه يباري حرارة الشاي بلهيب الفؤاد، الذي لم يعرف اهتزاز، وعنف الحب، والعشق من اثنين وعشرين عامًا مضتْ من الجفاف، ومن أول نظرة سقطتُ في بحيرة الهوى، كأني سمكة حلمتْ سنين بالعودة إلى أحضان الماء، الذي كان سرابًا في الصحراء القاحلة.

وبينما أنا مستمر في حالة ذهول، قدَّمتْ رحمة لي الشاي:

- تفضل يا صالح.. انتبه إنه حار جدًا.

- شكرًا جزيلًا.

قلتها، وأنا مرتبك ومتلخبط، وصرختُ في داخلي: إنَّ الشاي ليس أحرَّ من سعير فؤادي، وإنْ أحرقتني بعض قطرات الشاي، فإنها كقطرات الثلج تذوب في فوهة البركان، الذي كان خامدًا جامدًا إلى أنْ هزته زلازل الرحمة.

- يا صالح.. هل لديكَ مشكلة مع رنين؟

(سألني العم كريم، وأيقظني من أحلى حلم يمرُّ علي)

- لا يا عمي ليس عندي أي شيء مع رنين، الحقيقة أني ذهبتُ لأسألها عن سبب عدم قدومها إلى الخان، ومنعها من قِبل الشرطة،

وحاولتُ سؤالهم ولم يعطوني إجابة، وهي كذلك لم توضح لي السبب، وكما ترى كنتُ عائدًا إلى الخان عندما ناديتني قبل قليل.

ـ هل لذلك أهمية كبيرة لديكَ؟ أقصد عدم زيارتها للخان.

ـ لا ولكنْ أنا لا أعرف أحدًا هنا في الحي، وهي كانتْ تأتي لزيارتنا، وتجلس مع سلمان، وكانتْ متواجدة وقت الحادث لجدة الطفل، وساعدتنا في طلب الشرطة، والبقاء مع الطفل.

وبعد برهة صمت أردفتُ بالقول:

ـ الصراحة أن فضولي الشديد، دفعني للذهاب إلى بيت رنين، فقد سألتُ اللَّيلة الماضية ضابط الشرطة، الذي كان في الخان عن هذا المنع، وقال لي ـ وأرجوكَ يا عمي أنْ لا تسخر منِّي ـ: إنَّ رنين تمارس الوساطة الروحية والسحر، ولذلك هي ممنوعة من التجوال لغرض تأديبي لها... وسألتُها عن السبب، وقالتْ لي: إنها مخيفة ومزعجة لبعض الناس... ولم أفهم ما كانتْ تقصده من ذلك.

ـ إنَّ الشرطة صادقون في بعض مما ذكروه لكَ، وإنَّ رنين فتاة متمردة ومشاغبة، وخلقتْ بعض المشكلات لنفسها ولأهلها، وللحي كذلك من حيث تواجد الشرطة، والمراقبة المستمرة في نواحي المنطقة.. وكما تعلم إنه حيٌّ صغير، والجميع يعرفون بعضهم بعضًا هنا، وحضور الغرباء إلى الحي، هو مثار للشبهة ومدعاة للسؤال، ونحن بغنى عنه وعن هذه الأشياء، وهي تمارس هذه الأعمال؛ لأغراض مادية، ولجني المال من بسطاء الناس، الذين يَقدِمون إليها، ويدفعون المال الكثير لأجل التكلُّم مع أقربائهم المتوفين، وحتى أنا شخصيًا أعتقد أنها تعمل كمخبرة للسلطات،

ولهذا تراها حُرَّة طليقة، على الرغم من أنها تحت الإقامة الجبرية بأمر المحكمة، ولا أستبعد أنَّ لها بعض الاتصالات مع أشخاص متنفذين وذوي أهمية في البلد.

ـ هل تقصد يا عمي أنَّ كثيرًا من الناس يَقدِمون إليها ويصدقون ما تقوله لهم عن الأموات، ويدفعون المال لها؛ لتخدعهم وتشي بأمرهم إلى السلطة؟

ـ هذا ما أعتقده أنا شخصيًا، وما تدعيه هي عن قدراتها وتقوله في العلن، وكذلك ما نلاحظه من القادمين إليها، وتحوَّل الأمر عند بدايته قبل سنين من مزحة وحكاية، يتندر الناس بها في أحاديثهم إلى حصول بعض الأمور الغريبة، وتطوَّر الأمر بعدها كثيرًا إلى حوادث مقلقة، وبدأ أهل الحي بالخشية والقلق والتوتر، ثم بعدها بدأنا نرى أفراد الشرطة هنا كضيوفٍ دائمين، وتغيَّر الحال من سكينة وهدوء إلى توتر وترقب يعمُّ الحي المسالم.

ـ كيف ابتدأ الأمر؟ أي أقصد.. هل أفاقتْ يومًا ما، وأصبحتْ على هذا الحال، أي: واسطة روحية مشهورة، والناس تتقاطر عليها من كل صوبٍ وحدب؟

ـ أظن أنه ابتدأ من هول الصدمة، التي أصابتها من جراء ترك سعد ابن الشيخ لها، وهجره إياها بعد علاقة حب طويلة بينهما، واختفى فجأة هكذا، ولم تعد تراه أو تسمع أيًّا من أخباره، وحصل لها ـ كما قيل لنا ـ انهيا عصبي واكتئاب شديد لمدة، حاولتْ على إثرها الانتحار، ولم تفلح بذلك لسوء الحظ، ومن ثمَّ ومن بعد انعزالٍ وانطواءٍ لزمن، ظهرتْ لنا بشخصية جديدة وبهذه البدعة، وبدأتْ

بنشر القصص، والأخبار عن أشخاصٍ توفوا يتصلون بها، وبدأتْ بممارسة هذه المهنة بحرفية بالغة وبمهارة، وتسرِّب الإشاعات عن قدراتها المبالغ بها؛ لكسب الكثير من الزبائن، والغريب في الأمر أنها لم تتزوج أبدًا، وبقيتْ عانسًا لحد الآن، ربما لأملها بعودة سعد في يومٍ ما إليها، نادمًا طالبًا السماح والغفران منها، وأنه لا يوجد مَنْ يحل محله في قلبها، وربما هي لا تزال تلاحقه لحد الآن، على الرغم من أننا لا نعلم أين يتواجد الآن؟ ونأمل أنْ تتزوج؛ لكي تتوقف عن هذه الأعمال، وتهتم بعائلتها وأطفالها بعيدًا عن أعمال الشعوذة والسحر، والوشاية بالناس البسطاء.

- لم يخبرني الشيخ عمَّا حصل أبدًا، وكذلك عن علاقة ابنه مع رنين في الماضي.

- قد يكون لا يعلم بتلك الأمور جلها، وعن تلك العلاقة ما بين ابنه سعد ورنين، وما حصل لها بعد رحيله عنها، لقد كان جلُّ اهتمامه منصب على رعاية الخان وخدمته، ولم يأبه بالأمور الجانبية وغير الظاهرة له، وعندما رحل ابنه سعد فجأة وبلا سبب، تألم كثيرًا لفراق ولده وبقائه وحيدًا هناك في الخان بلا مُعين، وانقطاع أخباره عنه، وكذلك رنين لم تخبر الشيخ بأي شيء عن علاقتها مع ابنه، ربما بسبب الخجل، أو ربما لأنها كانتْ تود الانتقام من سعد بنفسها، وهي كانتْ توظف القادمين إليها من المدينة؛ لتسألهم بالمقابل عن أي أخبار قد يعرفونها عن سعد الهارب منها، ولا ألومه أبدًا على ما فعل تجاهها، واختفاءه عنها وعن شرها.

ـ هل يَقدِم الناس من المدينة كذلك لزيارة رنين؟ إنها على ما يبدو مشهورة جدًا، وذائعة الصيت، والناس تؤمن بها، وتصدق بما تقوله، وكنتُ أظن فقط أهل القرى، هم مَنْ يؤمنون بتلك الأشياء البدائية.

ـ يا صالح، هناك الكثير من الناس تدعي الدجل، وتسخر من عقول الناس البسطاء سواء في القرية أو في المدينة، وهم سيان لا فرق بينهما، بالأخص عندما تفقد شخصًا عزيزًا، وتحاول بأي طريقة ممكنة الاتصال به، والاطمئنان عليه إنْ كان ذلك ممكنًا، ويستغل المحتالين حاجة هؤلاء الناس، ويعتاشون بهذه الطريقة الماكرة؛ لأنهم لا يقدرون على عمل شيء مفيد لأنفسهم، وليس لديهم حرفة أو صنعة، والبعض القليل منهم مَنْ يكون صادقًا، ولكنْ لكثرة التزييف والدجل ضاع الحق بين الباطل والأكاذيب، والأفضل الابتعاد عنهم، وتجنب هؤلاء الزمر، وكما قلتُ لكَ: لن تجني أي شيء منهم، وإنْ حتى صدقوا في أقوالهم الكثيرة.

ـ كما تقول يا عمي، يجب أنْ أرحل الآن بعد إذنك، وأذهب إلى الخان؛ لأني تركتُ الشيخ لوحده لمدة طويلة هناك، أشكركَ جدًا على الضيافة والشاي اللذيذ.

نظرتُ من حولي بتلهف، أتفحص المكان إنْ كانتْ رحمة لا تزال بالجوار، والتي غابتْ عني، وأنا مشغول مع والدها بالحديث غير الشيق، والذي لم ينقطع أبدًا عن الكلام باستفاضة، وكم وددتُ أنْ أتكلّم معها وأشكرها، ولم يدم ترقبي كثيرًا، وظهرتْ لي كالملاك بعد أنْ سمعتْ أني راحل عن المحل، وقَدِمَتْ من الغرفة المجاورة،

ونظرتُ في عينيها، وشكرتها، وودعتها على أمل اللقاء القريب، وغادرتُ المكان، وأنا في حالة تلخبط وعجلة، بعد أنْ شاهدتُ أجمل صورة لفتاة في حياتي، والتي ارتسمتْ ملامحها عميقًا في ردهات ذهني تأبى أنْ تغادره، وأصبحتْ شُغل ذهني الشاغل، والحقيقة لم أعبء كثيرًا بما روى لي العم كريم عن رنين، واتصالاتها المزعومة بالعالم الآخر، والذي هو كذلك لا يعني أي شيء لي، فأنا أعيش هذا العالم الحقيقي، والذي أصبح أكثر جمالًا وامتلأ بشيءٍ رائع، وهو رحمة التي أطلتْ عليه وجعلته بألوان زاهية تلمع، كلما أطلتْ أشعة الشمس عليه.

وصلتُ الخان بعد المسير القصير من الحي، وكانتْ الأمور تبدو على ما يرام، وكان الشيخ جالسًا في الرواق، وكأنه ينتظر قدومي بشوقٍ وفضول.

- يبدو أنَّ الأمور جدًا هادئة في الخان؟ (بادرتُ بالسؤال)

- نعم لم يَقدم الكثير من الزوار في غيابك، وقد رحل آخرهم قبل وقتٍ قصير، وأنا جالس هنا كما ترى لوحدي.

أجابني الشيخ، ثم أردفَ بالقول:

- كيف كانتْ زيارتكَ للحي ولرنين؟ أرجو أنْ لا تكون آمالكَ قد خابت هناك.

ابتسمتُ لما قاله الشيخ، وأردفتُ بالكلام:

- لا على العكس كانتْ زيارة جيدة جدًا.

نظر الشيخ باهتمام بالغ، وسألني:

ـ أنا لم أكن أعلم أنكَ تودّ رنين إلى هذا الحد، مع كونها أكبر عمرًا منكَ بكثير.. هل أنتَ من ذوي الأرجل الغليظة؟

ـ لا أعلم ما تقصده، ولكنكَ يا شيخ الآن على خطأ كبير، فزيارتي إلى دار رنين لم تكن بسبب أني أتودد إليها أو أكن لها أي شعور سوى الفضول البالغ، الذي ملأ رأسي عن قدراتها، وهي كذلك لم تقلْ لي شيئًا عن سبب منعها من القدوم إلى الخان، ولكني أُعجبتُ بديكور منزلها وترتيبه، وكذلك الكعك الذي قدَّمته إلي كان جدًا لذيذ، وبالطبع ذكرتْ لي عن قدراتها الروحية، وكيف تخاطب الموتى وغيره، وكأنها تتفاخر جدًا بعملها ذاك، ولكنَّ الحقيقة ما أعجبني كثيرًا كان غير ذلك على الإطلاق.

ـ إذن قلْ لي: ماذا أعجبكَ بالحي، وجعلكَ سعيدًا لهذا الحد؟ لقد أثرتَ فضولي أكثر عن ذي قبل.

ـ عند عودتي من زيارة دار رنين، وأنا كنتُ في الطريق العام في طريق العودة إلى الخان، ناداني العم كريم صاحب المتجر الذي أتسوق منه ما نحتاج إليه، وأحسستُ أنه رآني أذهب إلى دار رنين، وأنه يود استنطاقي عن سبب الزيارة، وما هي مرامي من رؤية رنين؟ وجلستُ معه في مكتب المحل مستسلمًا لأسئلته الفضولية عن الداعي لزيارة رنين، وقلتُ له حكاية الشرطي، وما رواه لي عن رنين، وكيف أنها شرحتْ لي بنفسها ما تعمله من خدمات جليلة للناس... ولكنَّ العم كريم كان له رأي آخر، وقال لي إنَّ رنين تمارس الدجل والشعوذة، وهي غير مقبولة من قِبل أهل الحي، وهي ترتزق كذلك من بسطاء الناس، وقد يكون لها مرامي أخرى،

قد تكون بعضها سياسية، وأنها قد تكون تعمل كمخبرة للسلطة، وتوشي بالناس الذين يَقدمون إليها، وكان متحاملًا عليها بشدة، على الرغم من استفادة الحي ماديًا من زيارة الناس لرنين، وبالأخص الأثرياء القادمين من المدينة.

ـ إذن ضابط الشرطة، كان صادقًا بشأن رنين، وأنا لم أصدقه أبدًا، الآن بدأتُ أعرف أني بدأتُ أهرم، وأنَّ تفكيري بدأ يتلاشى.

ـ نعم بالتأكيد كان صادقًا، ولكنَّ هذا لا يعني أنكَ لا تفقه بهذه الأمور، وقد يكون الأمر، هو أنكَ لا تزال تؤمن بطيبة البشر.

ـ طيب، ولكنكَ لم تقلْ لي لحد الآن.. ماذا أعجبكَ بالحي؟

ـ ابنته يا شيخ.

ـ هل تقصد رحمة؟ (صاح بي الشيخ متعجبًا)

ـ نعم، إنها بالحقِّ ملاك رحمة، لقد سلبتْ لُبي وعقلي وكل كياني، إنها جميلة جدًا وفاتنة، ولم أرَ من قبل فتاة بمثل عذوبة كلامها، وجمال خصالها، وروعة مفاتنها، وكم وددتُ أنْ أجلس فقط إلى جانبها، وأمضي الوقت أتفرس في ملامحها العذبة عسى يشفي قلبي بعض الغليل.

ـ رويدكَ يا صالح لا تنفعل بهذا الشكل، نعم إنها جميلة يا ولدي، ولكنها تكبركَ ببعض السنين القليلة، وأبوها ـ كما ترى ـ متعصب جدًا، وغير سهل المراس، ونحن نحتاجه، ولا تسبب لنا مشكلة معه.

ـ نعم يا شيخ إنكَ صادق، وأحس الآن بالمرارة من اندفاعي هذا، فقد تكون الفتاة متزوجة أو مخطوبة، وأنا قد تجاوزتُ حدودي، واندفعتُ في أوهامي بطيشٍ بدون أنْ أفكّر بذلك، على الرغم من

أني لاحظتُ أنْ يدها، كانتْ تخلو من أي خاتم أو حلقة تدل على أي ارتباط، ولكني أرجو أنْ لا أكون قد تماديتُ في أفكاري.. أنا آسف.

ـ لا بأس يا صالح لا تهتم، فالفتاة لا تزال غير متزوجة، أو غير مخطوبة على الأقل هذا ما أعلمه من عدة أيام، عند رؤية أبيها في الحي.

ـ وكيف فتاة بمثل هذا الحسن والجمال تبقى هكذا بلا زواج؟

نظر إليَّ الشيخ باستغراب من كلامي على ما يبدو، وأجابني:

ـ إنها مطلقة يا صالح، لقد تزوجتْ قبل أعوام قليلة من شخصٍ كان يحبها وتحبه بشدة، وكان الزواج ثمرة لهذه العلاقة العاطفية الطويلة بينهما، وكذلك كان ذلك الزواج وسيلة للتقريب بين عشيرتين، فرقتهما الخلافات، والنزاع على الأرض، وطمع الاستحواذ على ملكية الغير، وعندما اكتشف زوجها السابق أنَّ رحمة عاقر، ولا يمكنها من إنجاب الأطفال طلَّقها، وانتهى أمره معها ـ كما يقال ـ وعادت إلى دار والدها، وعادت نزاعات الأرض، ومشاكل القوم بينهما، وبالمناسبة هي كذلك أكبر منكَ سنًا.

سكتَ الشيخ عن الكلام، ولم يكمل حديثه، وبقيتُ أنا مذهولاً ومصدومًا لسماعي لهذه الحكاية، وتساءلتُ في نفسي: لماذا تتحمل رحمة ذنبًا ليس من صنع يديها؟ وهل يعني كون المرأة عاقرًا النهاية لها؛ لأنها لا يمكن أنْ تنجب، وتلد أطفال، وتسقط من عين زوجها وباقي الناس، وتصبح إنسانًا معاقًا ودون منزلة من مرتبة النساء؟

ظلَّ الأمر يشغلني لفترة من الوقت، وبعدها سألتُ الشيخ:

ـ كيف برَّر زوجها لها الطلاق منها بهذه السهولة؟ كيف استطاع بعد علاقة الحب الطويلة، وبعد الزواج أنْ يتركها بسهولة هكذا وببساطة؟ وأين ذهبتْ تلك المشاعر الحميمة بينهما؟

كنتُ أقول هذا الكلام، وبداخل نفسي إحساس أكثر بالدهشة والاستغراب؛ لرخص أحاسيس بعض البشر إنْ كانوا يمتلكونها أصلًا، وفقدان قيمتها عند أول منعطف وعند أول امتحان، وإنْ كان امتحان صعب ومؤلم، ولكنه غير مبرر للانفصال وقتل تلك المشاعر، التي نُسجتْ بخيوط الحب واعتمرتْ الأبدان بعقد القران.

ـ يا صالح ليس بالضرورة، أنه كان مَنْ قرر الطلاق منها، وإنما قد يكون قرار غيره، وهو لم يكن سوى منفذ لهذه الإرادة المهيمنة عليه، وأعني أنْ قد يكون أهله وعشيرته، ربما هم مَنْ يتحملون المسؤولية بالكامل، وهو كائن مسكين بلا إرادة، أو رأي، أو على قدر من صواب، ويقوده الآخرين بالاتجاه الذي يودونه، وهذا حال الكثيرين من العميان المطاوعين، على الرغم من تمتعهم بحاسة النظر وغيرها من الحواس، ولكنهم يودون أنْ يكونوا تابعين بلا إرادة أو رأي نافذ.



مرَّتْ أيام على زيارتي للحي...

قَدِمَتْ إلى الخان الباحثة الاجتماعية المسؤولة عن سلمان، وجلسنا نتحدث عن حال الطفل في الخان وفي المدرسة، وكانتْ سعيدة بالتقدُّم الذي يحققه سلمان في المدرسة، على الرغم من قلته وبطئه للظروف، التي مرَّ بها وحالته النفسية، ولكنْ بالتأكيد فإنه يحرز تقدُّمًا ملحوظًا، ويلعب مع بعض الأطفال في المدرسة، ويكوِّن نوعًا من الصداقة والألفة معهم ومع مدرسيه، ويكتسب ثقة أكثر بالآخرين.

ودَّعتنا الباحثة الاجتماعية؛ لزيارته في المدرسة، والتعرُّف على كيفية التدريس والمناهج المتبعة في التعليم مع الأطفال المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، ووافقنا في الحال على دعوتها، وقالتْ إنها يجب أنْ ترتب أمر الزيارة مع المدرسة، وسوف تبلغنا بذلك الموعد المحدد، ومن ثمَّ تأتي لتقلنا إلى هناك.

ولم يدم طويلًا أمر هذه التدابير من قِبلها، حيث أتتْ لتقلنا ظهر يومٍ، وأخذتنا في عربتها، وانطلقتْ بنا في الطريق بعد أنْ أغلقنا الخان، وعلقنا على بابه الكبير لافتة مكتوب عليها، الاعتذار عن الإغلاق لأسبابٍ طارئة، وكان الطريق إلى المدرسة يسير باتجاه المدينة،

وبعد أنْ قطعنا ربما الساعة من الزمن نسير على ذاك الطريق السريع، خرجتْ عنه إلى طريقٍ آخر محاذيًا له، ثم انحرفتْ بنا نحو شارعٍ جانبي، سرنا فيه لعدة دقائق قبل أنْ نصل إلى بناية كبيرة معزولة ومسورة بجدران عالية، وركنتْ السيارة في مرآب خاص، وقالتْ: هذه هي المدرسة.

ترجلنا من السيارة، وسرنا نحو بوابة حديدية كانتْ مغلقة، ودقتْ زرًا موضوعًا على جانب البوابة، وأجابتها امرأة من خلال المذياع المُركب هناك بالقرب من زر الجرس، وبعد أنْ أعطت اسمها وأوضحتْ سبب الزيارة، فُتِحَ لنا الباب، ودخلنا إلى داخل المدرسة. سألتُ الباحثة عن سبب كل هذه الإجراءات الاحترازية... وردتْ بأنَّ ذلك لأجل حماية الأطفال المعوقين الموجودين داخل المدرسة، ولأنَّ بعضهم قد يخرج، ويهيم في الجوار، ولا يعرف أين يذهب؟.

تابعنا مسيرنا في فناء المدرسة متجهين نحو المدخل، حيث استقبلتنا إحدى المعلمات، وعرَّفتنا باسمها كما تعرفتْ علينا، ثم أخذتنا في جولة داخل المدرسة للإطلاع على الصفوف الدراسية، وبدأتْ بشرح وظائف التدريس داخل كل صف، وكذلك عن طبيعة الخدمات الإضافية المتوفرة في المدرسة والغير تعليمية، ولكنها ترفيهية، وتساعد التلاميذ على اللعب والاندماج والانسجام ببعضهم، مثل: قاعة الرياضة، وغرفة الآلات الموسيقية، وغرفة الرسم... وبالحقيقة أعجبني ما هو متوفر للتلاميذ من تسهيلات تعليمية وغيرها، وقارنتها بمدرستي المتواضعة في القرية، والتي كنتُ أشفق على بؤس حالها، على الرغم من كونها مدرسة لطلاب اعتياديين، مقارنةً بهذه المدرسة المخصصة لذوي الاحتياجات

الخاصة والمعوقين، وفرحتُ كثيرًا لسلمان؛ لتواجده هنا حتى يحاول على الأقل تعويض ما فاته والاستفادة لمستقبله، وشاهدنا سلمان جالسًا في أحد الصفوف مع أقرانه، ولم نقاطع تعليمه، وأطلعتنا المعلّمة على كيفية شرح الدروس لهم، وتعليم سلمان وباقي الأطفال طرق المخاطبة؛ لأنها عملية فيها تحدٍ وصبر، وتجرأتُ، وسألتُ المعلّمة عن سلمان:

- سيدتي.. هل هناك أمل في أنْ يتمكن سلمان من التكلُّم والمخاطبة يومًا ما؟.

- لا أعرف ذلك، ولا أعتقد أنْ أي أحد يعرف ذلك على وجه التحديد، ولكنْ كلما تقادم الزمن عليه، يصبح التكلُّم أشد صعوبة؛ لذلك كان من الضروري، وواجبًا أنْ يلتحق في المدرسة منذ أنْ كان في نعومة أظفاره، ولكنْ ليس هناك شيء مستحيل، وقد يبدأ النطق بكلماتٍ متفرقة ربما، ولكنْ لا يقدر أنْ يكوِّن جملة كاملة، وكل هذا يعتمد على التعليم والمثابرة.

أنهينا الزيارة بعد الإطلاع على المدرسة، وشكرنا المعلّمة على حسن الاستقبال، وودعناها، وخرجنا مسرورين بما شاهدناه، وقفلنا عائدين إلى الخان، وقلتُ للباحثة:

- أني أكثر اطمئنانًا وفرحًا لحال سلمان الآن.

ووافقني الشيخ، الذي كان يذرف بعض الدموع في طريق العودة، ربما لأنه تذكر ابنه الراحل، وربما لأنه تذكر كم كان هذا الطفل يعاني من سوء رعاية، وظلم والديه وأهله، ولكنه الآن هو في أفضل حال بين أحضان الغربى والمعلمين في المدرسة.

بدأتْ علامات التعب تظهر على بدن الشيخ، الذي كان يعاني أصلًا من المرض، وأظن أنَّ توالي الأحداث التي حصلتْ لابنه، قد ساهمتْ بشكلٍ كبير في تدهور صحته، ولم يساعدني كثيرًا في الخان، وبدأتُ في التفكير بطلب العون، وإيجاد شخص آخر معي؛ ليساعدني في إعداد وجبات الطعام، وتقديمها، وخدمة الزوار، وكذلك في التنظيف، والقيام بالأعمال الأخرى المطلوبة في الخان، ولكنْ لا أعرف لمَنْ ألجأ في طلب العون، وتحدثتُ مع الشيخ، وقلتُ له:

ـ يا شيخ أرى أنَّ صحتكَ ليستْ على ما يرام، وأنكَ تبدو جدًا مرهق، وواهن، وغير قادر على العمل، يجب أنْ تستريح من عمل الخان، ويمكن فقط أنْ تكتفي في الجلوس خلف ذلك المكتب.

ـ نعم يا صالح إنَّ صحتي ليستْ على حالها منذ سماعي بأخبار ابني الحبيب سعد وتضحيته، ولحد الآن أنا غير مصدق، وغير مستوعب، أني لن أراه أبدًا بعد الآن.

نزلتْ الدموع على وجهه الشقي والتَعِب، والتي حفرتْ السنين آثارها فيه بحرفية بالغة، ولذتُ بالصمتِ، ولا أعرف ماذا أقول له في مثل هذه الظروف؟ وكان لا بد لي من ارتجال بعض العبارات؛ لتطييب خاطره في هذه المحنة، ولكني لا أعرف كلمات تغني عن احتضان الأب لابنه، وسعادة الأب لنجاح أولاده، وحزنه لحزنهم، وتقصر الكلمات دائمًا عن وصف ما يجري داخل الإنسان من مشاعر وآلام، ويتغلب سيِّد المواقف دائمًا ألّا وهو الصمت، ولكني

حاولتُ تغيير الموقف بأكمله، وأردتُ أنْ أقول له شيئًا يشغله عن التفكير بولده الآن.

ـ أنا كنتُ أقصد أنْ أجد أحدًا ما يساعدني في العمل هنا في الخان، ويحل محلكَ.

ـ نعم يا صالح لما لا، لقد ازداد عدد القادمين، ووجب أنْ نجد شخصًا آخر ليعينك.

ـ لكنْ أين أجد مَنْ يساعدني هنا؟ وكما تعلم أني لا أعرف أحدًا في هذا المكان، ولا أعرف لمَنْ أطلب منه المجيء للعمل، ومساعدتي في الخان.

ـ أعرف ذلك، ولكنْ ربما أحدًا في الحي يود العمل هنا، وإذا سألتَ هناك، أو وضعتَ إعلانًا بهذا الخصوص، قد تجد استجابة على طلب العمل.

ـ هل ترضى يا شيخ بأي أحد يتقدم للعمل، فأنا لا أعرفهم، وقد لا يكونوا مناسبين لكَ.

ـ أقترح عليكَ الذهاب إلى كريم صاحب المتجر، فهو يعرف الجميع هناك، ونصيحته قد تكون مفيدة لنا، وقد يجد لكَ أحدًا، أو أنْ يضع هو الإعلان في محله؛ ليشاهده الجميع في الحي.

ـ نعم إنها فكرة سديدة يا شيخ، وسوف أفاتحه صباح غد عند شرائي للحاجيات منه، وأطلب منه العون في الأمر.

كانتْ فكرة سديدة أسداها الشيخ لي، تجعلني أتقرب أكثر إلى العم كريم عسى أنْ أجد وسيلة للوصول إلى رحمة، التي لم تفارق خيالي لهذه اللحظة، لقد تملكتْ لُبي وكل كياني، وأغرقتْ ذهني في

ولع المراهقة، وكنتُ أمرُّ بشكلٍ دائم على المتجر متلهفًا لها، ولكني لم أحظَ برؤيتها بعدئذ، وكأنها تقول لي: كفاية عليكَ رؤية الملاك مرة واحدة.

ولا تعلم هي كم أنا شديد الطمع والجشع لها.

ذهبتُ في الصباح أقطع الطريق بين البساتين متوجهًا إلى الحي ـ كعادتي ـ وتوجهتُ مباشرةً إلى محل العم كريم، وبعد التحية طلبتُ منه الحاجيات التي جئتُ من أجلها، وأكملتُ كل المشتريات المطلوبة، ثم سألته:

ـ يا عم كريم أودُّ أنْ أطلب منكَ خدمة عساكَ أنْ تساعدني فيها.

ـ ماذا تود يا صالح؟

ـ كما تعلم يا عمي، أنا وحدي أعمل في الخان، والشيخ بدأتْ صحته في التدهور، ولم يعد يقوى على مساعدتي في خدمة الخان، وبعد أنْ استأذنته بدأتُ بالبحث عن شخصٍ آخر؛ ليساعدني في عمل الخان، ولكنَّ المشكلة أني لا أعرف أي أحد هنا، وطلبي إنْ وافقتَ عليه أنْ أضع إعلانًا في واجهة المحل؛ ليشاهده أهل الحي، وربما يتقدم أحدهم للعمل، وإنْ كنتَ تعرف أحدًا يفي بالغرض، فقد تكون قد سهلتَ المهمة علينا كثيرًا.

ـ نعم لا بأس، يمكنكَ أنْ تضع الإعلان على الواجهة، وإنْ علمتُ بأحدٍ يود العمل فسوف أرسله إليكَ، وهل شرحتَ في الإعلان شروط وواجبات العمل والأجر؟.

ـ نعم بشكلٍ مبسط، ولكنَّ المهم أنْ يعرف الطهي، وأنْ يقبل بالأجر المقدَّم، وهو ليس بالكثير، ولكنْ يمكن أنْ يزداد في حالة تحسن العمل في الخان.

ـ قلْ لي: كيف سوف يتحسن العمل هناك؟ أعني ماذا سوف يتغير ويتطور؟

ـ سؤالكَ صعب يا عم، وتعرف قلة الإمكانية، ولكنْ إنْ حصلنا على طاهٍ جيد من الممكن أنْ نوفر أشياء جديدة، تشجع الزوار على القدوم والدوام على زيارة الخان.

ـ نعم لا بأس، اترك لي هذا الإعلان وسوف أحاول أجد لكَ أحدًا يساعدكَ.. ولكنْ قلْ لي: لم أرَكَ يومًا تحمل هاتفًا نقَّالاً، فكيف سوف أتصل بكَ عند الحاجة؟

ضحكتُ لخيبتي، وأجبته خجلًا:

ـ إنكَ شديد الملاحظة يا عمي، وأنا بالفعل لا أملك هاتفًا نقَّالاً، ولم أستعمله من قبل، ولا أعرف كيفية الحصول عليه ـ وكأني لا أزال أعيش في زمن العصور الوسطى ـ ويمكنكَ أنْ تراسلني باستخدام الحمام الزاجل.

قلتها ضاحكًا لمداراة الجهل والجمود الزمني الذي أعيشه، وشاركني العم كريم الضحكة، ولا أعرف إنْ كانتْ المشاركة استعطافًا ببدائيتي أم استهزائًا بجهلي، وتبقى المرامي في دخيلة الإنسان ملكًا له وحده، وأجابني:

ـ إنكَ لا تحتاج فقط أحدًا يساعدكَ، ولكنْ أيضًا ليوجهكَ إنْ سمحتَ لي بالتعليق ـ كما قلتُ لكَ ـ دع لي هذا الأمر، فأنا لا أودُّ أنْ يأتي أحد للعمل معكَ ويستغلكما؛ لعلمي بوضعكما الخاص.

شكرته، وغادرتُ المتجر، وأنا في حال حرج شديد مما قاله لي العم كريم، ولكنْ لا بأس فوجع النقد القادم، يمكن من تحمله ما دام موجه من العم كريم والد رحمة الجميلة، وهو على حقٍّ في نقده لي، وسوف أحاول أنْ أحصل قريبًا على هاتفٍ نقَّال لي.

عدتُ إلى الخان محملًا بالحاجيات التي اشتريتها من المتجر، وأخبرتُ الشيخ بما قاله لي العم كريم حال وصولي هناك، ومن ثمَّ قلتُ له:

ـ يا شيخ.. كيف يعرف الناس بهذا المكان؟ وأقصد، كيف سوف يجده المارون بالطريق السريع إذا كانوا لا يعرفونه؟ لأنَّ الخان على مسافة من الطريق، ومختفي خلف الأشجار العالية، وغير ظاهر بتاتًا للسواق والمرتحلين، وكنتُ أفكّر بما قاله لي العم كريم عن كيفية تطوير المكان؛ ليصبح معروفًا ومطروقًا من قِبل الزوار والغرباء.

ـ كنتُ في الماضي أفكّر في إقامة لوحة إعلانية كبيرة بجانب الطريق السريع، تشير إلى مكان الخان وكيفية الوصول إليه، وكذلك أنواع الخدمات التي نقدمها ومن ضمنها أنواع الطعام، ولكنْ لم يحصل ذلك بسبب رحيل ابني سعد، وكذلك لأنَّ البلدية فرضتْ أجرًا كبيرًا لإجراءات النصب وتكاليفها، وبالتالي أشحتُ عن بالي هذه الفكرة، ويمكنكَ أنْ تقوم بهذه الأشياء من دعاية وإعلان، ولكنْ

يجب أنْ تجد مَنْ يساعدكَ أولًا، وكذلك توفر طعامًا جيدًا، وهذا ما يوده الزوار عمومًا عندما يقدمون إلى هنا.

ـ كما تعلم أنا في مهنة الطهي مبتدئ، وأتعلم معظم هذه الأشياء منكَ، وذكرتُ للعم كريم أنَّ ما نحتاجه هو طاهي جيد، ولم يكن جدًا متحمس للفكرة، كونه يشك في قدراتنا بسبب من حالتكَ الصحية وكوني حديث العهد هنا، وذكر أنَّ أي شخص يأتي هنا، يجب أنْ توفر له مرتبًا مقبولًا، وهذا أمر صعب الحدوث في مثل ظروفنا هذه.

ـ نعم إنه محق، وأنا غير قادر على منح العامل الجديد مرتب يتوافق مع ما يدفعونه الآن في الأماكن المشابهة، مثل مطاعم الطريق.

ـ ربما يجد العم كريم شخصًا ما يرضى بالقليل من الأجر.

ـ أتمنى ذلك لأجلكَ يا صالح، ولأجل الطفل سلمان، وكما تعلم إنْ حصل أي شيء لي، فسوف يأخذون الطفل إلى ملجأ الأيتام، وأنتَ قد يسوء حالكَ لوحدكَ هنا في الخان.

ـ نعم يا شيخ، سلمان دائمًا على بالي، فأنا قادر على تدبير شؤوني، ولكنْ ماذا عنه وعن مستقبله الغامض؟.

بقيتْ هذه التساؤلات بلا مجيب لعدم المعرفة ولقلة المقدرة، ولكنَّ هناك دائمًا الأمل الذي يبقى هو يقيننا ومحركنا في هذه الحياة.

مضى اليوم بتثاقل، ولم يُقدِّم أحد للعمل هنا، أو حتى للسؤال والاستفسار عنه، وكنتُ مترقبًا لأي قادم خلال هذا النهار، ولكنْ

عندما حلَّ المساء بدأتُ أشعر بأنَّ الأمل يضعف في إيجاد معاون لي، ويبدو الخدمة في الخان أمر غير مرغوب به، وغير مغري لأي أحد ربما لقلة الأجور، وقلتُ في نفسي: ربما غدًا يأتي أحدٌ ما، فالإعلان بدأ اليوم، وقد يحتاج عدة أيام لوصوله لإسماع كل أهل الحي، وربما العم كريم يرسل أحدًا يعرفه.

بقيتْ هذه الأفكار تتقلَّب في ذهني، وأنا أفكِّر بمَنْ سوف يأتي؛ إنْ أتى أحد، وكيف سوف أتعامل معه هنا؟ وكيف سوف نتعاون؟ ولحد الآن كانتْ الأمور يسيرة؛ لأنَّ التعامل يتم فقط مع الشيخ، وهو الذي يوجه العمل هنا، وأظنه سوف يعمل الشيء نفسه مع القادم الجديد.

بدأتُ بتنظيف المكان، وترتيبه، وإعداده للغد بعد أنْ غادر آخر الزوار، ولم يعد أحد في الجوار، وهذا ما أعمله يوميًا، وبينما كنتُ منهمكًا في العمل دقَّ باب الخان، وتلفتُ حولي لأجد إنْ كان الشيخ ذاهبًا لفتح الباب، ولكني كنتُ وحيدًا في الصالة، وقلتُ في نفسي: مَنْ يكون من الزوار القادمين الآن في مثل هذا الوقت؟

تركتُ كل شيءٍ كان في يدي، وتوجهتُ نحو الباب لأفتحه لأجد رحمة في الباب، والتي ألقتْ التحية علي، وسقط فؤادي بين يدي، وهزني عنف المفاجأة الذي لجم لساني الراغب بسرد كل محتويات كتب الحب لهذا الملاك، ورددتُ عليها التحية بلسانٍ متعثر بعد أنْ توسلتُ فيه الرد... أردفتْ رحمة بالقول:

ـ لديكم إعلان عن عملٍ هنا؟

- نعم.. هل وجد العم كريم أحدًا؟ (حسبتها جاءتْ لتبلغني عن متقدِّمٍ للعمل)

- نعم.

- أين هو. (وبدأتُ أنظر للخارج عسى أنْ أجده).

- أنا هو المتقدِّم للعمل.

تراكم ذهولي أكثر، ولم أعد قادرًا على النطق، واكتفيتُ فقط بالنظر إلى هذه الملاك، الذي أطلَّ عليَّ في هذا المساء الجميل.

- لماذا تنظر لي هكذا؟.. ألستُ أهلًا للعمل هنا؟ هل كنتَ تتوقع شخصًا آخر أفضل منِّي؟

لم أقدر أنْ أردَّ عليها، كيف تفكر بالأمر هكذا؟ ألَّا تعلم أني أتوسل اللحظة التي أراها فيها، أتضرع إلى هذا الزمان أنْ يدوم إلى الأبد.

- لا أنا آسف جدًا جدًا، أنتِ خير مَنْ يقوم بالعمل هنا، ولكني اعتقدتُ أنك تعملين مع والدكِ في المتجر، ومنشغلة كثيرًا هناك، وليس لديكِ وقت للعمل هنا في الخان.

- أنا أعمل فقط في الحسابات مع والدي، وهي عملية بسيطة، وأقدر أنْ أقوم بها عندما يكون لدي وقت فراغ.

- هل يعلم العم كريم بقدومكِ هنا للعمل؟

- بالتأكيد يعلم، وهو مَنْ أخبرني عن هذا الإعلان.

- تفضلي هنا بالجلوس لأنادي الشيخ، والذي أحسبه سوف يكون ثاني أسعد إنسان على الأرض.

ضحكتْ رحمة على غزلي المبطن، وأتمنى وأرجو أنْ تكون أحستْ بما أكنه لها، والحب الذي أضمره لها.

أسرعتُ الخطى لأنادي الشيخ، الذي سمع صوتي وقَدِمَ صوب الصالة، وأخبرته بإيجاز عن المتقدِّم للعمل، فأبدى دهشته وسروره، وسلَّم على رحمة، وردتْ السلام.

ـ يا ابنتي.. هل يعرف والدكِ بمجيئكِ هنا؟

ـ نعم يا شيخ، وهو الذي شجعني على القدوم، وذكر لي أنَّ العمل هنا يحتاج إلى طاه، وأنا وجدتها فرصة لكي أُمارس عملًا جديدًا وبالأخص الطهي؛ لأني أحب هذه الصنعة جدًا

ـ هل ذكر لكِ أني حاليًا لا أقدر أنْ أدفع الكثير، ولكني أعدكِ إنْ تحسن العمل، فسوف يكون مرتبكِ أول الصاعدين

ـ لا بأس يا عمي إني على دراية بواقع الحال، والمال ليس هو الشيء المهم في هذه المهنة.

ـ طيب ومتى تحبين أنْ تبدئي؟

ـ حالًا إنْ أحببتَ.

ـ يمكنكِ أنْ تبدئي عند صباح الغد؛ لأنَّ الآن ليس لدينا أي من الزوار أو الزبائن، ولكنْ مع الغد سوف يقدِمون، ويمكنكِ الآن التعرُّف على المكان، ورؤية المطبخ، وكذلك إنْ احتاجتي أي شيء من المعدات، أو الحاجيات المطلوبة للعمل؛ لكي نوفرها لكي قبل البدء بالعمل، سوف يأخذكِ صالح في جولة في المكان.

وأردفَ الشيخ:

ـ هل تعرفين صالح؟ إنه فتى بسيط طيب القلب، يعمل هنا من مدة بسيطة، وقد أعانني كثيرًا، ورضي بأقل الأجر، وإنْ تحسن العمل سوف يستفيد هو كذلك.

- نعم لقد شاهدته عند متجر والدي، وكان يشتري حاجيات الخان منا.
- طيب خذها يا صالح؛ لترى المكان، وسجل على ورقة أي شيء تحتاجه رحمة لكي نجلبه لها.

قلتُ في نفسي: هل يمكن أنْ أكتب اسمي فقط على الورقة؟

- حاضر يا شيخ.

وأخذتها نحو المطبخ، وجالتْ عينيها حول المكان تتفحصه بعناية، ثم أخذتْ في فتح الأدراج، وإحصاء ما لدينا من معدات الطبخ البدائية، وسألتني عن أنواع الأطباق التي يطلبها الزوار... ذكرتها لها بسرعة كوننا لا نملك اختياراتٍ متعددة.

وأردفتْ بالقول:

- إنْ كان بإمكاني إعداد قوائم بالأطباق الجديدة والتي يمكن عرضها على القادمين، وزيادة المعروض من الاختيارات المتوفرة.

وأجبتها:

- نعم فقط اذكري لي ما هو الجديد، وسوف أُسجله على القوائم.

ثم أردفتْ رحمة وطلبت منِّي إعداد كذلك ما سوف يتطلب الأطباق الجديدة من مواد إضافية، يجب جلبها في الصباح قبل بدء العمل؛ لتهيئة كل شيءٍ قبل بدء تقاطر الزبائن.

ولم تكن إجاباتي سوى بنعم وحاضر؛ لأني كنتُ لا أودُّ أنْ أفكّر في هذه اللحظات، ولكنْ فقط أنْ أستمتع برؤيتها بجانبي، وهي توجهني، وتعطيني الأوامر.

وبعد أنْ اطلعتْ على كل شيءٍ، استطردتْ رحمة بالقول:
ـ أنا ذاهبة الآن، وسوف أبدأ غدًا صباحًا، وأرجو أنْ تأتي يا صالح مبكرًا إلى المتجر؛ لكي نأخذ الحاجيات التي سوف أستخدمها وعسى أنْ يكون ذلك مناسبًا لكَ.

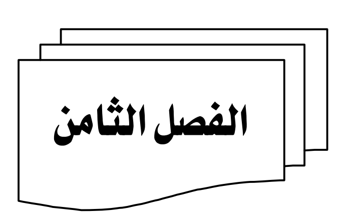
ـ نعم سوف آتي إلى المتجر عند الصباح الباكر.

سألتها إنْ كانتْ تود أنْ أرافقها في طريق العودة؛ لأنَّ الوقت كان مساءً وهي لوحدها... ولكنها شكرتني، وقالتْ:
ـ أنا أعرف طريقي، وأستطيع حماية نفسي، وعلى العموم لا يوجد غرباء في المنطقة.

رحلتْ وأثارتْ إعجابي بشجاعتها، وحبها في الاعتماد على نفسها، ولكني في داخل نفسي قلتُ: إنَّ الخطر لا يأتي دائمًا من الغرباء.

عدتُ إلى الشيخ، وسألته بتعجبٍ عن سبب إرسال العم كريم لابنته رحمة للعمل هنا في الخان، وقلتُ له:
ـ إنَّ الأمر يبدو غريبًا لي.
أجابني الشيخ:
ـ إنَّ كريم تاجر، وعملي في التفكير، وهناك عدة احتمالات لقراره هذا منها: أنه ربما فكَّر بالأمر من ناحية أنَّ ابنته امرأة مطلقة، ويمكن أنْ تجد أحدًا ما هنا ليتزوجها، وبالأخص أنَّ كثيرًا من الناس يَقدِم إلى هذا المكان، أما في الحي، فهي لا ترى أحدًا، والجميع يعرفها هناك، وتحركها محدود، وبالتالي صعوبة زواجها مرة أخرى، وإذا العمل تقدَّم، وأصبح أفضل حالًا مما عليه الآن، فهو

أيضًا مستفيد؛ لأنَّ كل مشترياتنا منه، وبالتالي زيادة العمل هنا هي زيادة في المبيعات عنده أيضًا.. وهناك احتمال آخر في أنها هي مَنْ طلب العمل هنا وجاءتْ بناءً على رغبتها الشخصية، وهي مقتنعة أنها يمكن أنْ تحقق شيئًا لنفسها أفضل من العمل في متجر أبيها في الحي.



الفصل الثامن

كانتْ اللّيلة طويلة جدًا، وتختلف بالتأكيد عن باقي اللّيالي التي مرَّتْ بي هنا وحيدًا في الخان، وفي هذه اللّيلة اختلطتْ كثير من الأحلام مع الواقع بشكلٍ كبير، وأمعنتُ النظر كثيرًا في ذلك السقف الأرجواني اللون المقيت، والذي يغطي فضاء الغرفة، وأنا متمدد على السرير القادر على احتواء جسدي النحيف فقط، وليس روحي المنبعثة في كل أرجاء المكان، وكان ذاك السقف يبدو مختلفًا تلك اللّيلة، فقد تحوَّل من بناءٍ حجري جامد بليد بلا معنى إلى شاشة فضية، أشاهد فيها أحلام الواقع بعرض سينمائي مبدع ومثير، أُنتج على يد أمهر المخرجين في الحياة ألّا وهو القدر، الذي رسم لي معانٍ جديدة برسومٍ متحركة؛ لأخوض جبلتها وأحتضن شخوصها الخيالية، الذين رافقوا ليلتي وسردوا عليَّ قصتي منذ الانتقال إلى الالتقاء وتحقيق الذات، والذي لا يتمُّ إلّا بالحبِّ وحده بأسمى معانيه وأجمل لحظاته والتي أعيشها الآن، وأضحى الحبُّ الذي لم أجده من قبل سيِّد وجداني، والناطق الرسمي لكل مشاعري، والتي انطلقتْ من جحورها بعد دهورٍ أمضتها في الظلام؛ لتعانق ضياء الشفق في فجر الصباح، والذي أفاقتْ عيني الساهدة المجهدة عليه في انتظار النهار، الذي سوف أمضيه بطوله بجانب رحمة.

نهضتُ ولملمتُ أشلاء جسدي المتهرئ من التعب، وتهيأتُ للعمل من جديد وبروحٍ مفعمة، وانطلقتُ نحو الحي بخطواتٍ متسابقة مع بعضها، ووصلتُ إلى المتجر، وألقيتُ السلام على العم كريم، الذي حياني بابتسامة، ودعاني للجلوس بانتظار رحمة التي كانتْ تهيئ الحاجيات، وبادرتُ بالحديث معه:

ـ لقد تعجبنا كثيرًا مساء أمس، عندما أتتْ رحمة إلى الخان للعمل فيه.. نحن لا نود أنْ نشغلها عن عملها معكَ هنا في المتجر.

ـ لقد أعجبتها الفكرة، وكانتْ مقتنعة بام كأنها العمل بجد في الطهي وإعداد الطعام، والعمل هنا في المتجر يبدو بالنسبة لها بسيطًا وغير مُجدي، ويمكنها القيام به عند الفراغ من العمل في الخان.

قَدِمَتْ رحمة أثناء المحادثة، وكانتْ محملة بالحاجيات، وبعد تبادل السلام أخذتُ منها تلك الحاجيات، وانطلقنا نحو الخان بعد وداع العم كريم الذي كان يبدو سعيدًا بعمل ابنته في الخان معنا.

وصلنا إلى الخان بعد مسير قصير، لم يتح لي تبادل الكثير من الكلام معها، وتوجهتْ رحمة إلى المطبخ، الذي كان مهيأً لبدء العمل، وبدأتْ بترتيب الحاجيات في الأدراج، ومن ثمَّ جلسنا نعد قوائم بالأطباق الجديدة، والتي سوف نقدمها في الصالة، وكانتْ رحمة تبدو جدية ومتحمسة ومنتظمة في أداء عملها، وكنتُ أتقبل توجيهاتها بكل جدية وطيبة خاطر، وتراءى لي أنها تعلم ماذا تفعل؛ وهذا مهم جدًا.

بدأ بعض الزوار بالقدوم، وبدأنا نقدِّم الجديد لهم مما تيسر من يد رحمة، وتلقينا كثيرًا من الإطراء، وبالتحديد رحمة التي هي مَنْ يعدُّ

الطعام في الخان، وهذا ما أسعدها كثيرًا بالنسبة لأول يوم عمل، وجعلها أكثر تحمسًا في خدمة الزبائن، وبدأتُ أنا كذلك بالتعلُّم منها كيفية إعداد أنواع الأطباق التي تقدمها، وهي حجتي للبقاء بالقرب منها وتبادل الحديث معها، على الرغم من عدم إبدائها أي تودد خاص تجاهي، وكانتْ تعاملني كأي زميل عمل معها ولم أيأس، وقلتُ في نفسي: ربما المودة تأتي مع الزمن.

المهم أنَّ العمل في الخان أصبح أكثر امتاعًا، وأكثر زخمًا من ذي قبل، ولاحظنا ازدياد حقيقي للزوار، وتكرار قدوم عدد أكبر منهم في الأيام المتعاقبة بعد بدء رحمة العمل هنا، وهذا مما أسعد الشيخ كثيرًا، الذي دعانا إلى اجتماع بعد نهاية عمل أحد الأيام ورحيل آخر الزبائن، وبادر بالحديث بعد جلوسنا حول الطاولة:

ـ كيف ترين العمل هنا يا رحمة بعد مضي هذه المدة القصيرة في خدمتك؟

ـ إنه ممتاز، ويبدو لي معظم الزبائن كانوا راضيين عن الطعام الذي يُقدَّم إليهم، وكذلك عن الخدمة هنا بشكلٍ عام.

ـ وأنتَ يا صالح؟ (وكان يوجه حديثه إلي).

ـ نعم إنَّ ما تقوله رحمة صحيح، وأظنه ازداد عدد القادمين إلى هنا بعد قدومها، وبدئها العمل في الخان. (هذا كل ما تفطَّر ذهني عنه في ذلك الوقت من جواب).

ـ لقد كانتْ لدي فكرة في السابق، أوضحتها لكَ يا صالح، وسوف أعيدها الآن؛ لتسمعها رحمة وتشاطرنا رأيها فيها، وهي إقامة لوحة إعلانية كبيرة بجانب الطريق السريع كي يستدل مستخدمي الطريق

على مكان الخان، ويعلم أكثر عدد من المسافرين بوجود الخان هنا وأنواع الطعام الذي نقدمه فيه، وباستمرار هذه الوتيرة من العمل، فسوف أتمكن من دفع أجور تشييد هذه اللوحة للبلدية، وإنْ وافقنا جميعنا الرأي سوف أبدأ بإجراء اللازم لبناء الإعلان الكبير.

وافقنا جميعًا على أنها فكرة جيدة وسديدة، وانفض الاجتماع الاستثنائي.. وبعدها رحلتْ رحمة عائدة إلى دارها.

في الصباح التالي ـ وكالمعتاد كأي يوم سابقه ـ ذهبتُ إلى المتجر؛ لأجلب الحاجيات منه، وأُرافق رحمة إلى الخان، والتي قالتْ لي إنها يمكن أنْ تجلب الحاجيات معها، عندما تأتي إلى الخان في المستقبل، ولا داعي لمجيئي إلى هنا، والأفضل لي أنْ أبقى في الخان؛ لتهيئة كل شيءٍ قبل قدومها.

وافقتها، على الرغم من حزني لعدم مرافقتها اليومي في الطريق، ويبدو أنها كانتْ تفضِّل أنْ تكون لوحدها في الطريق، وقلتُ في نفسي: لا بأس، فالأيام القادمة كثيرة.

وفيما كنا سائرين نحو الخان ذلك الصباح المشرق، خطر على بالي الهاتف النقَّال، والذي كانتْ تستخدمه أثناء سيرها، وسألتها:

ـ كيف يمكن لي أنْ أحصل على هاتف نقَّال حديث؟

أجابتني بابتسامة، وقالتْ:

ـ إنَّ هناك محلًا في الحي يبيع بعض الهواتف النقَّالة، وهي غير متأكدة من أنها هواتف حديثة، ويمكنني شراء إحداها منه إنْ أعجبني أيًّا منها.

ثم استدارتْ نحوي، وأردفتْ:

ـ هل تعلم كيفية شراءه وتشغيله؟

كانتْ إجابتي بلا تردد بالنفي، والجهل بالهواتف النقَّالة.

ـ يمكنني أنْ آتي معكَ لشرائه إنْ أحببتَ ذلك.

شكرتها بحرارة، وذهبنا إلى المتجر الذي يبيع الهواتف في الحي، وتجولنا في فاترينة المحل، والتي كانتْ مليئة بعددٍ كبير من هذه الهواتف وبألوانٍ متعددة، ووقفتُ أنظر في حالة جمود وبله وتشويش؛ لعدم علمي تمامًا ما أريد شراءه؟ فجميعها تبدو متشابهة، لا تختلف، ولا يميزها سوى اللون والحجم وغير ذلك، فلا أعلم، وساعدتني رحمة؛ لتنقذني من ورطتي، وقالتْ:

ـ إنَّ كل هاتفٍ نقَّال له عدة مواصفات متميزة، وبأسعار مختلفة كذلك.

وحضر إلى ذهني في تلك اللحظة صورة قريبنا وهاتفه النقَّال المعجزة، وذكرتُ لها المواصفات التي كانتْ في ذلك الهاتف، وقالتْ لي رحمة:

ـ إنه بسعرٍ غالي الثمن، وإنْ كان لدي مال يكفي لشراء ذاك الهاتف.

فكرتُ للحظة أخرى، وقلتُ لها:

ـ نعم لدي.

وأخرجتُ جميع مدخراتي التي كنتُ قد وفرتها من العمل في الخان، وأعطيتها إياها، وذهبنا لشراء الهاتف الذي لم يفارق ذهني منذ أنْ شاهدته لأول مرة في القرية، وأصبح الآن ملكي وبين يدي أداعبه،

وأودُّ الرقص كطفلٍ صغير حصل على لعبته التي طالما اشتاق إليها بجنون... أيقظتني رحمة، وقالتْ لي، وهي تنظر إلي كطفلٍ مسكين:
ـ هل لديكَ أحد لتتصل به؟
ـ الآن لا، أهلي لا يملكون هاتفًا نقَّالًا... وأصدقائي في المدينة، ولا أعلم أرقام هواتفهم لأتصل بهم.
ابتسمتْ رحمة، وقالتْ:
ـ يمكنكَ أنْ تأخذ رقم هاتفي؛ لأتصل بكَ عند الحاجة، والضرورة فقط.

ثم أخذتْ تعلمني كيفية إدخال أرقام الهاتف، والاتصال به، وغلقه، وإضافة الرصيد إليه عندما ينفذ، وكذلك كيف يمكنني استخدام الهاتف لأغراض أخرى، مثل: الكاميرا وسماع الراديو والأغاني، وحتى تصفح الإنترنت عندما يكون هناك تغطية كافية.

وكم كانتْ فرحتي عارمة وشديدة فوق كل وصف ممكن، فأحلامي تتحقق شيئًا فشيئًا، وأنال الأشياء التي طالما رغبتُ بها، ولم تكن أبدًا بمتناول يدي، وغمرني إحساس شديد بالسعادة الكبيرة؛ لامتلاك ما عجزتُ سنين عن تملكه والاستمتاع بما لدي، على الرغم من أني أصبحتُ الآن مفلسًا؛ لأنَّ كل مدخراتي وهبتُها لامتلاك هذا الهاتف الثمين، وقلتُ لنفسي: وما فائدة المال إذا لم أحصل على ما أريده، والمال هو بالتحديد لهذا الغرض فقط.

رجعنا إلى الخان بعد هذا الإنجاز الكبير، وأنا منتشي وكلي حبور وفخر بما أمتلك، وصلنا الخان، وكان الشيخ ينتظر؛ لأننا تأخرنا عليه، وهو يروم الذهاب إلى البلدية؛ لإتمام طلب اللوحة الإعلانية،

وكان بعض الزوار قد قَدِموا بالفعل، وباشرنا على الحال بالعمل بعد اعتذاري، وأنَّ التأخير كان بسببي، ورحل الشيخ بعدها، ومضتْ الأمور في الخان كالمعتاد، إذ استطعنا مداراة التأخير الذي حصل في خدمة الزبائن.

حلَّتْ الظهيرة، وقَدِمَ الشيخ من رحلته إلى البلدية؛ ليخبرنا بأنَّ اللوحة سوف تنصب خلال أيامٍ قليلة بعد أنْ دفع أجورها، وسألته عمَّا سوف يُكتب على اللوحة بالتحديد؟
وأجابني:
ـ اسم الخان، وموقعه بالنسبة للطريق السريع، وبعض الأطباق التي نقدمها، وأوقات العمل فيه.

تفاجأتُ في نفسي كثيرًا، فأنا لا أعلم اسم الخان لحد يومنا هذا، وسألتُ الشيخ:

ـ ما هو اسم الخان؟

ـ إنه يدعى خان السلمان.

ـ آها، لقد سميته على اسم حفيدكَ سلمان.

ـ لا يا صالح، إنه اسم الأمير الذي بُني الخان لأجله ولإحياء ذكراه.. لقد ذكرتُ لكَ القصة ألَّا تذكر ذلك؟.

ـ نعم أذكر ذلك، ولكني لم أكن أعلم اسم الأمير.

ـ يجب أنْ نتهيأ لوصول زوار أكثر إنْ أدَّت لوحة الإعلان هذه واجبها، ودلتْ المسافرين على مكان الخان.

مضتْ أيامٌ قليلة، وأنا مستمتع بهاتفي النقَّال، الذي لا أراه سوى في المساء بعد نفاذ العمل، وأستلقي لكي أتفحصه، وأقرأ التعليمات المرفقة به؛ لأتعرف بنفسي على إمكانيات هذا الهاتف، وكان أول شيء تعلمته، هو أخذ الصور، وبدأتُ آخذ صورًا حولي، ولأماكن العمل، ومجاورات الخان، وكذلك صور لسلمان؛ لأريها لأهلي عندما أزورهم، وخلسة أخذتُ صور رحمة، وهي منهمكة في العمل ولا تعلم بذلك، وكنتُ أخاف أنْ أطلب منها ذلك؛ لأنها قد تمانع وترفض، وأنا لا أودُّ أنْ تأخذ عني فكرة سيئة؛ لأني لا أكن لها سوى المحبة والاحترام، وكنتُ أجلس مع سلمان في المساء أعرفه على الهاتف النقَّال، وهو مثلي لم يكن يعرف ما هو هذا الجهاز الغريب؟ وماذا يمكنه من أنْ يعمل؟ وفيه ألعاب كانتْ تصدر أصواتًا جلبتْ انتباهه بشدة، وبدأ يحاول اللَّعب مع الهاتف، وكنتُ جدًا فرحًا؛ لأنه كان شديد الانتباه لهذه الأصوات التي تصدر عن الهاتف، ويحاول جهده على التركيز واللَّعب، وكذلك أريته كيفية استخدام الكأميرا لأخذ الصور، وإنْ كان تعلُّمه جدًا بطيء، ولكنه أفضل من لا شيء، ومع الوقت سوف يتحسن، وهذا هو أملي في هذا الطفل المسكين.

جاء أحد الأشخاص بعد عدة أيام إلى الخان؛ ليبلغنا بأنه تمَّ نصب لوحة الإعلان المتعاقد عليها، وذهبنا جميعًا لنشاهدها، وكانتْ تبدو لوحة كبيرة جدًا، وبألوانٍ زاهية منتصبة على أعمدة خشبية عالية، تُمكّن جميع مستخدمي الطريق من رؤيتها عن بُعد، ومعرفة مكان الخان، وكيفية الوصول إليه بالتحديد، وقفلنا راجعين مستبشرين بأنَّ

الأيام القادمة، سوف تحمل لنا الكثير من الزوار والمسافرين... وهذا ما تحقق بالفعل، فالعمل ازداد وتيرة وزخم القادمين تصاعد، وعلى الرغم من أننا كنا نعمل لوحدنا، ولكننا كنا قادرين على مجارات هذا الضغط المتزايد، من خلال تجهيز المواد والأطباق في الصباح الباكر قبل قدوم الزوار، ولكنني في كل مساء بعد نهاية العمل، كنتُ أحس بتعبٍ شديد، وأؤي إلى فراشٍ، ولا أملك الوقت الكثير لأقضيه مع هاتفي السحري، وفكرتُ في نفسي أنْ أطلب من الشيخ أنْ يجلب شخصًا آخر لمعونتنا في العمل، ولكني تراجعتُ عن هذه الفكرة، وقلتُ: من الأفضل الانتظار لربما أنَّ هذا الضغط في العمل، قد يكون بشكلٍ مؤقت، أو أني سوف أتعود على هذه الوتيرة العالية من العمل، وتصبح الأمور أهون مستقبلًا.

في مساء أحد الأيام، قَدِمَ إلينا مفتش الشرطة، وكان بعد نهاية العمل، ومغادرة رحمة للخان، وكنتُ أستريح في غرفتي، عندما ناداني الشيخ؛ ليخبرني بقدومه، وخرجتُ للجلوس معهما بجانب الشيخ، وقال المفتش، وهو يوجِّه كلامه للشيخ:

ـ لدي أخبار جيدة جدًا لكَ يا شيخ، لقد وجدنا البضاعة المسروقة العائدة إلى ابنكَ سعد أخيرًا، وأمسكنا بالعصابة المجرمة، والتي قامت بعملية السرقة هذه، وهم الآن في السجن بانتظار المحكمة، وتمَّ نقل البضائع المضبوطة إلى مستودعاتٍ خاصة، وهي من ضمن بضائع مسروقة أخرى تعود لضحايا آخرين، وسوف يتمُّ جردها جميعًا، وإعادتها إلى مالكيها بعد التأكد من عائديتها.

نكس الشيخ وجهه حزنًا، وقال للمفتش:

- دفع ولدي حياته ثمنًا رخيصًا لهذه البضاعة المشؤومة.
- ابنكَ ضحية لهؤلاء المجرمين كحال آخرين سُرقتْ منهم بضائعهم كذلك.
سألتُ المفتش عن كيفية القبض عليهم، ومعرفة عائدية البضائع لسعد... وأجابني:
- عندما تمتْ السرقة، وقام سعد بالبلاغ عنها، وإعطاء تفاصيلها لنا، قامتْ الشرطة بتعميم مواصفاتها على التجار وأصحاب المحال جميعًا، وطلبنا منهم الإبلاغ عن أي بضاعة مشبوه، يتمُّ التداول بها في السوق تطابق تلك المواصفات، وبالفعل حاول أحد أفراد العصابة التصرُّف ببعض هذه المسروقات؛ لحاجتهم الشديدة للمال، وكان لحسن الحظ أنْ عرضوا هذه المسروقات على أحد التجار، الذين لديهم علم بالبضاعة المسروقة، وقام بالتبليغ عليهم، ونصبنا كمينًا لهم على أننا تجار نود شراء باقي البضائع لديهم، أدى إلى اعتقال أفراد العصابة، والتحرز على كافة ما لديهم من المسروقات والتي عثرنا عليها في مخزن كبير يعود إليهم؛ لإخفائها عن النظر.
سأل الشيخ المفتش:
- ماذا سوف تفعلون بالبضائع العائدة لابني سعد؟
- سوف نعيدها إليكَ بعد إنهاء الإجراءات اللازمة، كونكَ الوارث مع ابنه سلمان، ولأنَّ المدينين لابنكَ قد أعفوه من الدين بعد سماع خبر وفاته منتحرًا بسببها، وكذلك ترك ابنكَ دارًا تعود له، وبعض المحال التجارية الفارغة، والتي سوف تؤول جميعها إلى سلمان.
- ماذا سوف أفعل بها؟

ـ يمكنكَ أنْ تبيعها، أو يمكننا أنْ نقيم مزادًا لبيع تلك البضائع، ونسلمكَ مبلغ المال، الذي سوف يجنيه المزاد لكَ ولحفيدكَ سلمان كونكَ الوصي عليه حاليًا، إنها بضاعة كبيرة وعائدها سوف يكون جيدًا، ويساعدكَ في ترتيب أموركَ، وأمور سلمان حفيدكَ مستقبلًا.

ـ ألَا يجب إعطاء حصة من المال المتبقي لزوجته السابقة؛ لأنها كانتْ على ذمته وقت السرقة، ويجب إعطاؤها حقها القانوني؟ (سأل الشيخ مفتش الشرطة)

ـ لا يا شيخ.. لا يمكن إعطاؤها أي حصة من المال المعاد، أو أي من العقارات المتبقية؛ لأنَّ زوجته السابقة متهمة بتدبير السرقة إياها، والتعاون مع أفراد العصابة، وإمدادهم بالمعلومات عن قيمة، ومكان تواجد تلك البضاعة، وهي الآن قيد الحجز لاستكمال التحقيق معها، وبانتظار المحاكمة مع باقي أفراد العصابة بعد اعترافها بخط يدها، وكذلك تعرُّف أفراد العصابة عليها.

ـ ماذا تقول يا سيدي؟ لماذا قامتْ بهذا العمل الإجرامي؟ ولماذا تؤذي ابني وهو زوجها؟ هل أنتَ متأكد مما تقوله؟ (سأل الشيخ بمرارة، وشجن، وبذهولٍ غير مصدق)

ـ نعم نحن متأكدون جدًا، وكما قلتُ لكَ، لقد اعترفتْ هي بنفسها بعد أنْ واجهناها بالمستندات، وبأفراد العصابة، ولكن لا يمكنني الآن إجابتكَ على سؤالكَ لماذا فعلتْ هذا بزوجها؟ لأنها لا تزال قيد التحقيق، ولا يمكن البت بهذه الأمور بشكلٍ نهائي، وبصورة قاطعة إلى أنْ نجد كل حلقات الجريمة، ولا يزال بعضها مفقودًا، ولم تكتمل الصورة بعد لدينا، واجبنا الآن إيجاد جميع المتهمين في تلك القضية واستكمال الصورة بشكلٍ نهائي لعرضها على المحكمة.

سأل الشيخ، وكأنه ما يزال غير مصدق، ومصدوم من سماعه ما يقوله المفتش:

ـ هل أنتَ متأكد يا بني؟ كيف عرفتم أنها متورطة بهذا الشكل مع العصابة؟.. أخبرني أرجوكَ.

ـ عند إلقاء القبض على أفراد العصابة، وبعد التحقيق المشدد معهم، تساقطتْ اعترافاتهم وأقروا بسرقاتهم تلك، وذكروا كذلك أنَّ زوجة ابنكَ هي مَنْ اتصل بهم، وحرضهم على سرقة البضائع عن طريق شخص ثالث؛ لا يزال لحد الآن طليقًا، ولم يتم إلقاء القبض عليه لحد الآن، وبأنهم أخذوا كافة المعلومات المتعلقة بالبضائع من زوجته السابقة، وعند تفتيش المخزن المحتوي على المسروقات بدقة، وجدنا وثائق ومستندات احتفظ أفراد العصابة بها، وهي عائدة لابنكَ سعد، وتحمل تواصيف البضائع، وكذلك وقت ومكان وصولها، وكيفية استلامها، وهذه الوثائق المفترض تواجدها مع سعد، ولم تكن مع البضائع، وبالتالي كان هناك سرقة وثائق سبقتْ سرقة البضائع نفسها، وعند السؤال عنها لدى أفراد العصابة، اعترفوا بتلقيهم إياها من زوجته السابقة، وأنهم أبقوها واحتفظوا بها لخوفهم من غدرها، وقد يسلمون الوثائق للشرطة لإثبات تورطها بأمر البضائع المسروقة، والتي تمتْ بناءً على طلبها عند حاجتهم لذلك. الغريب في الأمر أنَّ ابنكَ سعد لم يبلغ عن سرقة تلك الوثائق منه؛ ربما لاعتقاده أنها قد ضاعتْ منه، أو نسيها في مكانٍ ما.

ثم أكمل مفتش الشرطة كلامه للشيخ:

ـ كما أوضحتُ، فإنَّ هناك بعض الحلقات المفقودة، التي نحن لا نزال بصدد إيجادها، وبالتحديد الشخص الذي كان حلقة الوصل بين العصابة وزوجة ابنكَ، وسوف أمرُّ عليكَ لاحقًا لأخبرك عن مصير بيع البضائع في المزاد، وكيفية تسلمكَ للنقود المردودة منها، وأرجو عدم نشر هذه التفاصيل وإبقائها طي الكتمان؛ لأننا لا نزال في طور التحقيق، وعند استكمال القضية سوف ندعوكَ للحضور للمحكمة، إنْ أردتَ لمتابعة إجراءات القضاء والحكم عليهم بالقصاص العادل.

ثم نهض المفتش، وودَّعنا، ورحل، وبقيتُ جالسًا بجانب الشيخ، أحاول هضم وفهم ما سمعته للتو، وما جرى لولد الشيخ سعد من خيانة من أقرب الناس إليه، ألَا وهي زوجته أم ولده ورفيقة حياته ودربه، وأدت إلى نهايته تلك المريرة.

كانتْ الصدمة كبيرة ومهولة على الجميع، وحتى كوني لا أعرف سعد شخصيًا، ولم أقابله أبدًا في حياتي، أحسستُ بالحزن الشديد بداخلي عند استماعي للمفتش، وكيفية وصفه لتفاصيل ما حدث، وفكرتُ في نفسي: ماذا يمكن أنْ يكون المبرر لخيانة رفيق الحياة المال أم الطمع؟

فكرتُ بأي احتمال، ولم أجده مقنعًا، ولم أجد أي سبب يبرر أنْ تخون زوجته له بهذه الطريقة، ولماذا تحطم حياته بهذا الشكل الإجرامي؟ ربما يأتي المفتش بسببٍ مقنع لم يخطر على بالي، ولكني كنتُ أشك كثيرًا بأني سوف أجد أي سبب يأتي به يبرر أي خيانة من هذا القبيل، ولكنْ خطر على بالي كم كانتْ قاسية عليه

وبلا رحمة، وتركته بعد أنْ تمتْ سرقته وتحطيمه بهذا الشكل، وطلبتْ الطلاق منه، وتركتْ كذلك ابنها الوحيد له؛ ليعاني أكثر وأشد مما هو عليه، هل هي شريرة لهذا الحد الرهيب، أم أنها مخدوعة ومدفوعة؟.

كان الانهماك في العمل وسيلة لتناسي بعض الهموم، وشدة التعب تغني عن التفكير العميق، وذلك كان أفضل علاج لأحزان الشيخ ونفسه الكليلة، والذي انهمك معنا في العمل لزيادة عدد الزوار القادمين إلى الخان، وتناسى همومه الكثيرة، وجعله أكثر نشاطًا وأكثر همة ومشاركة في إعداد الطعام، وكذلك في استقبال الزوار والتحدُّث إليهم، وتبادل الطُرف والهموم والقصص، والاستماع إلى أخبار عن أناسٍ؛ حتى وإنْ لم يكن يعرفهم، إلا أنَّ الحديث عن الآخرين يبعد الفكر عن التفكير في الهموم الشخصية، وعن المتاعب، والأحزان اليومية التي تعتصر القلب، ومخالطة الناس هو أفضل علاج أحيانًا، وهذا ما كان يمارسه يوميًا وكذلك أنا.. وعلى الرغم من أنَّ القادمين غرباء إلَّا أنَّ عندما يتحدثون عن همومهم، ومشاكلهم كنا نجد قواسم مشتركة، وقصص مألوفة، وتصبح الإنسانية عاملًا مشتركًا في جميع جوانب المحادثة التي تدور يوميًا مع الغرباء، الذين ازداد قدومهم باضطرادٍ كنتيجة إيجابية لنصب لوحة الإعلان الكبير على الطريق السريع، وكذلك لجودة أطباق الطعام التي كنا نقدمها.. وطبعًا هذا الاستنتاج كان من كلامهم وإطرائهم اليومي، والفضل بالتأكيد يعود إلى رحمة بشكلٍ رئيسي، والتي كانتْ تعمل بكل جد وهمة في إعداد أنواع الطعام اللذيذ للزوار، وتعاملها اللطيف معهم، وكنتُ أقول للشيخ:

ـ ماذا نفعل إنْ تركتنا رحمة، فقد أصبحنا معتمدين عليها في تحضير تلك الأطباق؟

وكان رده لي أني يجب أنْ أتعلم منها كل شيءٍ ضمانًا للمستقبل وفائدةً لي.

وهذا ما كنتُ أمارسه فعليًا وبشكلٍ يومي بالقرب منها، وأتعلم الكثير مما تصنع، وأحاول جاهدًا أنْ أكون تلميذها النابه، وأكتم شعوري تجاهها؛ لأني أحسستُ من مدة بعدم إبدائها أي مشاعر تجاهي، وأي اهتمام يذكر بي، وقد يكون لها الحق، فهي فتاة مثقفة، وذكية، وتعمل بكل مهارة، ومعتمدة على نفسها، ولكنَّ الأهم هو أنَّ لها خبرة مريرة، وتجربة قاسية في الحياة من قِبل شخص أحبته، وأصبحتْ شريكة حياته، وانتهتْ بشكلٍ حزين لها، مع أنها غير مذنبة لما جرى ـ كما ذكر لي الشيخ ـ وقد يكون هذا الفشل سببًا في جعلها أكثر برودًا وأقل تجاوبًا تجاه أحاسيس من الشخص المقابل أيًا كان، وقد تكون أكثر حرصًا على عدم تكرار المواجع والأحزان لها، وأضحتْ أقل ثقة بالجنس البشري، وهذه نتيجة طبيعية لكل نهاية تتسم بالفشل الذريع، وقد تحتاج رحمة إلى الزمن ربما لتدرك أنْ ليس كل الناس متشابهين بالقيم التي يحملونها، وليس جميعهم مطاوعين لأعرافٍ بالية توارثتْ لأجيالٍ، ولم يجهدوا أنفسهم بالسؤال إنْ كانتْ هذه القيم صالحة لا تزال لوقتنا هذا، وهل هي أهم مما يحسه الإنسان من حبٍّ ومشاعر في داخله؟ وهل يمكن أنْ يُقتل الحبُّ وينتهي أثره بكل بساطة وبكل تجرُّد من الإنسانية، فقط لإرضاء أهواء المتزمتين ومعتقدات الغير اللا مبالي، وغير المكترث لما تكنه في دواخل النفس؟.



الفصل التاسع

كان زوار الخان يَقدِمون من كل صوبٍ ومن كل مكان من أرجاء البلاد، وجميل أنْ تلتقي الكثير من الناس وتتعرف إليهم وتسمع أخبارهم المتنوعة... وكان معظم القادمين من عامة الناس من متوسطي الحال، وكان البعض منهم يستقلون سيارات أجرة للترحال، وآخرون يستقلون شاحنات النقل ولوريات التحميل، ومعظم هذه العربات والتي كانتْ تتوقف في مرآب الخان، هي من أنواع قديمة والبعض منها متهالك، يتصاعد الدخان من عوادمها، وبالكاد يمكّنها من الدفع والسير، ولم أرَ طيلة تواجدي في الخان أي عربة حديثة تتوقف في مرآبه؛ لأستمتع برؤياها، وأسأل سائقها عن مناقب ومواصفات تلك العربة الخيالية... ولكنْ كم كانتْ مفاجأتنا كبيرة عندما قَدِمَتْ عدة مركبات في آنِ واحد إلى الخان عند ظهيرة أحد الأيام بعد أسابيع من تشييد اللوحة الإعلانية على الطريق السريع، وكانتْ جميعها تبدو سيارات فاخرة وحديثة جدًا، تدل على سعة الثراء ورفعة الجاه والمقام، وهذا الشيء لم نتعوده هنا أبدًا، ولم يمر بنا من قبل عربات بمثل هذه الفخامة، وحتى رؤيتها تحت ضياء الشمس يؤذي العين؛ لشدة لمعانها ونظافتها، ولذلك دهشنا كثيرًا، وتسمرتْ أعيننا على زجاج النوافذ، نتابع مجريات هذا

الحدث الكبير النادر الحدوث، وتساءلنا: عسى مَنْ يكونون هؤلاء القادمين؟ وهل ضلوا طريقهم وجاءوا إلى هنا بالخطأ؟

لا أعتقد أنَّ مثل هذه العربات يمكنها أنْ تعطل، ولا أظن أنهم يودون إضافة غبار المكان إلى عرباتهم الرائعة، لابد أنهم أحسوا بالضجر من كل شيءٍ جميل حولهم، وأتوا إلى هنا لغرض التغيير، لا أدري، ولكنْ لم يطل الانتظار كثيرًا حيث ترجل بضع من الركاب من سياراتهم تلك الفخمة، وبدأوا في التجوال حول المكان، وكانوا يرتدون ملابس فاخرة، وتبدو كل مراسم النبل والثراء الفاحش على محيأهم وتصرفاتهم، وبدأوا يتكلمون فيما بينهم، ويشيرون باتجاه الخان، وكأنهم يناقشون موضوعًا ما، وقلتُ:

ـ هل تعرفهم يا شيخ؟

ـ لا ولم أرَهم من قبل. (أجابني، وظلتْ علامات السؤال والحيرة، هي سيِّدة الموقف)

وأردفَ بالكلام:

ـ أتمنى أنْ يكون ذلك خيرًا.

نظرنا إليه بتعجبٍ، وكان الشيخ غير مرتاح لهذه الزيارة المفاجئة لناس لا يعرفهم، وهم يتجولون حول الخان، ثم قَدِمَ أحد الأشخاص منهم إلى الخان، وقال بعد التحية:

ـ مَنْ المسؤول عن هذا الخان؟

أجابه الشيخ على الحال:

ـ أنا يا بني. ماذا تطلب؟

ـ لستُ أنا مَنْ يطلبكَ، بل سمو الأميرة هبة، التي تود التحدُّث إليكَ.

قالها بأدبٍ، وأشار إلى فتاة أنيقة الهندام وأقفة وسط فناء الخان الخارجي، ومحاطة بعددٍ من المرافقين والأشخاص، الذين يبدو عليهم الرفعة، والأناقة كذلك، وعلو الشأن، وخرجنا جميعًا بسرعة مذهولين؛ لهذه الزيارة الغير متوقعة، ولنحي سمو الأميرة، والتي بادرتْ بسؤال الشيخ بعد أنْ أشار إليه مرافقها:

ـ كيف حالكَ يا شيخ؟

ـ أنا بخير يا معالي سمو الأميرة.

ـ كيف حال الخان؟ هل لا يزال يعمل على استقبال الزوار؟

ـ إنه بخير كذلك، ويزوره الكثير من المسافرين يا سمو الأميرة، تفضلي نقدِّم لكِ ما تودين من مشروب أي شيء تحبين من الخان.

ضحكتْ، وأحسستُ بنوعٍ من الاستهزاء في جوابها:

ـ أشكركَ يا شيخ.. هل أنتَ هنا من زمان؟

ـ نعم أنا أعمل هنا منذ أنْ كنتُ فتى، وكان أبي يعمل هنا من قبلي على إدارة الخان.

ـ أنا لم أعرفك بنفسي.. أنا الأميرة هبة حفيدة المرحوم الأمير سلمان، والمرحومة الأميرة خالدة زوجته، والتي بنتْ هذا الخان وفاءً لطيب ذكرى جدي بعد وفاته هنا.

ـ أهلًا وسهلًا يا سمو الأميرة، لقد تشرف الخان، وأهل الخان بزيارتكِ الموقرة هذا اليوم.

ثم استدار الشيخ، وأشار إلينا، وأردفَ بالقول:

ـ هذا صالح، وهذه رحمة، وهما يعملان هنا في الخان.

ألقينا التحية على سمو الأميرة، والتي أجابت باحناء رأس بسيطة، ثم بدأتْ تنظر حولها، بعدها قالتْ للشيخ:

ـ أيمكن أنْ نزور الخان؟

ـ بالطبع يا سمو الأميرة، تفضلي.

وبدأ الشيخ يرافق الأميرة إلى داخل الخان؛ للتجوال فيه، وتعريفها على جوانب المكان، ثم وقفتْ في منتصف الصالة، وقالتْ للشيخ:

ـ كنا سائرين على الطريق السريع، ولاحظنا اللوحة الإعلانية الكبيرة على جانب الطريق، وذكر لي أحد المرافقين الكثير عن قصة الخان، وتاريخه، وكيف بني؟ وأصريتُ بعدها على زيارته، والتعرُّف على المكان، الذي تحوَّل كثيرًا عمَّا كان في السابق ـ كما ذكروا لي.

ثم أكملتْ حديثها، وقالتْ:

ـ كان جدي يأتي إلى هنا كثيرًا في الماضي، ويمضي أوقاته في الراحة، وممارسة هواية الصيد، وتنظيم ليالي الشعر والأدب، وقد أثرتْ فيما كانتْ جدتي تكن من حبٍّ وتفاني لجدي، ومثل هذا الحب أصبح من النوادر، والخرافات في مثل هذا الزمان.

ثم أكملتْ تجوالها نواحي المكان لتطلع عليه، وخرجتْ إلى الخارج، وقالتْ للشيخ:

ـ أنتم فقط مَنْ يعمل هنا؟

ـ نعم يا سيادة الأميرة نحن الثلاثة فقط.

ـ يبدو الخان في حالٍ مزري جدًا، ومتهالك البناء، ويفتقد الصيانة والرعاية، لماذا لم يتم الاعتناء به، وترك مهملًا كل هذا الوقت بلا صيانة أو تعمير؟.

ـ توقفتْ المعونات يا سمو الأميرة، والتي كانتْ توهب من قِبل القصر الأميري منذ زمانٍ بعيد؛ للاعتناء بالخان، ولم يعد أحد من قِبل سموكم، يشرف على صيانته والعناية به، أو حتى السؤال عنه.

ـ أنا أودُّ أنْ أُحي هذا الخان، وأُعيده إلى سابق عهده فخمًا كما كان، وأودُّ أنْ أُقيم مهرجان شعري وأدبي تخليدًا لذكرى جدي في هذا المكان، وأودُّ أنْ يكون ناجحًا ورائعًا، وسوف أدعو الكثيرين من الأدباء لحضور هذا المهرجان الكبير، وأودُّ أنْ يتمَّ نصب الخيم الكبيرة هنا في الفناء الخارجي ـ كما كان جدي يفعل في السابق، وستقومون بواجبكم في خدمة الحضور، وأنا سوف أُرسل خدمًا من القصر؛ ليعينوكم كونكم غير قادرين على ذلك لوحدكم، وكذلك سوف أُرسل الطعام الذي يتوجب تقديمه للحضور، وقبل ذلك عهدتُ إلى المهندس بإرسال بعض العمال لإجراء الترميمات، وإعادة الحياة للخان؛ ليظهر بشكلٍ لائق ونظيف وفخم، وإنْ لاقى هذا المهرجان نجاحًا؛ كما أتوقع؛ سيكون تنظيمه في المستقبل بشكلٍ دوري، وسوف نأتي إلى هنا بشكلٍ مستمر، ونحتفي بذكرى جدي الأمير سلمان على الدوام.

ثم أردفتْ بعد برهة ألقتْ فيها نظرة أخيرة على الخان:

ـ أشكركَ يا شيخ على رعايتكَ ولو البسيطة للخان، وأظن لولا اهتمامكَ لكان هذا الخان قد اندثر من زمان وزال، ولكانتْ ذكرى جدي وجدتي قد اضمحلتْ ومحيتْ مع الزمان.

استقلتْ سيارتها بعد أنْ ودعتنا، ورحل الجميع، وعدنا إلى الخان نقلّب في رؤوسنا عن مغزى زيارة الأميرة المفاجئة هذه، وعن الأمسية الشعرية المترقبة والمزمع إقامتها وعن التدابير التي سوف تقوم بها الأميرة لإحياء الخان وذكرى جدها الأمير سلمان، وكانتْ تبدو لي أنها أخبار جيدة بل ممتازة، وبالأخص لكون المكان سوف يُجدد ويُرمم، ويكثر بالتالي زخم القادمين من المسافرين، ومن الفضوليين كذلك، وهذا أسعد خبر لازدهار العمل هنا في الخان، وازدياد أجور العمل فيه، وأقصد أجوري لأقدر أنْ أدخر مزيدًا من المال.

سألتُ الشيخ: عن رأيه بما جرى؟

وأجابني:

ـ إنه يبدو خبرًا سارًا جدًا، ويبدو أنَّ لوحة الإعلان، أدت دورها بشكلٍ ممتاز، وجلبتْ العائلة المالكة إلى هذا المكان المنسي والمهجور والمهمل منذ زمنٍ بعيد، ولا أذكر يومًا ما من قبل مرَّ بنا أي أمير أو صاحب سمو أو أي شخص نبيل وذي مقامٍ عالٍ، يبدو أنَّ المدن قد ضاقتْ بهم وبدأوا يبحثون في الجوار وفي وسيع الأرض عن مكانٍ جديد.

أردفتُ بالقول:

ـ إنها لأول مرة في حياتي أرى أميرة بهذا الحسن، وهذا الجمال والأناقة، كانتْ رائعة الجمال حقيقةً، وسحنةً، وجهها نظيف وصقيل كأنها لم ترَ ضياء الشمس في حياتها، وأنا في الحقيقة لم أرَ في حياتي أي شخص من العائلة المالكة أو من الأمراء، لكنهم يبدون

مثلنا أناسًا اعتياديين، والذي يميزهم عنا فقط، هي ملابسهم الفاخرة، وعرباتهم الفخمة، ومرافقيهم، ومخدوميهم الكثر، وبالطبع أصلهم النبيل، وجمالهم الخلاب، ولكنْ قلْ لي يا شيخ: ما هو هذا المهرجان الشعري والأدبي؟ وماذا يفعلون في المهرجان عادة؟

- يا صالح لا أعلم بالضبط ماذا سوف يفعلون في هذا المهرجان الموعود، ولكنْ ما أعرفه أنَّ بعض الناس يقدِم للجلوس والاستماع إلى قصائد وشعر، وما شابه من مؤلفات لأدباء وشعراء، ويختارون أجود القصائد، وأكثرها مدحًا للعائلة المالكة لإعطائه جائزة أو هدية تقديرًا لجهده الذي بذله، وينتهي الأمر عند ذاك، وأعتقد أنَّ هذا ما سيجري هنا إلّا إذا كان لهم فكرة أخرى، ولكنَّ الغريب أنَّ الأميرة لم تذكر متى يبدأ هذا المهرجان الموعود؟.

- ربما قريبًا جدًا.

أجبتُ الشيخ متمنيًا بشدة، وأكملتُ الحديث مخاطبًا رحمة:

- ما رأيكِ بهذه الأخبار؟

أجابتْ رحمة، التي كانتْ سعيدة جدًا بهذا التطوُّر المفاجئ اللامتوقع، وقالتْ:

- إنها أخبار جيدة جدًا، وسوف تجلب الشهرة للخان والحي كذلك، وسوف تتعرف علينا الناس في أقاصي البلاد، وكثيرون سوف يُقدِمون لهذه الأنحاء للمشاركة في المهرجان، أو للاطلاع على ما يجري في هذه الأنحاء.. يجب أنْ أخبر أهل الحي بذلك؛ لكي يتهيؤا ويعدوا أنفسهم؛ لاستقبال القادمين الجدد، وتنظيف الحي، وإظهاره بصورة أفضل، وبمظهرٍ لائق بمقام الأمراء، الذين سوف يحلون هنا في الجوار، وربما يزورون الحي كذلك.

ثم استأذنت رحمة، ورحلتْ تهرول إلى الحي، وأظن أنَّ والدها أول مَنْ سوف يتمُّ إبلاغه بهذه الأخبار السعيدة، ومن الضروري أنْ يهيأ نفسه كذلك، ومتجره لهذه المناسبة العظيمة، ويبدأ بإحصاء المردود المتوقع وكم سيجني، وكيف سوف يستفيد من حضور هذا الجمهور إلى هنا... حسابات التجار تختلف عن الحسابات الإنسانية، وهذا ما طالعته على وجه الشيخ، الذي كان يبدو متجهمًا وعابسًا، وكانتْ هذه الأخبار لها تفسير آخر لديه، وسألته عمَّا يقلقه:

- يا شيخ تبدو غير متحمس، وغير مسرور لما سمعناه من الأميرة.. هل لكَ هواجس أو تخوف من أي شيء؟.

- يا بني، لقد انفتحتْ العيون علينا، وأصبحنا ضمن الأجندة الملكية، وأضحى الخان مشروع أميري، وسوف يصبح بؤرة اهتمام من قِبل جميع الطفيليين المحيطين بسموها، والكل الآن يود أنْ يكون محلنا هنا لاستجداء خيرها وعطفها والظفر برضا سموها، وسوف يتوافد الطامعون والمستجدون، والكل يريد القضمة الكبرى منها.. أنا لا أودُّ أنْ أُقلقكَ، ولكنْ لا تستغرب كثيرًا إنْ تمَّ استبدالنا، وإحلال محلنا مَنْ هم محل ثقة الأميرة في هذا المكان لإدارته مستقبلًا وفقًا لإرادتها.

- لكنْ يا شيخ، لقد قضيتُ عمركَ في العمل هنا، وكذلك والدكَ من قبلكَ خدم وقتًا طويلًا هنا في الخان، لا أعتقد أنها سوف تستغني عنكَ بمثل هذه السهولة التي تتخيلها.

- يا صالح، أنا شيخ مسن، وأصبحتُ غير قادرٍ على خدمة هذا الخان كالسابق، وقد أصبح الآن مركزًا ثقافيًا مهمًا ومقرًا للمهرجان

برعاية أميرية، وقد يحيلوني إلى التقاعد، ويجدون مَنْ يحل محلي، ولكنَّ هذا غير مهم، والمهم عندي هو سلمان، وأنتَ يا صالح كذلك، يجب أنْ أجد لي ولحفيدي مأوىً جديدًا في حال خروجنا من هنا، وأنتَ يجب أنْ تكون مخلصًا في العمل، ولبقًا في الكلام، ومطيعًا لهم ومتفاني؛ لتبقى في الخدمة هنا طبعًا إنْ أردتَ ذلك، وأنا أظن أنه قد يكون لكَ مستقبل أفضل هنا إنْ ناسبكَ العمل، وتناسيتَ وغضضتَ الطرف عن الرحيل إلى المدينة؛ لأني أعلم أنه حلمكَ وهدفكَ، ولا أعلم ما هي الآن أحلامكَ وإنْ لا تزال كما هي على حالها أم أنها تغيرتْ مع الوقت؟.

ـ أنا جدًا سعيد بالعمل، والبقاء هنا، ولكني لا أقدر على فراقكما أنتَ وسلمان، لقدأصبحتما عائلتي هنا.

ثم أردفتُ بعد نفسٍ عميق:

ـ صحيح أني تركتُ أهلي، وهجرتُ أرضي، وعملي في سبيل أحلامي، التي لم أحققها كلها لحد الآن، ولكني وجدتُ هنا الكثير، وأسرني تواجدي في الخان، وأصبحتُ أحسُّ بالانتماء إلى كل أركان هذا المكان، وتغيَّرتْ بعض أفكاري وانطباعاتي عن المدينة جراء ما سمعتْ، وأصبحتُ أكثر توجسًا من الذهاب إلى هناك، وإنْ كان لي خير وفائدة، فأنا أودُّ البقاء هنا في الخان.

ـ طيب يا بني فما علينا سوى الانتظار، والترقب لما سوف يحل بالخان وبأهله.

بعد مجيء وزيارة الأميرة المفاجئة للخان بيومين بالتحديد، بدأ توافد عمال البناء والمهندسين المشرفين على العمل، وبدأوا بتجهيز مواد البناء والتهيئة للعمل ونصب السقالات على واجهة الخان، وانتشر العمال كخلية النحل تعمل حول الخان بهمة شديدة، وبدأوا بترميم السقوف المعطوبة وصبغ القبة المتهالكة، ومن بعدها الجدران والأقواس التي عفا عنها الزمن، واستبدال أي شيء كان مهترئًا أو تالفًا من الحجر أو من النوافذ والشبابيك المتهالكة، وكذلك رمّ أرضيات الخان واستبدال البلاط القديم المكسر، وتقويم الأبواب واستبدالها بأخرى جديدة، وطلاء الأعمدة الخشبية، وصبغ جوانب الرواق، وترميم واستبدال الفسيفساء المتضرر بآخر جديد ومُحلّى بنقوشٍ رائعة من الورد والأزهار، وإبدال الإنارة المتدلية كحبال المشنقة بأخرى حديثة وملتصقة بالسقوف، وإضافة حوامل المصابيح، والشمعدان الباهظة الثمن وبديعة التصميم، والتي تحوي الكثير من المصابيح، وجعل المكان مبهرًا ومفعمًا بالضياء، وقاموا حتى بالتنظيف وإزالة جميع الأوساخ وما تراكم من سنين من قمامة داخل الخان وخارجه، وأعدوا الأرض الممتدة إلى جانب الخان بتسويتها وتعبيدها، وقلع الدغل والأحراش المنتشرة حول المكان وعلى جوانب أرض الخان، واستبدالها وزرع أشجار جديدة، وشجيرات زاهية، وزهور، وترتيبها بشكلٍ هندسي ونظامي جديد على أشكالٍ هندسية من دوائر، ومربعات تحوي كل منها على أنواع مختلفة من الأزهار البديعة الجمال، وأضحى الخان يزهو بحلّته الجديدة في غضون أيام قليلة لا تتجاوز الخمسة أيام، أنجزوا

فيها كل هذا الإعجاز من العمل، وأصبح الخان يبدو كأحد القصور الجميلة الممتعة للنظر بعد أنْ كان مهملًا ومنسيًا على مدى عقود من الزمن، ومتهالك البنيان من شدة الإهمال، ولم أُصدق كيف أمكنهم إنجاز كل ذلك في مثل هذا الوقت القصير؟ وكانوا كثرة من العمال، وعملنا على خدمتهم طوال هذه الأيام، ولم يسمحوا بقدوم أيًّا من المسافرين والزوار والكثير من الفضوليين إلى الخان، الذي خلا إلَّا من العمال أنفسهم.

ثم جاء اليوم السادس، وبدأوا بجلب الخيم الكبيرة، ونصبها بتراص على الأرض بجانب الخان، وشدَّتْ بأوتادٍ مثبتة على الأرض بقوة، وأضحتْ كالفسطاط الكبير، وكانتْ تبدو جميلة جدًا زاهية الألوان والنقوش التي تطرزها، ولم أرَ في حياتي خيمًا بهذا الحجم وهذه الألوان الجميلة، وجهزتْ في فضائها الداخلي بالإنارة الكثيفة، وكسيتْ أرضياتها بالسجاد الزاهي الألوان، والغالي الثمن على ما يبدو، وحتى المداخل المزركشة كسيتْ بالبساط، وفرشتْ الخيم بالكراسي، وعلقتْ الأنوار المنصبة عليها، وامتلأ المكان بالعديد من الكنبات العريضة الوثيرة، والمزخرفة على جوانبها الخشبية بألوانٍ من ماء الذهب، وتدل على علو سمو، ونبل مقام الضيوف المقبلين، وانتشرتْ الآواني الذهبية وزهريات الفضة الممتلئة بالورد من نرجسٍ وقرنفل واقحوان في كل جوانب وأركان المكان، ووضعتْ على طاولات مزخرفة ومنقوشة بألوان الذهب كذلك، ومرصعة ومزينة بأحجار كريمة، وارتفعتْ الرايات والأعلام على قمم الخيام والأعمدة، وحتى على أسطح الخان وعلى قبته، وظهر

المكان وكأنه جزء من الأحلام، وكقصر من قصور ألف ليلة وليلة، ووضع حراس في كل مكان، ومُنع القادمون من الزوار تمامًا من الدخول إلى الخان، وتوقف العمل تمامًا فيه، وكانتْ الحجة أنه يجب المحافظة على المكان إلى ما بعد انتهاء المهرجان؛ للأمان، وللحفاظ على الممتلكات الأميرية، ولم يسمح لأحد بالدخول، والخروج، فقط نحن سكان الخان الضائعين وسط هذه الجلبة، وزعيق العاملين في الخيم من المخدومين، الذين أتوا للعمل وقت المهرجان، وبدأوا بإعداد الصواني والموائد والأطباق، وجلبوا كل ما هو غالي وثمين من أطقم وأدوات المائدة، وفرشتْ الطاولات بشراشف بيضاء ناصعة كالثلج، وتحمل نقوشًا لأزهار الزنبق، ووضعتْ الأطباق الفضية عليها، وكذلك زهريات الورد بكل الألوان الزاهية، وممتلئة بالسوسن وشقائق النعمان، ونُصبتْ أعمدة مذهبة عالية تحمل جمرات من النار، وضعتْ في أركان الخيم وبجانب المداخل والممرات، وبدأ الطُهاة منذ الصباح الباكر بإعداد وتهيئة الطعام في خيمة مجاورة أُعدتْ لهذا الغرض، وكذلك لأنَّ مطبخ الخان كان صغيرًا ولا يستوعب هذا الكم الكبير من الطعام الواجب إعداده للضيوف الكرام، ونُصبتْ خيمة أصغر من الباقي على أحد الجوانب، كانتْ لاستراحة الأميرة ـ كما قيل ـ ولم يكن في وسعنا رؤية أي شيء في داخل الخيمة بعد الانتهاء من العمل، وجمهرة الحراس حولها تحوطها تمنع كل دخيل أو متطفل أو مختلس للنظر، وحتى نحن قُصرتْ حركتنا في الخان فقط، ولم يسمح لنا بالتجوال في نواحي الخيم ودواخلها، وحتى رحمة لم

يسمح لها بالمجيء إلى الخان في الصباح، وأعطوها إجازة مدفوعة الثمن لحين اختتام فاعليات المهرجان.

جلستُ مع الشيخ نتبادل الحديث، حيث لا عمل لنا سوى الكلام، ومضغ آخر أخبار الأميرة، وحاشيتها، وحكاية المهرجان المفاجئ، وهبوطه علينا الصاعق:

- يا شيخ يبدو الخان الآن بعد كل هذا العمران كقصرٍ منيف وسط البادية، يذكّرني بقصة قرأتها عن قصر الخورنق للنعمان في قديم الزمان.

- ألَا تبالغ بعض الشيء يا صالح؟

ثم أردفَ الشيخ بالقول:

- صحيح أنا لم أرَه من قبل بمثل هذه النظافة والجمال، وبمثل هذا الاهتمام والاعتناء من قِبل الحكام وحتى الناس، يبدو أنه في مساء اليوم سوف يكون المهرجان الموعود، وسوف يفد الناس إلى هنا من كل صوبٍ وبقاع.

- نعم يا شيخ أظن ذلك؛ لأنهم يعدون الطعام والشراب، ولم يسمحوا لي بالعمل معهم، وبالاطلاع على طرق الطهي، ولا حتى المشاركة في تقديم الطعام، وها هم ينقلون آواني مذهبة ممتلئة بحلو الطعام إلى داخل الخيام.

- نعم وأرى هناك عديد من العربات قادمة للخان محملة على ما يبدو بالعديد من الضيوف.

- لكنَّ ما يحيرني يا شيخ كيف استطاعتْ الأميرة التهيئة بهذه السرعة للمهرجان، وبهذه العجلة المثيرة للدهشة؟.

ـ يا بني هنا في هذه البلاد عندما تكون حاكمًا تقول للشيء كن فيكون، وتحقيق الأمنيات لهم أسهل من شرب الماء لكَ، وهي فقط أعطتْ أمرها، ولم تهيئ أي شيء.

ـ لكنْ كيف استطاع الشعراء إعداد وإتمام القصائد المطلوبة، والتي المفترض أنها سوف تلقى اليوم في المهرجان في خلال هذه الفسحة القصيرة جدًا من الوقت المتوفر لهم؟

ـ هؤلاء الشعراء، هم ناس متمكنون في اللغة، وهم دومًا جاهزون لهذه المناسبات، وتمرنوا على نظم الشعر لمدة طويلة، وأظن أنَّ لكثرة المهرجانات الشعرية في البلاد، وتعددها على مدار السنة من كثرة المحتفين بهم، فإنهم إما أنْ يعيدوا قراءة قصائدهم القديمة مع بعض التعديلات تتناسب مع الشخصية المحتفى بها؛ لضيق الوقت، أو أنهم يبدعون ويؤلفون شيئًا جديدًا، وكل ما يحتاجون هو يراع وبردى ومخيلة خصبة مليئة بكلمات المدح والإطراء المبالغ فيه، والخيالي وغير المطابق للواقع.. وهذا هو حال الشعراء في كل الأزمان.

بينما نحن جالسون نتبادل الحديث أنا والشيخ قَدِمَ إلينا أحد مرافقي الأميرة، وقال لنا:

ـ سوف تحضر إلى الخان في وقتٍ قريب فرقة عزف موسيقية، ومعهم فنانات، وسوف يرتاحون هنا في الصالة في انتظار وصلتهم الغنائية، وتحتاج الفنانات إحدى الغرف لتغيير الملابس، فإذا أمكن أنْ تعد لهم ما يودون.

وكان ردنا عليه بالإيجاب، وسوف نقوم بالواجب.

ورحل مرافق الأميرة، ونظرتُ إلى الشيخ، وسألته:
- يبدو أنَّ اللَّيلة سوف تكون حافلة، وممتعة، ومليئة بالمفاجآت.
- بالتأكيد سوف يحتاجون ما يمتعهم من الغناء والرقص؛ لأنَّ+ دوام الاستماع إلى القصائد والشعر هو شيء ممل، ومضجر أحيانًا للبعض من الحضور.
- هذه أول مرة في حياتي يتاح لي مشاهدة فنانين، وموسيقيين عن قرب.. كنتُ أستمتع من مشاهدة التلفاز أحيانًا، عندما كنتُ أذهب إلى قهوة القرية، وأرى بعضهم يظهرون على الشاشة الصغيرة يتمرجحون برشاقة وخفة على أنغام الموسيقى الصاخبة، كنتُ أتمنى أنْ تكون معنا رحمة الآن لتشاهد المهرجان.
- أعتقد أنها منزعجة جدًا لعدم السماح لها بالقدوم إلى الخان اليوم بالذات.
- نعم أظن كانتْ تود مشاهدة ما يجري هنا، وبالأخص عندما تسمع أنَّ هناك فنانين، وفرقة موسيقية قادمين إلى الخان.

لم نكمل حديثنا عن رحمة حتى قَدِمَ الضيوف من الفرقة الفنية، وهم محملون بمعداتهم إلى داخل الصالة، وكانوا مرتدين ملابس داكنة اللون ومزركشة ببعض الخيوط المذهبة، وبعضهم اعتمر بعضهم بالقبعات الداكنة اللون، وطرحوا آلاتهم الموسيقية على الطاولات، وكانتْ مجموعة من الطبول والمزامير والكمان وغيرها من الآلات التي أجهل أسماءها، وجلسوا على الكراسي المحيطة بها، وكان منظرهم يبدو جميلًا بتلك الأزياء المتناسقة، وأتى من بعدهم بعض الفنانات المرتديات ملابس زاهية بألوانٍ متنوعة، وهنَّ يتضاحكنَّ،

ويحملنَّ معهنَّ حقائب أيضًا، ويرافقهنَّ مرافق الأميرة، والذي أشار إليَّ بمرافقة الفنانات، وأخذهنَّ إلى الغُرف التي خصصناها لهنَّ لغرض التبديل، وكنَّ أربع راقصات.

أوصلتهنَّ إلى الغرفة المخصصة لهنَّ، وسألتني إحداهنَّ:

ـ ما اسمكَ؟

ـ صالح.

ـ أنا لم أرَكَ من قبل يا صالح في قصر الأميرة، هل أنتَ حديث العهد بالعمل مع الحاشية؟.

ـ لا، أنا أعمل هنا في الخان، وليس مع الحاشية كما تقولين.

ـ إذن أنتَ لستَ منهم.

ـ ماذا تقصدين؟

حدَّقت في بعيونها السوداء الجميلة، وقالتْ:

ـ حسبتُ أنكَ تعمل معهم عندما رأيتكَ في الصالة؛ لأنكَ تبدو شابًا وسيمًا جدًا وطويلًا، وتتمتع بكل صفات الرجولة، يبدو أنكَ تضيع وقتكَ هنا وسط هذا المنفى.

أخذت باقي الفنانات بعد تعليقها بالضحك والسخرية، عندها تدخلتْ راقصة أخرى سمراء داكنة اللون، وقالتْ:

ـ اتركيه وشأنه يا سراب ألا ترين كم هو محرج، ووجهه أحمر متوهج كطماطم الموسم الطرية.

ذكَّروني بالطماطم التي كنتُ أجنيها، وحقيقة كنتُ خجل من موقفي مع الفنانات الحسنَّاوات، اللواتي يغطي سحنة وجوههن أنواع الماكياج والزينة، ويبدون كدمى متحركة في مسرح العرائس؛ لأني لم أواجه بمثل هذا الموقف من قبل، وتجرأتُ، وسألتها:

ـ كأنكِ تودين أن أعمل معكِ؟ أنا لا أجيد الرقص أو التطبيل، وصوتي أجش لا يصلح للطرب.

ـ يُمكنكَ أنْ تساعدنا في جمع ولم النقود الكثيرة، التي ينثرونها علينا عندما نرقص ونطرب الحضور.

نظرتُ إليها بتمعن أتفحص مفاتن جسدها، وقلتُ لها:

ـ عرض مغري جدًا من كل النواحي... وبعد جمع وعد النقود المتناثرة هنا وهناك، ماذا سوف نفعل؟.

ـ نجلس أنا وأنتَ نعدُّ النجوم.

ـ آسف لن أقدر على ذلك؛ لأنَّ عيني سوف تكون مشغولة بالقمر. (وكنتُ لا أزال أحدق بها)

ـ خذ هذه الورقة بها اسمي ورقم هاتفي.

أخرجتْ ورقة صغيرة من حقيبتها المتدلية على أردافها بحنان، وكتبتْ عليها، وأعطتني إياها، وقالتْ:

ـ لا تنسى أن تتصل بي، وسوف أجعل نغمات هاتفي ترنُّ بلحن مداح القمر.

وغمزتْ لي من طرف عينيها الجميلة الفاتنة.

أخذتُ الورقة من أناملها الناعمة، واستأذنتُ منهن، وضحكاتهن تدوي في أرجاء المكان، وذكرَّتهن إنْ احتجنَّ أي شيء، فأنا متوفر لخدمتهنَّ، وعدتُ إلى الصالة حيث كان الجميع يبدون مستمتعين بالقدوم إلى هنا، ومنشغلين بالدردشة وتبادل الحديث.. قدَّمتُ لهم بعض المشروبات، وبدأوا يعدون آلاتهم الموسيقية، وكذلك يرتبون هندامهم ترقبًا لبدء وصلتهم المنتظرة بعد حينٍ، كفاصل بين

القصائد والأشعار الملقية، ولكنهم كانوا مسترخين للأمر، وتبادلتُ الحديث معهم، وسألتهم إنْ كانوا يحسون بأي قلق كونهم سيقفون أمام سمو الأميرة وغيرها من الحضور من الشخصيات المهمة.
وأجابني أحدهم بأنهم يعزفون كثيرًا، وبمناسبات عدة لسمو الأميرة، وأنهم قد تعودوا على ذلك الحضور، وتلك المهرجانات الفنية والثقافية.

انتابني شعور ببعض الحسد بداخلي، وتمنيتُ لو أنني أستطيع العزف على إحدى تلك الآلات الموسيقية، وأكون منتميًا لمثل هذه الفرِّق التي تجوب كل مكان، ويعزفون أحلى الأنغام، ويستمتعون، ويمتعون الحاضرين، ويأخذون أجرهم على تلك الحفلات الصاخبة، ويتعرفون على أصحاب السمو والشخصيات الراقية في المجتمع، التي تحضر حفلاتهم، وتستمتع بغنائهم، وكأنها تبدو لي حياة ممتعة، وقليلة الجهد، ومكسبة ومربحة في الوقت نفسه.

وبينما كنتُ مستمتعًا بأفكاري الخيالية، قَدِمَ أحد الأشخاص ودخل الصالة، وقال موجهًا كلامه للفرقة الموسيقية:
ـ لقد أكملتُ إعداد مكبرات الصوت، ونحن جاهزون لوصلتنا الغنائية متى ما حانت.

نظرتُ إلى ملامح هذا الرجل وكأني أعرفه من قبل، وظللتُ أتفرَّس في وجهه، وكان يبدو أحد أقراني من أبناء قريتي، وتشجعتُ، وسألته: كأني أعرفكَ يا صاحبي.
نظر إلي بتركيز، وقال لي متفاجئًا:
ـ أنتَ صالح من القرية.

ـ نعم أنا هو، وأنتَ قاسم.. كيف حالكَ؟.

ـ أنا بخير كما ترى، وأنتَ ماذا تفعل هنا؟.

ـ أنا أعمل هنا منذ فترة في الخان نادل وطاهي أحيانًا.

ـ إذن لقد تركتَ القرية وعمل الأرض، وجئتَ إلى هنا لتعمل في الخان.

ـ نعم ولا.. لقد تركتُ القرية، وتوجهتُ في طريقي نحو المدينة، ولكنَّ القدر والظروف أبقتني هنا في الخان في منتصف الطريق إلى المدينة، وبدأتُ العمل هنا مجبرًا، لكني مرتاح الآن لعملي هنا.

ـ وهل سوف تأتي إلى المدينة؟

ـ لا أعلم ذلك الآن ربما في المستقبل.. قلْ لي عنك أنتَ ماذا تعمل في الفرقة الموسيقية.. هل تعزف معهم؟

ـ لا أنا لا أجيد العزف على الآلات الموسيقية، ولكني أقوم بتهيئة المعدات، وأشرف على أجهزة الصوت للفرقة؛ لكي يقوموا بالعزف والغناء، ويمكن لجميع الحاضرين سماعهم بوضوح.

ـ كيف حال العمل في المدينة؟ ألم تشتاق للعودة للقرية التي تركتها من زمنٍ بعيد؟

نظر قاسم إلي بحزن، وكأنه يود أنْ يقول شيئًا، ولكنه كان محرجًا لوجود باقي أفراد الفرقة بجانبه، وأجابني:

ـ العمل في الفرقة صعب بعض الشيء، ومتعب، وأقوم بالسفر معهم أينما رحلوا، والحقيقة الاستقرار في مكانٍ واحد غير ممكن، ويجب أنْ نرتحل دائمًا لتلبية طلبات الناس، وأحمل معي الكثير من المعدات وأهيئها للفرقة الموسيقية حتى يبدأوا بالعزف والغناء.

واستطرد في الكلام بعد توقف:
- نعم لقد اشتقتُ إلى رؤية القرية وأهلها وأودُّ زيارتها إنْ أستطعتُ، ولكنْ لم يتح لي أي وقت للقيام بالزيارة لحد الآن، فنحن - كما قلتُ لكَ - في ترحالٍ دائم، ولا تنسَ لم يبقَ لي من أحدٍ في القرية، وأهلي معي الآن يسكنون في المدينة، ويعملون هناك أيضًا.
- كنتُ أودُّ كثيرًا السفر إلى المدينة والعمل هناك، ولم يتح لي ذلك لحد الآن، ولا أعلم إنْ كان سوف يتاح لي ذلك في المستقبل.
- ولماذا تود العمل هناك؟ أنتَ لا تعرف أحدًا هناك، ولا تحمل أي شهادة، أو تحصيل دراسي مما يجعل إيجاد عمل مناسب صعب هناك، وسط شدة التنافس بين الشباب، ويبدو أنتَ هنا مرتاح لعملكَ في هذا المكان.
- نعم أنا سعيد بالعمل هنا، وأصبح الخان بمثابة بيتًا لي وأهله بمثابة أهل لي، ولكنْ يبقى الطموح في داخلي يدفعني للترحال هناك.
- لا بأس يا صالح لا تيأس سوف يتاح ذلك لكَ، قلْ لي: هل لديكَ هاتف نقَّال لأتصل بك؟
وكم كانتْ فرحتي كبيرة، وأجبته:
- نعم لدي، ويمكنكَ الاتصال بي متى ما شئتَ ذلك.
تبادلنا أرقام الهاتف، وأصبح لي أصدقاء أتصل بهم بالهاتف النقَّال، الذي امتلكته أخيرًا بعد انتظارٍ وصبرٍ امتد طويلًا.
- سوف أذهب الآن يا صالح؛ لأعيد التأكد من الأجهزة الصوتية خلف المنصة، التي نصبوها في الخيمة بانتظار وصلة الغناء والعزف لفرقتنا بعد حينٍ، لا أودُّ حصول أي خطأ ما في الحفل.

ـ هل هناك منصة داخل الخيمة؟

ـ نعم يوجد ما يشبه المسرح؛ لكي يلقوا الشعر، ويجلس العازفون عليه.. أنتَ تعمل هنا.. ألم ترَها؟

سألني قاسم بتعجبٍ، وقلتُ له:

ـ لم يسمحوا لنا بالتجوال هناك، والاطلاع على كل ما يجري داخل الخيمة.

ـ يمكنكَ أنْ تأتي معي إلى هناك، سوف أقول لهم إني بحاجة لمساعدتكَ، ويمكنكَ مشاهدة ما يجري إنْ أحببتَ.

ـ نعم أودُّ ذلك.

خرجنا من الصالة نحو الخيمة الكبيرة المنصوبة قُرب الخان والتي كانتْ تعج بأصوات الحاضرين، وسرنا بمحاذاتها نحو مدخلٍ خلفي للخيمة، حيث نصبتْ الأجهزة المعدة للصوت المركونة إلى الجانب، ومرتبطة بالأسلاك التي تمتد إلى المنصة، ومن خلال بعض الستائر التي نصبتْ لإخفاء مكان الأجهزة؛ استطعتُ أنْ أرى الجمهور الحاضر، وكانوا بأعدادٍ كبيرة، وشاهدتُ أحد الحاضرين واقفًا على المنصة المعدة للإلقاء، وكان في حينها ينشد قصيدة على ما يبدو، والجمهور الحاضر مستمتع بما يلقى من شعرٍ عليه، ولم يطل من الكلام كثيرًا، وترجل عن تلك المنصة وسط تصفيق الحاضرين؛ ليتوجه نحو الأميرة ويُقبِّل يديها، والتي على ما يبدو كانتْ راضية عن ذاك الشاعر.

واستدرتُ نحو قاسم لأكلِّمه، وقلتُ له

ـ هل الجميع يقبِّلون يد الأميرة هكذا؟

ـ نعم هذا ما يفعله الشعراء من باب الاحترام والتبجيل لسموها، واستعطافًا لكرم جلالتها، ولاستجداء عطفها، وهذا ما ندعوه في جمعيتنا بالشحاذة الأدبية المعاصرة لكل عهدٍ.

ـ هل قبَّلتَ يدها من قبل يا قاسم؟

ـ لا لم يتح لي التقرُّب منها، فأنا أعمل في الإعداد والتهيئة للفرقة، وليس في العزف والغناء، أو الشعر، وهي لا تراني، ولا تعرفني بالتأكيد، وهذا قد يكون أفضل لي وأسلم.

ـ لماذا أفضل لكَ؟ ولماذا لا تتقرب إليها، فهي امرأة كريمة على ما يبدو، وعلى ما سمعتْ من الناس حولها، وقد توهبكَ ما يساعدكَ ويعينكَ في حياتكَ؟

ـ أنا ابن قرية، وتربيتُ على أخلاق لا تقبل المهادنة في قول الصدق، ولا أقبل التملُّق لأصحاب المال، أو المداهنة المزيفة لأي أحد على عكس الكثير من أهل المدينة، والذين هم معظم الحضور هنا برغم بُعد المسافة، وأنا أعمل وآخذ مرتبي، وإنْ كان ليس بالكثير أو بالوفير، لكنه أفضل في راحة ضميري.

ـ إني لا أجد سوءًا، أو حرجًا في التقرُّب إلى الناس من أي طبقة، أو فئة كانوا لو أتيح لي ذلك، ولا تنسَ أننا كلنا بشر سواسية، وإنْ اختلفتْ الأقدار، وتباينتْ المقدرة، وذلك لا يمنع كوني فلاحًا أنْ أقف بجانب أصحاب السمو إنْ قُدِّر لي ذلك أيضًا، المهم أنْ تمتلك الثقة بالنفس، وتعلَّم أنَّ المصير واحد مهما تنوعتْ المراكز الاجتماعية، وتباينتْ إمكانيات الجيب.

ـ لا تزال تحلم يا صالح منذ أنْ عرفتكَ في مدرسة القرية، وكنتَ تطالب بالمساواة بين التلاميذ، عندما كان المعلمون المرتشون يهبون أعلى العلامات للذي يدفع أكثر من أهل التلاميذ المتمكنين، وأذكر يومًا عندها كنتَ جدًا غاضبًا على مدرس الرياضيات، رسمتَ على سبورة الصف مثلثًا ومستطيلًا، وقلتَ للجميع:

ـ إنَّ المجتمع يعيش الآن حالة هرمية.

وقلتَ:

ـ إنَّ هذا خطأ كبير؛ لأنَّ قمة الهرم محصورة على قلة قليلة من الناس المستأثرين بالسلطة والجاه، والأثرياء منهم على حساب القاعدة العريضة، والتي تزخر وتموج بعموم الناس المساكين بلا حول ولا رأي، ويجب أنْ نتحوَّل إلى العيش إلى شكلٍ يشبه المستطيل عريض القاعدة، وقصير الأطراف، وهذا هو الصحيح لعموم الشعب؛ لكي نحقق المساواة في المجتمع، والكل يتمتع بفرصة متساوية مع الغير.

وعندها رسم المدرس دائرة كبيرة على السبورة، وكتب على مركزها اسمك، وعلى محيطها كتب الأوهام.

وبرأيي يا صالح، إنكَ لا تزال تدور في هذه الدوامات من الأوهام، كان يجب أنْ تكون معنا عندما ذهبنا إلى بيت الأميرة؛ لإحياء حفل خاص هناك؛ لتدرك الهوة الشاسعة ما بين حياة الترف الماهول الذي يعيشونه في قصورهم، والوضع البائس الذي نحياه نحن عامة البشر ـ هناك ـ في المدينة.

ـ هل ذهبتَ إلى قصر الأميرة؟

ـ نعم مع الفرقة الموسيقية والفنانات، كان تجمُّع كبير للفنانين في قصر الأميرة المنيف.
ـ وكيف كان يبدو قصرها؟
ـ شيء كبير هائل يحمل الكثير من الخيال وقليلًا من الواقع، وصفه يصعب علي لفخامته، وثرائه، وروعته، وضخامة حجمه، كان كل شيءٍ يبدو صغيرًا مقارنةً بقصرها.
ـ وكم أمضيتم هناك؟
ـ كانتْ لليلة واحدة، وانتهى الحفل قبل الفجر بقليل، حيث جمعنا أغراضنا، ورحلنا مجهدين وخائرين القوى.
ـ كم أتمنى لو كنتُ معكم لأشاهد قصر الأميرة!
ـ لم يتح لنا التجوال في أنحاء القصر كله، كان الحفل في حديقة القصر، وشاهدنا البناية من الخارج فقط، ولكنْ حتى الحديقة كانتْ رائعة الجمال والتنظيم، ومزدانة بكل أنواع الورود والأزهار والأشجار بديعة التنسيق، لقد كانتْ كالفردوس في الأحلام تكتظ وتمتلئ بالنافورات وأحواض الماء المغطاة بالبزنابق بيضاء اللون، وبالنُّصب والتماثيل التي تخرج من فوهاتها نافورات المياه، وحتى شلالات المياه المتساقطة قد نُصبتْ على جانب الحديقة، وأحواض الماء الممتلئة باسمَّاكٍ متعددة الألوان، كان كل شيءٍ بديع الجمال وممتعًا للناظرين، وصعب الوصف لروعته وحسن تصميمه.
ـ أنا أحسدكَ الآن على مشاهدتكَ هذا الجمال البديع وسط الكثير من الأشياء القبيحة التي تحيطنا، والتي تجعلنا نبحث عن الجمال في أي مكان، وإنْ كان بعيدًا ومقصورًا على البعض منا فقط.

ـ لقد كانتْ تجربة من الخيال تلك الحفلة، وتلك الزيارة للقصر، وأحسستُ بداخلي حقيقةً باكتئابٍ شديد؛ لأنَّ هؤلاء الناس يعيشون حياة أخرى ـ كأنها في كوكبٍ آخرـ وبُعدًا آخر، ويمتلكون كل شيءٍ جميل حولهم، ولا علاقة لهم بحياة الناس اليومية، ولا هموم البشر العادية ولا حتى مشاكلهم، فكل شيءٍ حولهم منسق، وروائع الجمال، وسهل المنال.

ـ وكيف تعرف ذلك؟ لقد صنعوا كل هذا الجمال الذي توصفه، وأمتعوا الناظرين بهذه الأشياء البديعة، لابد أنْ يكونوا يحملون الكثير من المشاعر، والإحساس المرهف، والإبداع لخلق الفردوس الذي هو مقتصر على القلة المختارة.

ـ كأنكَ واحد منهم.

قالها قاسم متهكمًا وساخرًا، وأردفَ بالقول:

ـ عندما لا تحس بالحاجة لأي شيء؛ لأنَّ كل شيءٍ متوفر لكَ، فلا يمكن أنْ تحس ماذا يعاني الناس عند طلب الحاجة والمرارة في الحصول عليها إنْ قُدِّر لهم ذلك أبدًا.. أنا أعمل طوال ساعات اللَّيل وأجزاء من النهار، وأصبحتُ كالخفافيش أهاب ضياء الشمس، ولا أرى من يومي سوى القليل، ولا حياة خاصة لي سوى خدمة أصحاب السمو والأثرياء منهم، وإرضائهم.

ـ أظن يا صديقي أنكَ تعيش حالة ازدواجية، فأنتَ تعمل لهم، وفي نفس الوقت لا تودهم، وتحسدهم على حالهم.. هل هذا حال الجميع الذين يعملون لديهم؟.

ـ لا أعرف ذلك بالتحديد عن باقي العاملين لديهم، ولكني مجبر على العمل لديهم بسبب طبيعة عملي، وأتمنى أنْ أجد بديلًا لعملي هذا في المستقبل القريب.

ـ تذكَّر يا صديقي أنَّ الحاجة ليستْ مادية فقط، وامتلاك كل الماديات البشرية، يجعلكَ تفقد وتخسر تمامًا كل الجوانب الروحية؛ لأنَّ هناك ما يدعى التوازن، الذي يتحكم في حياتنا، وإشباع جانب واحد فقط يخل ويفرغ الجانب الآخر.

ـ يا صالح هذا الكلام هو ما يخدع الإنسان نفسه به، ويسيطر البعض من الإقطاعيين به على العامة من البشر بهذه الترهات، التي بلا جدوى، ولا وجود لشيءٍ روحي، هناك فقط ما تدركه بحواسكَ، وهو المادي الملموس، ولابد لكَ عندما تأتي إلى المدينة أنْ تحضر جلسات تنظيمنا الشبابي، التي سوف أدعوكَ إليها، ولكنْ يجب أنْ أُسرع الآن، فقد اقترب آوان وصلتنا الموسيقية، ويجب أنْ أذهب، وأبلغ الفرقة للقدوم هنا.

ـ سأعود معكَ إلى الخان، فلا شيء لي هنا لأشاهده.

عدنا إلى الخان، وأثناء سيرنا بدأ يشرح لي عن التنظيم الشبابي الذي ينتمي إليه، وكيف يقضون وقت الاجتماع في إعداد المدونات، ونشرها على الشبكة العنكبوتية، والتي تتضمن الأموال الطائلة التي يبذخها الأمراء والطبقة الحاكمة، وكيف كان يمكن الاستفادة منها في بناء ما ينقص الشعب، والبلد من خدمات مهمة.. ثم كرَّر دعوته لي للذهاب إلى المدينة، وقبل أنْ نصل الخان، وقفنا واستدار إلي قاسم، وقال:

ـ نسيتُ أنْ أذكر لكَ، أنَّ هناك مَنْ يدعم ويساند تنظيمنا ماديًا يسكن بالقرب من هنا.

ـ تقصد في الحي المجاور للخان؟

ـ نعم يا صالح، هناك فتاة تحضر جلساتنا وتشارك نقاشاتنا، وكذلك تتبرع هي بالمال لأجل ديمومة ونجاح تنظيمنا.

غلبتني الحيرة فيما يقوله قاسم، وقلتُ له:

ـ مَنْ هي هذه الفتاة الواهبة المعطائة؟

ـ إنها تدعى رنين.، وتقول أنها تسكن في هذا الحي، هل تعرفها؟

ـ نعم أعرفها.

أجبته باقتضابٍ، والدهشة تغمرني تمامًا، وسألتُ قاسم:

ـ لكنْ.. ما علاقة رنين التي يُقال عنها أنها مشعوذة بتنظيمٍ مثل هذا؟

ـ نحن نعرفها منذ أنْ كانتْ طالبة في الجامعة، وكانتْ جدًا متحمسة لأفكارنا، وتعتقد أنها تحمل مبادئ نبيلة، وكانتْ دائمة الحضور، والمشاركة في الاجتماعات، وكثيرة العطاء لنا، ولولا مساعدتها لأفلس التنظيم، وحُلَّ من زمان.

لم أستطع فِهم الارتباط الغريب جدًا لي ما بين رنين وهذا التنظيم السياسي.

وبعد هذه المحاورة المذهلة لي، ولجنا الخان، وأبلغ قاسم فرقته الفنية بحلول وقت الوصلة الغنائية، وغادر الجميع محملين بآلاتهم، وخُلي الخان من أفراد الفرقة تمامًا، وبدأنا نسمع بعد قليل ضجيج الموسيقى وصخب الحضور القادم من داخل الخيمة، وجلستُ بجانب الشيخ، وسلمان في الرواق، وقلتُ للشيخ:

- وكأني شاهدتُ كل هذا الذي يحدث الآن في أحد الأحلام، وهو الآن وكأنه يتحقق ويتجلّى.

- وهل تحلم وأنتَ يقظ؟ (قالها الشيخ بتهكم)

- الجميع اليوم يتهكم منّي؛ لأني أقول ما أشعر، وأحس به بصدق.

- أعذرني يا صالح، فأنا أسخر لشدة البؤس الذي أنا فيه؛ كما ترى.

- لا بأس، حتى صديقي قاسم يحس بالبؤس والمرارة، وأشعر بالأسف وبالألم لذلك.

- ولماذا ينتابه هذا الحزن والبؤس؟ فهو يبدو مرتاحًا في عمله، والذي يظهر أنه شيء ممتع ومسلي، ويجعله يلتقي الكثير من الناس، والتجوال هنا وهناك، ويجني قدرًا جيدًا من المدخول؟

- وأظن أن هذا ما يؤلمه أكثر، كونه يرى الكثير من الناس الأثرياء والأغنياء في هذه الحفلات، مما يجعله يحس بغيظٍ بداخله لعدم امتلاكه ما يمتلكون، وعدم اقتناعه بما يحصل عليه من دخلٍ من العمل في الفرقة، والتجوال معها.

- مع الزمان سوف يتعوَّد على هذه الحياة التي تسميها المرارة، ويتعلَّم كيف يكتمها ويحبسها في داخله ويتقبل الحياة على أنها ليستْ دائمًا عادلة مع كل الناس، ومَنْ يدري ربما يصبح صديقكَ ذا شأن ما في المستقبل إنْ قُدِّر له أنْ يكتم غيظه ويتصرف بحكمة أكثر، ويتعامل مع عمله على أنه فرصة للوصول للمراتب العليا في المجتمع.

- القول سهل يا شيخ، ولكنَّ المشاعر الداخلية يصعب كتمها، والسيطرة عليها أحيانًا، وتراها تنطلق أحيانًا كالبركان الهائج، الذي

يعتمر البدن، ويكسر كل الكوابح والقيود والأغلال في لحظاتٍ من الزمن، الذي يطغى عليه الشعور بالانكسار والهزيمة والخذلان، وهذا ما أحسه أحيانًا في داخلي، كذلك هناك حاجات تلح في داخلي أودُّ تحقيقها، ولا أقدر على ذلك، وأغدو كمَنْ يسقط في يديه الأمر، ويلتفتُ إلى داخله ليبحث ويرى أين هو الخلل؟.. هل هو أنا، أم القدر الأعمى، أم العجز والخوف الذي يعتمر داخلي؟ وأحس بالحاجة للثورة والانفجار للتعبير عمَّا يجول في نفسي.

ـ صحيح قد يثور ما في داخل الإنسان إنْ تركه هكذا بلا عنان، وهذا ما كان يراودني من قبل، عندما كنتُ فتى في مثل سنكَ يا صالح، كان يواجهني ضغط شديد في العمل، وفي علاقتي مع والدي، وكانتْ هناك عدة مشاكل نفسية تحيط بي، وأحسستُ كما يحس صاحبكَ به الآن من وجع العجز في الداخل، وعجز عن عدم القدرة على التطلُّع إلى الأعلى وإلى الأسمى، وكان تساؤلي اليومي في نفسي: متى أُحقق ما أريد؟ ومتى يتمُّ لي ما أبغي وما أطمح إليه؟ وتحس بداخلك بوهنٍ شديد؛ لأنكَ تمد يدكَ ولكنها لا تصل أبعد من ظلك الذي يحيط بكَ، وكأنه الشيء الوحيد الذي تمتلكه تحت نور الشمس الخالدة، التي لا ترحم مَنْ يقف في وجهها عاريًا متحديًا، وغدوتُ أحيانًا أهذي من شدة اليأس وكرب البؤس.

ـ وكيف تجاوزتَ تلك الفترة الصعبة من حياتكَ؟

ـ كنتُ أذهب لأختلي بنفسي بعد انتهاء العمل في اللّيل إلى مكانٍ معزول؛ هناك بعيدًا عن الخان، أبتعد فيه عن كل شيءٍ يحيطني، ويرتبط بحياتي اليومية، وأجلس لساعاتٍ ـ هناك ـ لوحدي أتأمل ما

في داخلي، وأحيانًا ينقطع التفكير تمامًا عني، وأُريح ذهني من كل شيءٍ يشغله تمامًا؛ لأنَّ الذهن يعمل اليوم كله وفي اللَّيل وحتى عندما تكون نائمًا، وهذه الدقائق يحتاجها الذهن للراحة التامة من التفكير في أي شيء.

ـ كان يمكن لكَ كذلك أنْ تكلّم أحد أصدقائكَ أو أقاربكَ، وتفرغ ما في داخلك من همومٍ، وهذا ينفع في علاج النفس المضطربة، ويريحها من شجونها.

ـ عندما تتكلّم مع الآخرين، فأنتَ تنسى نفسكَ أو تتناسى، وتبتعد عن داخلكَ للهروب من مشاكلكَ إلى مشاكل الآخرين اللامنتهية، وتبقى مشاكلكَ وهمومكَ عالقة في الذهن الباطن مهما هربتَ منها، وتعود إليكَ حتى في الأحلام.

ـ قلْ لي يا شيخ: هل نفعتكَ هذه العزلة عن كل شيءٍ في إبعاد اليأس والكرب عن نفسكَ؟

ـ نعم لقد قوتني كثيرًا وصلّبتْ إرادتي، وجلّدتْ عزيمتي، وأعطتني أهم شيء، وهو الثقة بالنفس، والصبر على كل محنة أمرُّ بها، والأمل بالحياة والمستقبل مهما كانتْ قاسية علي.

ـ ليس متاحًا ذلك لكل واحدٍ منا الآن، أعني أنْ يختلي بنفسه عن كل شيءٍ، ويبتعد وينعزل في بقعةٍ ما غير متصلة بعالم اليوم، لقد ضاقتْ الدنيا بنا، ولم يعد بها الكثير من المتسع للخلوة، وأصبحنا أقرب لبعضنا عن قبل بكثير، والآن نحمل الهاتف النقّال في جيوبنا، ونشاهد التلفاز، ونسمع المذياع، ونستخدم الحاسوب، ونبعث بالرسائل، ونتلقى مثيلها وأكثر، حتى وإنْ كنا لا نودها، أصبح هناك

لا مفر ولا مهرب، ولابد أنْ نتواصل بالقريب والغريب إنْ كنا نود ذلك أم لا، وإذا انعزلتَ عن العالم الآن، يقولون: إنه تخلُّف ورجعي.. يجب أنْ تركب الموجة، وإلّا بقيتَ وحيدًا على الجرف الخالي إلّا من المتخلفين.

ـ لا يا صالح بعد كل إشباعٍ وامتلاءٍ، هناك خلو وفراغ، وبعد كل التضيق والخناق، لابد من فسحة وانفراج، وهذا هو الحال دائمًا في التاريخ.

ـ أتمنى أنْ يكون الفرج قريبًا.

كنتُ أفكّر في حالي، وما آل إليه هنا في الخان، نظرتُ إلى سلمان الجالس بجانبي، وهو يهز رأسه طربًا لسماع الأغاني، التي يملأ ضجيجها المكان.

ـ لقد نسينا سلمان في خضم كلامنا، وهو على ما يبدو مستمتعًا بسماع صوت الأغاني والطرب القادم من الخيمة، ومندمجًا معها بشدة على الرغم أنه بالتأكيد لا يعلم ماذا يعزفون؟ أو ماذا ينشدون؟.

ـ نعم، ولكنه لم يقدر أنْ يأوى لفراشه بسبب هذا الضجيج المريع، وبقي هنا في الرواق جالسًا مستمعًا.

ـ سوف ينتهي هذا المهرجان بعد حينٍ، ويكون سلمان قد تأخر عن وقت النوم كثيرًا.

ـ ليس لديه غدًا مدرسة، ويمكن أنْ يسهر قليلًا لحين يغلُّبه التعب وينام، وينسى صخب وضجيج هذا المهرجان.

لم يطل جلوسنا كثيرًا من الوقت في الرواق إلى أنْ خفتتْ أصوات الغناء والعزف، وعلا التصفيق كأنه إيذانًا بانتهاء الوصلة الغنائية.

قَدِمَتْ الفرقة الموسيقية مرة أخرى إلى الخان، وجاء قاسم معهم، وقال لي:

ـ جئتُ لأودِّعكَ يا صالح، فقد أنهينا وصلتنا الفنية، وانتهى دورنا في المهرجان، ونحن عائدون الآن إلى المدينة، ولكنْ لا تنسَ أنْ تتصل من حينٍ لآخر لأطمئن على أخبارِكَ، وإنْ قَدِمتَ إلى المدينة كذلك لا تنسَ أنْ تتصل قبل وصولكَ لأكون باستقبالكَ واستضافتكَ، وتعريفكَ على نواحي المكان، وربما إيجاد عمل لكَ هناك.

شكرتُ قاسم على دعوته لي للقدوم للمدينة، وودَّعتُ الجميع من الفرقة الذين جمعوا أغراضهم وآلاتهم الموسيقية، ورحلوا مودعين بدعوات الخير وبالسلامة.

وانفض المهرجان الشعري بعد حينٍ، وبدأتْ المركبات بالمغادرة، والتي كانتْ قد ملأتْ الساحات الخارجية للخان، وغادر معها الحاضرون من شعراء وأدباء وحضور، وانفرط عقده بأسرع من إلتمامه، وبدأ العاملون برزم متاعهم، وجمع حاجياتهم وأغراضهم بهمة ونشاط، ولكني لم أقدر أنْ أتابعهم؛ لشدة تعبي، وقررتُ الذهاب للنوم بعد تلك اللَّيلة الغريبة والطويلة والمرهقة.

صحوتُ في الصباح الباكر جدًا، ولم أقدر أنْ أنام كثيرًا، ولم آخذ قسطًا كبيرًا من الراحة بسبب ضجيج العمل، وصوت العمال الصاخب، الذين كانوا لا يزالون يعملون بهمة وسرعة؛ لتفكيك

وإزالة الخيم، التي كانتْ قد نُصبتْ على أرض الخان، وكذلك وجب علي الاستعداد لاستقبال زوار الخان بعد انقطاعٍ لعدة أيام بسبب هذا المهرجان.

عدتُ إلى عملي المعتاد اليومي في إعداد، وتهيئة صالة الخان من ترتيبٍ وتنظيفٍ، ولكنني أثناء ذلك لمحتُ من خلال نوافذ الصالة رحمة قادمة نحو الخان، تشقُّ طريقها برشاقة وسط العمال المنهمكين بالعمل، مرتدية ثوبًا رفرافًا وردي اللون، يغطي ارتجاج النهود العامرة، وينسدل بلطفٍ على بنطالها الأزرق داكن اللون، الذي يلتف حول أردافها كالتفاف أوراق الكروم حول أعمدة الرخام الأبيض، وتشع أوداج وجهها بنور الشمس الساطعة عليه برقة ونعومة كزهرة القطن عندما تيعن في منتصف الربيع، وكان أحلى شيء تراه عيني المرهقة من السهر في هذا الصباح الباكر، وكنتُ في نفسي مشتاقًا جدًا لرؤيتها، وتبادل الحديث معها بعدما افتقدتها لأيامٍ لم أرَها فيها، وتساءلتُ في نفسي إنْ كانتْ قد اشتاقتْ هي إلي ولو بشكلٍ قليل، وهل تبادلني ببعض ما أحس تجاهها أم أنَّ جبل الجليد في داخلها لا يزال صامدًا، ولم يتأثر، ولم يشعر بتلك الحرارة المنبعثة من لهيب الإعجاب الكامن في فؤادي؟... ولكنها كانتْ لخيبتي متلهفة أكثر لسماع ما جرى في الخان في اللَّيلة الماضية من شؤونٍ، وشجونٍ، وأحداثٍ، ولم تكن تعبأ كثيرًا بما أحس، وهذا على الأقل ما شعرتُ به، وسألتني: إنْ كنتُ قد حضرتُ المهرجان، وشاهدتُ الحاضرين، وغيرها من الأسئلة التي لا معنى لها عندي... ولم تسألني إنْ كنتُ قد سهدتُ اللَّيل أفكّر بها.

وأجبتها:

ـ أرجو ألَّا أُخيب ظنكِ، ولكننا أمضينا معظم الوقت جالسين هنا في الخان، ولم يسمح لنا بمشاهدة أي شيء، لولا أحد أصدقائي الذي قَدِمَ إلى هنا مع الفرقة الموسيقية، والذي أخذني معه إلى الخيمة حيث وضعتْ الأجهزة، وقدرتُ أنْ أرى فقط القليل من خلال فتحة من الستائر المعلقة، وهذا كان أكثر شيء شاهدته من فاعليات المهرجان.

ـ هل قَدِمَتْ فرقة موسيقية إلى هنا؟

ـ نعم، وأدَّوا وصلتهم الفنية في المهرجان وكان أحد أعضاء الفرقة لي معرفة به ومن أبناء قريتي ودعاني لزيارته في المدينة، ووعدته بالاتصال به في المستقبل القريب، وربما أذهب إلى هناك لرؤيته.

ـ كنتُ أودُّ بشدة أنْ أكون هنا لمشاهدة هذه الفرقة، والمهرجان كذلك، ولكنْ لم يتح لي ذلك، وقضيتُ وقتي في متجر أبي أساعده في البيع بعد أنْ احتاجني لكثرة الزبائن الذين قَدِموا للشراء من المتجر.

ـ وكيف حال العم؟

ـ إنه بخير، ولكنه مجهد هذه الأيام، يجب أنْ نبدأ بالتهيئة للعمل أظن بعض الزبائن قادمين للخان.

أجابتني باقتضابٍ.

ذهبتْ رحمة للمطبخ بعد أنْ قطعتْ سلسلة الحديث، ويبدو أنها شعرتْ بالخيبة من إجاباتي المختصرة، وقلة ما ذكرتُ عمَّا حدث في مساء الأمس، وقد يكون لها الحق في ذلك، كونها كانتْ أكثر

شغفًا؛ لمعرفة تفاصيل ما جرى في أثناء الاحتفالات التي مضتْ، أكثر من اكتراثها حقيقة بمشاعر شخص قد لا تكن له أي أحاسيس، ولكن كان لي الحق كذلك لأشعرها بأنها أهم عندي من أي شيء، وفكري كان مشغولًا بها أكثر من الاهتمام باحتفالات أشخاص لا أعرفهم، ولا يهمني ما يحتفون به، وكم كنتُ أودُّ أنْ أُصارحها بحقيقة دواخلي، وأترجى الفرصة للبوح لها بمشاعري، ولكنَّ الخوف من ردها وصدها، وخشيتي من تركها العمل بسببي، والرعب كل الرعب في أنْ لا أراها أبدًا بعد ذلك، وهذا ما يثير الهلع أكثر في فؤادي، ويقض كل مضاجعي.



مرَّتْ أيام... ومضى الصخب والضجيج المرافق للمهرجان، واستعاد الخان بحلته الجديدة عمله اليومي الدؤوب بنشاط أكثر، وازداد تقاطر الزوار بشكلٍ أكبر عن ذي قبل نظرًا للشهرة، التي اكتسبها الخان بعد إقامة المهرجان في ربوعه، وأصبح الضيوف أكثر تساؤلًا عن تاريخ هذا المكان وما يمثّله لأصحاب السمو.. وبدأ بعض الزوار يقدِمون خصيصًا للخان، وليس فقط كونه دار للاستراحة من عناء الطريق، وازداد بالتالي ضغط العمل علينا نحن ـ الاثنين ـ لمجاراة الزيادة الكبيرة في عدد القادمين، وسألتُ الشيخ إنْ كان في المقدور إضافة عامل آخر للمساعدة في الخان.

ـ قد تكون هذه الزيادة في عدد القادمين مجرد فورة مؤقتة بسبب المهرجان، ومع الوقت تذوي، وتقل، ويعود الخان إلى سابق طبيعته، يمكن أنْ ننتظربعض الوقت لنرى كيف تسير الأمور وإنْ دامتْ هذه الزيادة سوف نستعين بعاملٍ آخر للمساعدة.

أقنعني كلام الشيخ بالانتظار، على الرغم من الجهد الكبير الذي نبذله لخدمة الضيوف، وأعدادهم المتزايدة، ولم يكن فقط ذلك الجهد البدني في خدمة الزبائن، ولكنْ كنا نرد على تساؤلاتهم المتكررة بشأن الخان وماضيه، وعمَّن حضر المهرجان، وكل هذه الأسئلة

المكررة التي أضحتْ مملة ورتيبة، وأضافتْ جهدًا للفكر والبدن معًا، وبدأتُ التفكير جديًا بالحاجة إلى الراحة وإلى بعض الوقت لصفاء الفكر والذهن؛ لتحمل أعبءء العمل وأسئلة الزوار المتتالية.

ونحن في خضم هذا الزخم من العمل، جاء مفتش الشرطة لزيارة الخان، وجلس إلى إحدى الطاولات في الصالة، وناداني، بينما كنتُ مشغولًا غير منتبهٍ لقدومه:

ـ يا صالح.. كيف حالكَ؟

وأجبته بسرعة بعد تعرفي عليه:

ـ أهلًا يا سيادة المفتش.. أنا بخير.

ـ وكيف حال الشيخ وسلمان؟

ـ إنهما بخير كذلك.

ـ أين الشيخ؟.. فأنا لا أراه هنا في الصالة كعادته دائمًا.

ـ إنه جالس مع سلمان في الغرفة.. هل تود أنْ أناديه؟

ـ نعم فلدي أخبار سارة له.

لم أتلكأ، وذهبتُ لأنادي الشيخ، الذي قَدِمَ إلى الصالة، وجلس إلى جانب المفتش بعد إلقاء التحية عليه.

ـ كيف حالكَ يا شيخ؟.. لدي أخبار سارة لكَ.

ـ خبرني يا سيدي.. ما هي؟.

سأله الشيخ بشغفٍ، على الرغم من كونه لا يتوقع الكثير من الأخبار السارة في هذا العمر.

ـ لقد تمَّ بيع البضائع التابعة لابنكَ الراحل سعد، والتي كما تعلم قدرنا أنْ نسترجعها بعد سرقتها؛ في المزاد الذي أقيم لأجل هذا

الغرض، وقد جلب ريع المزاد قدرًا جيدًا من المال العائد الآن لكَ ولحفيدكَ سلمان، ولكنْ يجب أنْ تذهب بنفسكَ إلى المدينة لاستلام هذه العائدات من المصرف، وهذه الأوراق لكَ؛ لتأخذها معكَ عندما تذهب إلى المصرف؛ ليتمَّ صرف الأموال لكَ ولحفيدكَ سلمان.

وأخذ الشيخ الأوراق التي أعطاها المفتش إياها.

ـ هل يجب أنْ أذهب بنفسي إلى هناك يا سيادة المفتش لتسلُّم النقود؟

ـ نعم يا شيخ، لا يمكن صرف المال إلَّا لكَ شخصيًا، ويجب أنْ تحمل معكَ أوراقكَ الثبوتية؛ ليتمَّ التعرُّف إليكَ هناك في المصرف، ولأنَّ المال مودع باسمك في حسابٍ خاص.

ـ طيب سوف أذهب إلى المدينة، ولكنْ ماذا سوف أفعل بالمال؟.

ـ سوف تحوله من ذاك الحساب الخاص إلى حسابكَ الشخصي، وعندها يمكنكَ التصرُّف به، ويمكنكَ بهذا المال أنْ تشتري لكَ دارًا هناك إنْ أحببتَ البقاء في المدينة، أو أي مكان آخر يطيب لكَ، ويكون لكَ ولحفيدكَ سلمان.

ـ نعم، إنها فكرة جيدة على الأقل أدخر شيئًا لمستقبل سلمان ليعينه، وسوف آخذه معي إلى المدينة لزيارة أقربائي هناك للمكوث عندهم ربما، وكذلك أروم زيارة قبر ابني سعد، الذي لم أقدر لحد الآن من تأدية هذا الواجب علي.

ـ هل لكَ أقارب في المدينة يا شيخ؟ (سأل المفتش الشيخ بتعجبٍ)

ـ كان لدي أقارب لم أتصل بهم منذ زمنٍ بعيد، ولا أعلم إنْ كانوا لا يزالوا يعيشون في المدينة.

ـ ولم يتصل ابنكَ بهم عندما كان في المدينة كل ذاك الزمان؟

ـ سألته عنهم، عندما مرَّ هنا قبل سنين لزيارتي، وقال إنه لا يتصل بهم ولا يزورهم؛ لانشغاله بعمله، وعلى حد علمه أنهم لا يزالوا في نفس عنوانهم الذي أعرفه.

وحلَّ صمت قبل أنْ يبادر المفتش بالكلام مرة أخرى:

ـ كنتُ أودُّ إعلامكَ كذلك بأخبارٍ أخرى عن حادثة السرقة التي تعرض لها ابنكَ، وبعض مستجداتها التي نحن لا نزال منشغلين بفك لغزها.

ـ وهل هناك من جديد لتخبرنا به؟ (سأل الشيخ)

ـ لا أعلم إنْ كان يهمكَ الأمر، ولكنْ أنتَ تعرف الفتاة رنين التي تعيش في الحي بالقرب من الخان؟.

ـ نعم أعرفها، وكانتْ تمرُّ هنا على الخان لزيارة سلمان قبل أنْ تمنعها الشرطة من زيارتنا بعد ذلك.. ما علاقتها بعملية سرقة البضائع العائدة لابني سعد؟.

ـ لقد أصدرنا أمرًا بإلقاء القبض عليها بتهمة التحريض ومساعدة الجناة في عملية السطو، ولم تعثر عليها الشرطة عندما ذهبوا لاعتقالها في منزلها؛ لإيداعها التوقيف والتحقيق معها في التهم المنسوبة إليها، لقد حرضتْ رنين زوجة ابنكَ سعد على عملية السرقة، وساعدتها في إيجاد أفراد العصابة للقيام بهذه العملية المدبرة.

ـ رنين قامتْ بعمل كل هذه الأعمال الرهيبة؟

سأل الشيخ باستغرابٍ شديد، واستدار نحوي غير مصدق ما يسمعهُ من مفتش الشرطة، الذي أردفَ بالقول:

ـ يجب إخبار الشرطة إنْ شاهدتما رنين، أو سمعتما أي شيء عنها؛ لأنها الآن مطلوبة، وهي فارَّة من القضاء والمحاسبة.

مرَّتْ فترة من الصمت قبل أنْ يهبَّ المفتش متهيأً لمغادرة الخان، عندها سأله الشيخ:

ـ هل يمكن أنْ تقول لي، ما هو موقف أم سلمان من كل هذا؟ أعني هل سوف يحكم عليها، وبعد حين سوف تخرج من السجن، ولكنْ ماذا إنْ أرأدت أنْ تأخذ سلمان؟.. إنها أمه أولًا وآخرًا.

ـ تذكر الأوراق التي وقَّعتها؟.

سأل المفتش الشيخ، الذي أجاب:

ـ نعم أذكرها جيدًا.

ـ هذه الأوراق هي سندات من القضاء بتجريد أُم سلمان من حقوقها كأُم؛ لأنها أضرتْ بابنها وأهملته، وهي غير مؤهلة للعناية به، وغير قادرة على ذلك، وبعد خروجها من السجن الذي سوف تقضي فيه وقتًا طويلًا، سوف لن يسمح لها بالاقتراب من سلمان؛ لأنها قد تمثِّل خطرًا عليه، وكل هذه الأمور موثقة في سجل القضاء، ولا تهتم بأمرها كثيرًا؛ لأنها سوف تكون تحت المراقبة حتى بعد خروجها من السجن.

ـ أودُّ أنْ أسألك يا سيادة المفتش عن ابني سعد، لقد توفي؛ كما قلتَ؛ منتحرًا، ولكنْ.. كيف حصل ذلك؟ وددتُ أنْ أسألك من قبل والاستعلام منكَ، لكنْ خانتني الشجاعة، وكثرة الألم بداخلي.

ـ هل الأمر مهم لديكَ يا شيخ؟

ـ نعم أريد أنْ أعرف ذلك بالتفاصيل إنْ أمكنكَ ذلك.

ـ حسنًا لقد وجدته منظفة المنزل التي قَدِمَتْ إلى الدار، وكان الباب مواربًا، ووجدته معلقًا بحبلٍ في غرفته في الطابق العلوي من المنزل، واتصلتْ بالشرطة، لقد شنق نفسه، وكان الاختناق هو سبب الوفاة الرئيسي.

ـ وأين كان سلمان عند ذاك الوقت؟ (سأل الشيخ)

ـ كان جالسًا في الغرفة الصغيرة المخصصة له، والتي كان يمضي كل وقته فيها ـ بحسب ما قالته منظفة المنزل ـ واتصلتْ كذلك بوالدة سلمان؛ لكي تأخذه عندها في حينه.

ـ هل كانتْ نهايته مؤلمة يا سيدي؟.. أرجوكَ أنْ تجيبني بصدق.

ـ لا يا شيخ، إنَّ الموت بهذه الطريقة سريع جدًا وغير مؤلم، كون ثقل الجسم يؤدي إلى انفصال فقرات العنق، ويسبب قطع النخاع الشوكي وانقطاع إمداد الدم عن الدماغ بسبب ضغط الحبل على الرقبة، مما يؤدي إلى الوفاة السريعة بعد دقائق من الخدر في الجسم واللاوعي التي يمرُّ بها قبل الموت.. لا تفكر كثيرًا بما حصل لابنكَ، وكيفية وفاته، وأرجوكَ أنْ تطوي هذه الصفحة المؤلمة لكَ، وتفكر بأمر نفسكَ، وبأمر حفيدكَ المحتاج إلى الاهتمام والرعاية أكثر من حاجة ابنكَ المتوفي إلى أي شيء الآن، وهو الذي قد اختار الموت، أو أنَّ الموت قد اختاره، فهذان الأمران سيان، وفي النهاية يكون ابنكَ قد أخلى المسؤولية عن عاتقه تجاه حفيدكَ، ولم يفكر به ولا بوالده، ورحل برحلة أخرى.

غادرنا المفتش بعدما أنهى حديثه، وكان كلامه للشيخ خشنًا وقاسيًا بعض الشيء، ولكنَّ الحقيقة يجب أنْ تذكر مهما كانتْ قسوتها.

جلستُ بجانب الشيخ لأستعلّم منه عمَّا يود فعله؛ لأنَّ ذلك مرتبط كذلك بمستقبلي في العمل هنا في الخان، وكذلك عن سلمان الذي أصبح مثل أخٍ صغيرٍ لي، وأودُّ أنْ أعرف كيف سوف أطمئن عليه في المستقبل، إذا قرَّر الشيخ شراء دار في المدينة، والسكن هناك بعيدًا عن هنا، وبادر الشيخ بالكلام مقاطعًا سلسلة فكري:

ـ لم أُصدِّق ما سمعتُ من كلام المفتش عن رنين.. لماذا فعلتْ كل هذا بابني؟ وما جنته من أفعالها الشريرة هذه؟ ولماذا كل هذا الحقد على ابني؟ ماذا عمل لها؟.

قالها بعصبية، وهو يهز رأسه، وأجبته:

ـ أنا ما زلتُ مذهولًا مما سمعتُ عمَّا قامتْ به رنين تجاه ابنكَ، لكني أذكر يا شيخ عندما سألتها عن ابنكَ وعن معرفتها به، ارتبكتْ، وأحسستُ من ردة فعلها أنَّ هناك شيئًا ما يدور في خلدها، وأنَّ هناك رابطًا ما بين ابنكَ ورنين، وأظنكَ أنتَ أيضًا انتبهتَ إلى تلعثمها بالكلام وتأثرها عند ذكر اسمه.. سوف تنكشف هذه الخبايا عندما تلقي الشرطة القبض عليها، ونعرف هذه التفاصيل في حينها.

ـ أتمنى أنْ يتمَّ ذلك بأسرع ما يمكن، لقد تسببتْ بموت ابني من كثرة حزنه وشدة كآبته وخسارته لأمواله، وأودعتْ أم هذا الطفل السجن، لقد خربتْ ودمرتْ هذه العائلة بأعمالها الشريرة، وكانتْ تأتي هنا لتظهر تعاطفها المخادع مع سلمان المظلوم.

وسألتُ الشيخ بعد برهة من الصمت:

ـ قلْ لي يا شيخ: متى تذهب إلى المدينة؟

ـ الأسبوع المقبل بعد أنْ أُهيئ نفسي؛ وكذلك سلمان؛ لتلك الرحلة، وقد نقضي بضعة أيام هناك عند أقاربي.. هل تستطيع تدبر الأمر هنا لوحدك يا صالح؟.

ـ بالتأكيد يا شيخ، لا يظل بالكَ مشغولًا بما يجري هنا، ولكنَّ المهم ما سوف تقرره بعدئذ.

ـ لا أعلم لحد الآن، ولكني أودُّ أنْ أجد مَنْ يهتم بسلمان بعد رحيلي.. كما تعلم يا صالح؛ لم يبقَ لدي من السنين الكثير، وحتى إنْ؛ قد لا أقدر على رعاية نفسي في القريب، وأمر مستقبل سلمان ضرورة ملحة، كذلك أنتَ على بالي، ووقفتَ بجانبي وبجانب سلمان كل هذه المدة العصيبة، على الرغم من أنكَ غريب عنا، وضحيتَ بسفركَ للبقاء هنا لمساعدتي في رعاية سلمان، وكذلك في عمل الخان، ولا أعرف كيف أرد لكَ هذا الجميل وأثمن قيمة معروفكَ لنا؛ وكما قلتُ لكَ أنتَ على بالي، وأي تدبير للمستقبل سوف أخبرك به، وتكون جزءًا منه.

ـ يا شيخ أُعيد عليكَ ما قلته مرارًا قبل ذلك، إنكما أصبحتما بمثابة عائلة لي، ويهمني ماذا سوف تؤول أموركما وأحوالكما إليه؟ وأودُّ أنْ أبقى على اتصالٍ معكَ للاطمئنان على كل شيءٍ.

أكملنا محاورتنا في الحديث عن هموم العمل في الخان، وكيف أصبح أكثر ضغطًا علينا، وكيف تحوَّل الخان بين ليلةٍ وضحاها من مكانٍ مهجورٍ منسي إلى مكانٍ يعجُّ بالقادمين والزوار، وحتى أصحاب السمو الذين تذكروا ملكية عقار يعود لهم، وكيف يستغلوه طمعًا في إمتاع أنفسهم، وإسعاد حاشيتهم، وتحقيق رغباتهم بمعونة

تلك اللوحة الإعلانية الكبيرة، التي نصبتْ على جانب الطريق السريع، التي لولاها لبقي الخان في غياهب الماضي، يعلوه الغبار في أرشيف ديوان الأوقاف الأميرية، والترقب الآن عن التالي والقادم من أصحاب السمو، وخططهم المستقبلية للخان وأهله.

بعد أيامٍ قليلة جدًا آن وقت سفر الشيخ مع سلمان إلى المدينة، وكانا قد تهيأ منذ الصباح الباكر جدًا استعدادًا للرحلة المزمعة، وبعد الإفطار حضرتْ سيارة أجرة، كان الشيخ قد اتفق مع سائقها على إيصاله إلى هناك، ووضعنا الأغراض في صندوق المركبة، وقبل أنْ يرحل أوصيته على سلمان، وسألته إنْ كان متأكدًا من إيجاده لمكان أقاربه في المدينة، ومحل إقامتهم هناك.

- لا تقلق يا صالح، إذا لم أجدهم سوف أذهب بمعية السائق إلى فندقٍ ما في المدينة، وننهي أشغالنا، ونعود غدًا، ولكنْ إنْ وجدتهم هناك سوف أبقى لعدة أيام ما دام السائق معي، وهو سوف يوصلني إلى حيث أود.

استقلا السيارة، ورحلا مودعين بالسلامة، وعدتُ إلى العمل بدون الشيخ معي، ومما يعني أني سوف أقضي اليوم كله لوحدي مع رحمة؛ لتساعدني في خدمة زبائن الخان، وقد اتفقنا أنْ ننهي العمل مبكرًا، وتقليص ساعات العمل بسبب غياب الشيخ عنا، وضرورة عودتها مبكرة من العمل.

كان اليوم طويلًا بغياب الشيخ، وكذلك سلمان، وكان جُلَّ تفكيري ينصب على ما ستؤول إليه الأمور هناك، وكيف سوف يتخذ الشيخ

قراره وفي أي اتجاه كان، كانتْ هذه الأمور تشغلني كثيرًا، وأصابتني بدوامة من التفكير، وكأني ابتدأتْ من الصفر مرة أخرى في رحلتي، إذا قرر الشيخ البقاء في المدينة مع سلمان، وسألتُ نفسي: هل أذهب إلى المدينة مع الشيخ أم أبقى هنا مع رحمة؟
أسئلة جدًا محيرة، ولا أعرف لها جواب، وأي قرار أتخذه سوف يحزني بشدة، ولا بد من مخرج يوفق ما بين هذين الاختيارين الصعبين جدًا عليّ.

اتصل بي الشيخ على هاتفي في المساء، وأخبرني أنه وجد أقرباءه في المدينة، وأنهم رحبوا به هناك، وينوي البقاء معهم لعدة أيام، وإنْ احتجتُ أي شيء يمكنني الاتصال به، وتمنيتُ له طيب الإقامة.

جلستُ في الرواق الخارجي لوحدي بعد أنْ رحل الجميع مبكرًا، وأنهينا ترتيب وتنظيف الصالة، وإعداد ما نحتاجه ليوم غد، ورحلتْ رحمة بعد ذلك مودعة بكل نبضات قلبي، ويرافقها بصري الذي لم يألُ جهدًا في النظر إليها، والتمعن في محاسنها، ومتابعة خطواتها وهي تسير بعيدًا عني... وبعدها ارتكنتُ إلى أحد جدران الخان، أنظر في الخلاء بعد أنْ غابتْ رحمة عن ناظري تمامًا وسط الأشجار، وبدأتْ الأفكار تتواتر في عقلي الذي يعيش حالة ارتباك وتشويش من جراء توارد المستجدات المفاجئة، والتي تحدد مسار الحياة بشكلٍ خارج عن نطاق الإرادة الشخصية... وبدأ اللَّيل يسدل ستاره ببطءٍ، وأنا لازلتُ جالسًا لوحدي هناك في المكان المقفر الصامت إلَّا من أزيز العربات القادم من الطريق السريع، وبدأ يرتفع القمر بدرًا من خلف الأشجار العالية ببطءٍ؛ ليعانق

السماء الداكنة المظلمة بنعومة، ويؤنس وحدتي الموحشة، ويغطي الأرض بألوانه الفضية الداكنة، التي تبعث الشعور بالرومانسية، والعاطفة الوجدانية، وجعلتني منغمسًا جدًا في هذا الجو الشاعري الخيالي، أعمل مقارنة ما بين بياض القمر الساطع المائل إلى الزرقة وما بين سواد اللَّيل الذي يحيط به ويجعله يظهر بهذا الجمال والسطوع البراق مُحاطًا بكل تلك النجوم البعيدة جدًا في أغوار الفضاء المترامي بلا نهاية، وقد تكون تحمل هذه النجوم رسائل إلينا، ولكنها لا تصلنا أبدًا لبعدها السحيق عنا، ولا نقدر أنْ نصلها نحن كذلك، وبقينا هكذا في ألفيات الزمان المديد في مواجهة مستمرة عن بُعد، نضع أبراجًا خيالية لتلك النجوم، ونفكر كيف ترسم هذه الأبراج أقدار الإنسان وحياته ومصيره، وكيف تساعده في اتخاذ القرار بحسب اعتقادهم، لكنْ ربما في المستقبل مَنْ يدري إلى أين قد نصل، أو أنهم قد يُقدِمون إلينا سكان المجرات البعيدة في زيارة مفاجئة لهذه الكائنات التي تملأ هذا الكوكب الصغير، الذي عطف علينا وقدَّم لنا مكانًا؛ لنعيش فيه وسط هذه الأجرام التي لا ترحم كائنات ضعيفة مثلنا..

دام هذا التأمل الروحي الفلسفي زمنًا، وأنا أرسم بعيني تلك الأبراج السماوية الظاهرة للعيان، وأحاول أنْ أضع برجي الخاص بينهم، وعلي أنْ أعرف ماذا يكن لي المستقبل من مفاجآت أخرى... قبل أنْ أصحو على صوت خشخشة وتكسُّر أغصان تصدر عن بعيد ما بين الشجيرات البعيدة على أطراف مرآب الخان، ونظرتُ في ذلك الاتجاه علَّه أحد الكلاب الضالة أو قط سارح في المكان يبحث عن

طعام، ولكني شاهدتُ شبحًا أو ظلَّ إنسان ينسل ما بين تلك الشجيرات... تغلغل الرعب في قلبي حينها، فأنا وحدي هنا في هذا الظلام وهذا المكان الخالي، ولا أملك أي شيء أدافع به عن نفسي سوى يدي، وربما إحدى سكاكين المطبخ، والذي يبعد عني مسافة غير قليلة... جمدتْ أوصالي، فما العمل؟ هناك بعض المال في الخزنة، وهو وارد اليوم من العمل، ولي بضع المدخرات من عملي هنا، وهاتفي النقَّال الذي يربطني بالعالم الخارجي، ولا شيء آخر يستحق السطو عليه، ولكنَّ السُرَّاق ربما قد يظنون أن هناك أموالًا ما من أصحاب السمو، وأغراضا متبقية لهم بعد المهرجان تستحق السرقة والنهب، ولكني لستُ من أصحابهم، ولا أملك من الحراس مَنْ يحميني بحياته الرخيصة مقابل حياة أصحاب السمو الغالية بموازين الحياة المختلة، والحقيقة لم أدخل في مواجهة من قبل مع أي أحد لأي سبب ما، ولا أعلم كيف التصرُّف في مثل هذه المواقف الغريبة عني، والتي تحصل لي لأول مرة؟...

صحتُ بأعلى صوتي بعد أنْ لملمتُ ما تبقى من شجاعة في نفسي الخائفة، وأوصالي المرتعدة، على أنْ تكون جهورية الصوت كافًا؛ لردع المتسللين والسُرَّاق المزعومين.

- مَنْ هناك؟

ونهضتُ واقفًا متربصًا بالقادم، ومتهيبًا مما سوف يحصل إنْ واجهتُ أحد الكامنين لي، وقلتُ في نفسي: هل أسلّمه كل ما لدي هكذا بلا مقاومة لأنقذ حياتي فقط، وأعيشها نادمًا خائرًا، ومنكسرًا لجبني وخوفي، أم أدافع عن ما أملك، وإنْ كان ليس بالكثير، ولكنه

مبدأ الحياة أنْ تدافع عن كل شيءٍ لكَ مهما قلّتْ قيمته، وإلّا تدوسكَ السنابكَ كلما مرَّ عليكَ غاز؛ لأنكَ ضعيف، ولا تقدر حتى على المواجهة، ولكنَّ الحياة هي واحدة نعيشها، وهل تساوي قيمتها النزر اليسير الموجود لدي؟ ربما نصل إلى حلٍّ وسط أحفظ فيه حياتي وكرامتي وكبريائي ومدخراتي، ويذهب عني قانعًا بخطأ عمله هذا غير المبرر...

اقترب من الخان ذاك الشبح يمشي ببطءٍ، وأرى ظله من انعكاس ضوء القمر من خلفه؛ ليبدو طويلًا نحيفًا، يسير نحوي مباشرةً، ولم أقدر أنْ أرى وجهه الذي يقع في الظل، ولكنْ قلتُ لنفسي: إنه واحد فقط، ويمكن أنْ أُعالجه بنفسي.
واقترب أكثر منِّي، وصحتُ به بأعلى ما تبقى من صوتٍ في حنجرتي:
- مَنْ هناك؟.. أجب وإلّا أتصل بالشرطة.
- لا تخف يا صالح.. أنا رنين.
تنفستُ الصعداء بعد علمي أنَّ الشبح لم يكن سوى رنين الهاربة من الشرطة.
- لقد أرعبتِني.. ماذا تفعلين هنا في الخان في هذا الوقت المتأخر من اللّيل؟ ولماذا تسيرين هكذا ببطءٍ ولم تجيبيني على سؤالي وصياحي المتكرر؟.
- كنتُ أودُّ التأكد من أنكَ لوحدكَ هنا وأنا خائفة جدًا من تواجد الشرطة في هذه الأنحاء.

ـ نعم لقد أخبرونا أنكِ هاربة، وأنهم يبحثون عنكِ، وحذرونا من مساعدتكِ، ويجب التبليغ عنكِ عند رؤيتكِ.

ـ أنا راحلة، ولن أبقى هنا كثيرًا.. أنا كنتُ فقط مارة للذهاب لداري؛ لأني مشتاقة جدًا لرؤية والدتي المسكينة، التي تجرعتْ الكثير منِّي، وكنتُ أودُّ أنْ أطلب منها السماح والمغفرة، ولا يوجد وقت آخر لكي أحاول رؤيتها؛ لأنَّ الشرطة تطاردني في كل مكان، وقد يكونوا ينتظرونني في الدار، ولكني يجب أنْ أحاول رؤيتها مهما كلفني الأمر.

ـ هل هي حالة ندم متأخرة، أم أنَّ الآوان قد فات على محاولة تصحيح ما جرى؟ ويمكنكِ أنْ تطلبي منها المغفرة عندما تزوركِ في السجن، فليس هناك شيء مستعجل... لكنْ قولي لي: هل يكفي طلب المغفرة والسماح بإعادة ابن الشيخ له، وإعادة الوالد لابنه المسكين؟

ـ أنا لم أقتل أحدًا، ولم أشر عليه بالانتحار.. هو اختار نهايته لوحده وبيده؛ لأنه كان جبانًا لا يقدر على مواجهة مسؤوليته وتبعة أعماله، وهرب من الحياة باختياره الموت على البقاء لتصفية ديون الماضي وأخطائه، وكان يمكن له أنْ يحاول تصحيح الذنوب التي اقترفها بحقي أولًا قبل أنْ يهرب إلى النهاية التعيسة تلك.

ـ لقد انتحر؛ لأنه كان ضعيفًا وحيدًا حزينًا وشديد الاكتئاب، وخسر كل شيءٍ، وأغلقتْ كل السبل والمنافذ في وجهه، ولم يعد لحياته أي معنى، ولا تقولي عنه جبانًا، لأنه ضحى بأغلى ما يملك وهي حياته

ولم يقبل العيش في هوانٍ وذل نتيجة أعمالكِ الظالمة، والتي لاحقته كل خطوات حياته.

ـ أنا لم أكن ظالمة تجاهه، هو الذي ظلمني ودمَّر حياتي، وأخذ كل شيءٍ منِّي.. كنتُ أحبه حبًا لا يوصف لا بالكلمات ولا بالأشعار.

وبدأتْ رنين بالبكاء، أو هذا ما خُيِّل لي، وتساقطتْ دموعها على أرضٍ جرداء خاوية، وضاعتْ وسط الرمال بلا أثر، وأكملتْ كلامها بعد شهقة نفس عميقة:

ـ لقد أعطيته كل شيءٍ، كل ما أملك، وكل عزيزٍ علي؛ لأنه كان الأعز والأغلى على قلبي، لقد رحل عني إلى حضن امرأة أخرى، وتركني في مرارة لا تصدَّق، وحسرة لا توصف، قتلني وأنا على قيد الحياة.. لو أنه قتلني حقيقة لكان أرحم لي من هذا العذاب الذي كنتُ أعيشه لهذه اللحظة بدون حبه.. ماذا تظن؟ أني كنتُ أودُّ الانتقام منه لأنه تركني؟ لا، كنتُ أريده أنْ يعود إلي بأي ثمن، وبحثتُ عنه في كل مكان إلى أنْ وجدته، أنا أحبه، ولا يمكن أنْ أؤذيه أبدًا، كنتُ أريد أنْ أفضح زوجته الخائنة وأنتقم منها؛ لأنها أخذتْ قلبي وتركتني جثة متحركة، وكانتْ تضاجع صديقها التاجر، وهو الذي أوحى إليها بتدبير أمر السرقة للتخلُّص من سعد، وفعلتُ كل ما في وسعي لأنقذه ولكنه أبى وتكبر.. لا يمكن أنْ تحب وتؤذي حبيبكَ، على الرغم أنه تركني هكذا، وحتى بلا وداع وبلا اعتذار، وجعلني أحس كم كان حبي له تافهًا ورخيصًا وبلا قيمة، لقد كانتْ البراءة أعظم وأكبر أخطائي، والثقة بالناس كانتْ سلاحي الخاسر في الحياة، وحتى بعد ما جرى، وبعد أنْ تركته زوجته لتذهب إلى

أحضان رجل آخر، ذهبتُ إليه أتوسل أنْ يعود إليَّ، ولكنه أغلق الباب بوجهي، وآثر الابتعاد مجددًا عني، والانتحار والموت على العودة إلي أنا.. أنا التي من حبي له كنتُ أحسد الهواء الذي يتنشقه، وأودُّ أنْ أكون محله في رئته الخاوية من أي عاطفة تجاهي، أراد الموت حتى أموت أنا معه مرة أخرى؛ لأنه كان يعرف كم كنتُ أحبه، وأراد هو الانتقام منِّي، والابتعاد عني بلا رجعة؛ لكي أفقده إلى الأبد، أو هذا ما يظنه هو.

- كيف تريدينه أنْ يعود إليكِ بعد كل ما فعلتِ به، وما جرى له؟ وكيف ترضين أنتِ به بعد أنْ تركَكِ وهجركِ وغادر برفقة غيركِ؟ بالتأكيد هو لا يبادلكِ نفس مشاعركِ تلك ولا يمتلك أحاسيسكِ الشديدة هذه وإلَّا لما رحل ومضى بعيدًا عنك بهذا الشكل السري والمفاجئ، وربما كان يخشاكِ ويهابكِ ويخاف من جور وبطش أفعالكِ.

لم تجب رنين لبرهة من الوقت، ودنا رأسها بين يديها تعاين الأرض بصمتٍ، ثم نظرتْ إلي بعيونٍ غارقة في دموع الأسى، وقالتْ:

- وماذا عني أنا؟ ألم يدركَ ماذا فعل بي بعد أنْ استملكني، وأصبحتُ له حبيبة وخليلة وجارية؟ أين ضميره وأخلاقه؟ أيرمي بي هكذا رخيصة بلا ثمن؛ ليذهب إلى أخرى لا تبادله شذرة من جبل الحب الذي أكنه له؟.. لقد هرب كصعلوك جبان، ولم يقلْ لي أي شيء، وتركني في حيرة ووهم مريع لأيامٍ وأشهرٍ أتكبد فيها مرارة السؤال، ماذا وجد فيها ولم يجد في؟ هل غرائز الإنسان أقوى من الحب؟ هل البدن أهم من الروح؟

وامتدتْ ذراعيها إلى جانبيها، وكأنها توحي لي بأنها فتاة متكاملة حسناء لا ينقصها أي شيء.
أجبتها محاولًا تهدئة روعها، وحزنها الظاهر عليها بعمق:
- ربما لأنَّ الحب عندكِ كان يعني التملُّك والسيطرة، وهو إنسانٌ حرٌّ يكره القيود والهوان تحت أي طائل.

نظرتْ إلي رنين حائرة بعينين غائرتين، فقدتا نعمة رؤية الحقيقة، وارتضتْ بوهم النكران والانتقام مهما كان الثمن الذي سوف تدفعه وربما للبعض قد يكون لها بعض التبرير في ذلك، ولكني سألتها:
- وماذا عن سلمان؟ ألّا تحسي بأي ذنب أو جرم على الأقل تجاهه؟
- لقد أنقذتُه من زنزانته، ولم أحاول أبدًا إيذاءه، وعرف الحرية وهو الذي قضى عمره سجين غرفته بسبب أنانية والديه وإهمالهما وخشيتهما من كلام الناس واهتمامهما أكثر برأي المجتمع السخيف الذي يعتبر الإعاقة لعنةً وضعفًا وعارًا، ولكنها أحيانًا تكون نعمة عندما لا تعي ما يدور حولكَ من ترهات، وطمع، وغدر، وخيانة.
ثم استدركتْ، وقالتْ:
- يجب أنْ أذهب الآن؛ لأني لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك، أودُّ أنْ أرى أمي وأهلي بشدة.
- وبعدها.. ماذا سوف تفعلين؟ (سألتها باهتمام)
- لا أدري أنا أعيش في غمامة كثيفة، والرؤيا عندي غامضة ومشوشة، ومصيري متعلق في أيدي الغير، وقدري أنْ أعاني الكثير في هذه الحياة.

- يمكنكِ أنْ تذهبي للشرطة وتعترفي، وتريحي نفسكِ، وتريحي أمكِ القلقة عليكِ.

نظرتْ رنين إلى الأعلى إلى السماء، حيث تسطع النجوم بشدة، وأدامتْ النظر طويلًا، ثم قالتْ بصوتٍ شجي:

- لقد تغيَّر لون نجم الشمال هذا اليوم، وأرى كثيرًا من سحب السديم تغمر السماء وتنتشر في أرجائها وتسطع بشدة هذه اللَّيلة التي يزينها بريق النجوم والكواكب السيَّارة.

سكتتْ لبرهة من الوقت، وهي لا تزال تديم النظر إلى الأعلى، ثم صرختْ بألمٍ:

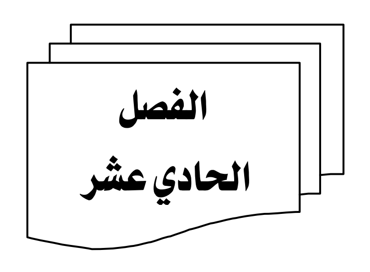
- لا تتركني أعاني وحدي هكذا بلا نهاية، ارحم بؤس حالي، وارحمني بطيفكَ ألامنتهي، واستمع لصراخي وأنين أحشائي، اصغي إلى توسلاتي، وأنقذني من هذه الدواهي، تذكَّر أني خادمتكَ المطيعة إلى النهاية.

نظرتُ معها إلى الأعلى، وكانتْ السماء صافية مزدانة بالنجوم، ولم أجد فيها أي قُربة مقطوعة تملأ بها كلامها الأجوف.

أدارتْ رنين ظهرها إلي ومشتْ إلى حيث قَدِمَتْ، وضاعتْ وسط الظلام الذي لا يرحم، وغابتْ عن ناظري، ولم أعد أراها على الرغم من سطوع ضياء القمر، الذي أبى أنْ ينيرها لي، وتساءلتُ في نفسي: هل هي حقيقةً؛ مسكينة وضحية على الرغم من كل ما فعلتْ؛ لأنَّ الحب قد أعمى بصيرتها بهذا الشكل المجنون، وحوَّلها إلى أداة حقد وانتقام، أم أنها علقتْ خصالها السيئة على شماعة الحب اللامتناهي؟... إنها بالتأكيد تعاني سكرات الموت، وهي

تنبض بالحياة؛ لأنها فقدتْ أعز شيء في حياتها على ما أظن، ولا يمكن تعويضه بسبب ربما الأنانية، ولكنْ مَنْ هو الأناني في هذه الحالة: مَنْ استأثر بهذا الحب أكثر وطمع بغيره، أم مَنْ اعتبر الحب استحواذًا ووحدة بلا تفرقة إلى النهاية؟... أسئلة محيرة لا أقدر أنْ أُجيبها، ولكنَّ الأغرب من كل شيءٍ أنَّ هذا المكان الذي بني على أساس الحب وتمجيدًا لكل معانيه السامية، ولكنه في نفس الوقت كان سبب تهدُّم عائلته ودمارها.. هل يعني ذلك أنَّ الحب عند أصحاب السمو هو صروح وبناء، وعند العامة موت وخراب؟ سؤال آخر محير، ولكنْ أرجو أنْ لا يحصل لي ما حصل إلى رنين.. أنا قد أحب كذلك من أعماقي ولكني لستُ مجنونًا لهذا الحد، ولكنْ إنْ لم أكن مجنونًا في الحب، فهل هو حب حقيقي أم فقط رغبة وتعلُّق ومشاعر وقتية تفيض وتذهب عند الجفاء؟ هل هناك درجات في كمية الحب المتبادلة أم أنْ تحب بكل كيانكَ، وبكل مشاعركَ وعواطفكَ، ولا يمكن أنْ تصدق مَنْ يقول إنه يحب بعقله كما أدعي أنا.. يبدو أنَّ الحب يجب أنْ يكون كل شيءٍ، أو لا شيء بحساب البعض، وحب رنين مثال على الحب العظيم سيئ الحظ، وبنهاية جدًا حزينة للجميع.. لكنَّ حبيبتي في الخيال رحمة، أنا أودُّ أنْ أُصارحكِ بكل العواطف التي أدركها، وأحسها، وعوارض الحب الذي أكنه لكِ، والتي تتمثَّل في امتلاء محاجر العينين بصورتكِ أنتِ فقط، ولساني لا ينطق سوى باسمكِ، وقلبي يختل نبضه عند رؤياكِ، والرئتين تتسابق، وتتلاهث عندما تناديني.. ولكنْ لا مجيب في هذه اللَّيلة، وصدى أفكاري تتلاطم فقط داخل

محتوى جمجمتي، وأنا هنا جالس وحيدًا.. لا آسف أنا لستُ وحيدًا، فبرفقتي القمر أنيسي الوفي الذي لا يزال ساطعًا براقًا في علو السماء ينظر إلي بعطفٍ، وربما بسخرية واستهزاء، ويذكّرني بأنه هناك منذ آلافٍ مؤلفة من السنين، ومرَّ به الكثير من أمثالي من المغرمين بالحبِّ، وينظرون إليه كرمزٍ للحبِّ والرومانسية، لكنه حجر بلا شعور قاتم داكن يعكس الضوء القادم إليه من الشمس إلى الأرض بخفوتٍ؛ لأرى طريقي في اللَّيل الكالح الدامس عندما يكون ظاهرًا، ولا تغطيه السحب الكثيفة.



عاد الشيخ وسلمان إلى الخان بعد عدة أيام قضياها في المدينة عند أقارب الشيخ الساكنين هناك، وبعد الراحة من عناء السفرة، استفسرتُ من الشيخ عن الأحوال هناك، وكيف كانتْ سفرته؟.

ـ قلْ لي يا شيخ: كيف الوضع في المدينة؟ هل ارتحتَ في إقامتكَ هناك؟

ـ لقد كانتْ جدًا مزدحمة، وتمكنتُ من أنْ أُنجز المعاملات في المصرف وحولتُ النقود إلى حسابي الخاص، وزرتُ كذلك قبر ابني في مقبرة المدينة بمعية سلمان وبعض الأقارب، الذين أمضيتُ عندهم الأيام الماضية، كل شيءٍ مضى بشكلٍ جيد كما توقعتُ.

ـ كيف كان حال سلمان هناك؟.. أظنه فرح لعودته إلى المدينة بعد هذا الانقطاع الطويل.

ـ لم يبدو لي كذلك، ولا أعتقد أنه يعرف المدينة لكونه قضى معظم الوقت حبيسًا، ولكنه كان سعيدًا ومستمتعًا برفقة العائلة التي أمضينا عندها أيام الرحلة، وأصبح في أفضل حال عندما وصلنا هنا اليوم، وكان أشد سعادة بالقدوم إلى الخان... قلْ لي يا صالح: كيف كان حال الخان هذه الأيام؟

- ليس هناك جديد يا شيخ، كما تعرف قلَّصنا أوقات العمل لغيابكَ عنا،- والحقيقة لم يكن هناك توافد للزوار بالشدة السابقة، وأعتقد أنَّ الخان يعود إلى حال ما كان عليه قبل المهرجان من أعداد الزوار القادمين إليه... نسيتُ أنْ أخبركَ لقد جاءتْ إلى هنا رنين.

- إلى الخان هنا؟

- نعم في منتصف اللَّيل، كنتُ جالسًا لوحدي في الرواق الخارجي، وأتتْ من جهة بساتين الحي باتجاهي، وكانتْ تروم زيارة والدتها، وربما لم يتح لها ذلك أول مرة فآثرتْ الانتظار هنا في الخان لوقتٍ ما تمضيه؛ لتعاود الكرَّة لخوفها الشديد من الشرطة.

- كيف تجرأتْ على ذلك؟ هل اتصلتَ بهم؛ أي الشرطة لتعلمهم بمجيئها إلى هنا؟.

- نعم اتصلتُ في صباح اليوم التالي؛ لإخبارهم عن قدومها إلى هنا، وغايتها في رؤية والدتها وأهلها.

- بماذا بررتُ لهم التأخير في الإبلاغ عنها؟

- لم أكن أعلم رقم هاتف الشرطة، وانتظرتُ قدوم رحمة؛ لتعطيني الرقم المطلوب للاتصال بهم.

- تعرف أنَّ هذا التبرير قد لا يُصدق من قِبل الشرطة.

- حقيقةً أنا لم أتصل من قبل في حياتي بالشرطة، ولا أعرف أي رقم أتصل به، وكان مجيئها بعد منتصف اللَّيل، ولكنْ لماذا العجلة؟ أعتقد بأنها كانتْ سوف تسلِّم نفسها إلى الشرطة صاعرة؛ لأنها كانتْ بحالٍ مزرية، ولا تعلم ماذا تفعل، وكانتْ سوف تذهب إليهم من حالها البائس واليائس.. لقد آثارتْ الشفقة فيَّ عندما رأيتها هنا.

ـ هل طلبتْ منكَ المساعدة؟

ـ لا، ولكنها كانتْ تستكشف المكان وتنتهز الفرصة في غياب الشرطة؛ لتمرَّ على الدار.

ـ ما جرى لها كانتْ هي السبب فيه، ونتيجة لأعمالها الشريرة.. أرجو أنْ تتعلم من هذه التجربة المريرة.

لم أذكر للشيخ أني تأخرتُ عن إبلاغ الشرطة عن تواجد رنين في الخان وتوجهها إلى دارها، وإنما كان بسبب أني أردتها أنْ ترى والدتها وأهلها، وتلك الفتاة الصغيرة بالأخص قبل أنْ تلقي الشرطة القبض عليها، ومن ثمَّ حاولتُ تغيير الموضوع باتجاهٍ آخر:

ـ لم تقلْ لي يا شيخ إنْ كنتَ قد أخذتَ أي قرار بعد فيما سوف تفعل للمستقبل؟.

ـ قبل أنْ أصل إلى الخان في الطريق، كنتُ قد عزمتُ على أنْ أشتري دارًا قرب مكان سكن أقاربي في المدينة؛ لأنهم كانوا فرحين بقدومنا، وكذلك كان سلمان مرتاحًا في الإقامة هناك، على الرغم من صعوبة إدراك هذا الشيء نظرًا لأنه لا يتكلم، ولكنْ ما غيَّر فكري بعض الشيء، هو عند وصولنا هنا عائدين من الرحلة، كان سلمان فرحًا جدًا، وأشار بيده عدة مرات إلى هذا المكان، وأفهمني أنه فرح كثيرًا بالقدوم عائدين إلى الخان، وكنتُ أتساءل هل كل هذا بسبب ارتياحه هنا أكثر في الخان أم أنه سعيد لأنه متعلق بكَ، وفرح جدًا في العودة للُقياكَ؟ وأعتقد أنه يراكَ كأبٍ له حُرِمَ منه وأخ كبير، ولا أودُّ أنْ أُوذي مشاعره أكثر، وهو الذي

قاسى الأمرين من جراء إهمال والديه، وأريد أنْ نأخذ بعض الوقت للتفكير فيما نقرره.

ـ نعم، وأنا كذلك متعلق به جدًا، وأودُّ أنْ أطمئن على ما يؤول إليه في حاضره وغده.

مضيتُ عائدًا للعمل بهمة أكثر، بعد أنْ ارتحتُ واطمئننتُ على أنَّ الشيخ لن يغادر قريبًا على الأقل، ولن أعاني الآن من التفكير فيما سوف أعمله لحالي ولمستقبلي.

في المساء، وبعد إتمام عملنا؛ جلسنا كذلك في الرواق؛ لنتبادل الحديث عن سفرة الشيخ إلى المدينة، وسألته عن أقاربه هناك.

ـ لقد تفاجأوا جدًا عندما ذهبتُ إليهم، وكان اللقاء مزيجًا من الفرح والحزن في نفس الوقت، بالأخص عندما أخبرتهم عن فاجعة ابني، وما انتهى مصيره إليه ومصير ابنه سلمان، وحزنوا أكثر لأنَّ ابني لم يتصل بهم رغم كل السنين التي قضاها في المدينة، وكانوا على استعداد لمساعدته ونجدته عند الحاجة، ولكنه لم يتصل بهم أبدًا، وكذلك كانوا سعداء للقاء سلمان، واعتبروه كواحدٍ من أبنائهم.

ـ وكيف حالهم.. أعني حالتهم الاجتماعية؟

ـ إنهم يسكنون دارًا كبيرة وحديثة، تقع في شمال المدينة في منطقة راقية، ويمتلكون أعمالًا تجارية رابحة، وحالهم جدًا ممتاز؛ لذلك كنتُ أفكّر جديًا بالانتقال إلى هناك، وكونهم قرب كل الخدمات الضرورية، وكذلك يمكن أنْ أذهب إلى المستشفى القريبة منهم للعلاج، وكما تعلم قد تصبح المستشفى داري الثاني بعد هذه المعاناة وكبر السن.

واستطرد الشيخ الكلام بعد استراحة لشرب الشاي:
ـ نسيتُ أنْ أقول لكَ، إنهم يسكنون بالقرب من أحد قصور الأمير الكثيرة، والذي لا يبعد كثيرًا عن دارهم، وكنتُ أمرُّ بالقرب من القصر في ذهابي وإيابي إلى دارهم، وأخبرتهم عن زيارة الأميرة للخان، ولقائها المفاجئ معنا، وكذلك عن المهرجان الذي أُقيم في الخان، وكانوا قد سمعوا عنه ولكنهم لم يتخيلوا أنه في نفس الخان الذي أعيش أنا فيه.

قاطع حديثنا قدوم سيارة الشرطة، التي ترجل منها المفتش بصحبة معاونيه، وقَدِموا إلينا، وبعد السلام علينا، اعتذر المفتش عن كثرة زيارته للخان، ولكنها ضرورية، وتابع القول:
ـ جئتُ أولًا لأشكركَ يا صالح على تبليغك عن رنين؛ لأننا بالفعل ألقينا القبض عليها في دارها، بعد عودتها إليه قادمة من الخان، حيث كانتْ مختبئة في إحدى خزانات الملابس في إحدى غرف المنزل، وبعد بحثٍ شاق عثر عليها أحد رجال الشرطة هناك، وكانتْ في حالٍ بائس، وكنتُ جدًا غاضبًا على الشرطة، التي كانتْ مكلفة بواجب الحراسة في الحي، والتي كان من المفترض أنْ تلقي القبض عليها في مساء أمس، ولكنهم على ما يبدو كانوا غير دقيقين في عملهم.
صمتَ المفتش لبرهة من الوقت، وتابع بعدها كلامه:
ـ لكننا جئنا اليوم لأجل شيء آخر أكثر أهمية، ويتطلب موافقتكَ يا شيخ.
ـ أوافق على ماذا يا سيادة المفتش؟

ـ سوف أشرح لكَ الآن.. تذكر ما حدث لجدة سلمان، عندما كانتْ قادمة إلى هنا في الخان لإيصال سلمان إليكَ، ومن تحرياتنا وكشف الطب العدلي كنا على قناعة أنَّ موتها لم يكن طبيعيًا، ودليلنا على ذلك أنها لم تكن تعاني من أي عارض صحي، على الرغم من تقدُّم عمرها، وكذلك عند السؤال عنها لدى ابنتها ومعارفها، وما حدث لها في الطريق إلى هنا لغز كبير، ونشك كثيرًا في أنَّ وفاتها كانتْ نتيجة دفع وضرب وخنق على إثر عراكٍ أو شجارٍ مع شخص ما كان يتبعها، وأراد منها شيئًا ما، أو حاول إيقافها، وقد تكون مقاومتها للجاني هي سبب موتها.

ـ هل تود سيدي أنْ أُوافقكَ على هذا التحليل المنطقي للجريمة؟

ـ لا يا شيخ أعطني فرصة لإكمال حديثي.. كما تعلم أنَّ الشخص الوحيد الذي كان هناك عدا الجدة والجاني أو الجناة، هو حفيدكَ سلمان، ولكنْ لكونه معاق ولا يتكلم، فلم نقدر على أخذ أي معلومات منه، وبالتالي جمدتْ القضية، وشلَّتْ، ولم نقدر على حلها لحد الآن، ولكننا مع الوقت كشفنا بعض الخيوط الموصلة للجاني، ونود استكشافها إلى نهايتها، وإثبات الوقائع، وكشف الجاني.

ـ يعني أنه شخص تعرفه، وتود إثبات التهمة عليه بمساعدة ؟

ـ نعم، لقد فهمتني يا شيخ أخيرًا، ويبدو لنا أنه على الأرجح جاني واحد قد يكون القاتل.

ـ وكيف سوف يساعدكَ سلمان برغم إعاقته؟

ـ لقد هيأنا كل شيءٍ، وسوف نستخدم طريقة الصور التي يتعلمها سلمان في المدرسة؛ لغرض رسم تسلسل الحوادث، ونقربها إليه مع

صورٍ لجدته، وصور الشخص الذي نعتقد أنه الجاني، ونحاول بالمساعدة مع خبيرة البرنامج من محاكاة ما حصل، وهو سوف يشير إلينا كيف جرتْ الأمور بحسب ما رأته عيناه وقت الحادث، والذي نعتقد أنه لا يزال حي في ذاكرته من خلال ترتيب الصور في البرنامج، وفق التسلسل الزمني للحادث، الذي جرى لجدته هنا.

انتفض الشيخ بعصبية ونزق:

- ولكنكَ سوف تعرضه إلى تجربة عاطفية مريرة أخرى له، وقد تؤثر عليه بشدة، وهو لا يزال يتعافى من تأثير الماضي عليه.

- لا يا شيخ لن نعرض سلمان إلى أي ضغط نفسي أو عاطفي، واستشرنا الباحثة الاجتماعية في هذا الأمر، وكذلك معلماته في المدرسة، وبدأنا بالفعل في البرنامج بشكلٍ تجريبي؛ لكي نمهد له الأمور بشكلٍ مبسط ولا يؤثر عليه، وكان متجاوبًا جدًا في المدرسة عندما كان يطالع بعضًا من الصور، وربما في قرارة نفسه يود أنْ يكشف الجاني، ونعتقد أنه يعرفه، ونحن جدًا حذرين في التعامل معه، واتخذنا كافة الإجراءات المناسبة؛ ولكنَّ القاضي طلب منا عندما عرضنا عليه القضية أنْ نأخذ موافقتك أولًا قبل البدء بالبرنامج؛ لأنَّ شهادة سلمان سوف تذهب إلى المحكمة، ويتطلب موافقة ولي الأمر للبدء بذلك.

- ولكنَّ الجاني المزعوم لا يزال طليقًا، وقد يكون خطرًا على سلمان وعلينا كذلك جميعًا؛ لتغطية جريمته بأخرى، وقد يتسبب بضحايا جدد.

ـ لا يا شيخ إنه خلف القضبان، ولا تخف ـ كما قلتُ لكَ ـ فقد اتخذنا كافة متطلبات حماية سلمان وحمايتكما.

ـ هل لكَ يا سيادة المفتش أنْ تذكر لنا مَنْ هو لنطمئن قليلًا؟

ـ على الرغم أنَّ المتهم لا يزال تحت التحقيق، ولا نزال نسعى لانتزاع الاعترافات منه ومعرفة حقيقة كل ما جرى، ولكني يمكن أنْ أفصح لكَ عن بعض الوقائع، ويجب أنْ يبقى الأمر بيننا، ولا ينتشر إلى أبعد من حلقتنا هذه ضمانًا لسير التحقيق نفسه، ولسلامة الجميع.

أجبنا بأننا سوف لن نبلغ أي أحد بأي شيء، ووعدناه بكتم السر إنْ كان لا يزال سرًا.

ـ تذكر يا شيخ عندما ذهبتَ للحي لطلب المساعدة بعد العثور على جثة الجدة، وكان أول مَنْ شاهدته هو رنين.

ـ نعم يا سيادة المفتش. (قالها الشيخ، وهو ينظر إليه بدهشة)

ـ كان هذا أول شيء يثير الانتباه لنا حيث تساءلنا ماذا كانتْ تفعل بالقرب من الخان في الصباح الباكر وهي كان ممنوع عليها مغادرة دارها بسبب من أعمالها السابقة، وبعدما اتصلتْ بالشرطة وقَدِموا للمكان لمعاينة الجثة، وأخذ المعلومات منكما عن الحادث، وكيفية حصوله، انتبه الشرطي إلى وجود تمزق في أحد أكمام الرداء الذي كانتْ ترتديه رنين، وبعض الخدوش على ساعدها، وعند سؤالها عنه أجابتْ: إنه رداء قديم، قد تمزق نتيجة الاستخدام المنزلي، والخدوش إثر لعبها مع إحدى القطط... كتب هذه الملاحظات الشرطي، الذي آثار الشك لدينا لدى مراجعة التقرير، ولكنه لم يكن

دليلًا كافيًا، كذلك تحليل الحامض النووي لم يكفِ لإدانتها كونها كانتْ تتفحص الجثة بطلبٍ منكَ، وبالتالي وجود آثار الحمض النووي، قد تكون مبررة من قِبلها، وهذا الذي أوقف تقدُّمنا في التحقيق، وحل لغز هذه الجريمة، وهي لحد الآن تنكر أي علاقة لها بموت الجدة، على الرغم أننا اكتشفنا أنها كانتْ على اتصال مع زوجة ابنكَ قبل يومٍ من الحادث، وكانتْ على علم بقدوم الجدة إلى هنا لتوصيل سلمان وتسليمه إليكَ، ولكنَّ كل هذه المعلومات لا تكفي لإثبات ضلوعها في جريمة موت الجدة، ويتطلب مساعدة سلمان؛ لكشف الوقائع كما جرتْ، ولا نزال لا نعلم الدافع من وراء تلك الجريمة؛ لذلك يتطلب الأمر الحرص والمتابعة في التحقيق.

سأل الشيخ المفتش:

ـ ولكنها كانتْ هنا في الخان، ولم يلقِ أحدكم القبض عليها على الرغم مما تقوله بتشديد الحراسة.

ـ لقد كنا نعلم برحلتكَ إلى المدينة مع سلمان، كما اتفقنا من قبل، ولذلك لم يكن متواجد هنا أي شرطي للمراقبة في الجوار سوى في الحي، وقد ذكرتُ لكَ أني عاقبتُ الشرطة المكلفة بالحراسة، ولكننا الآن وبعد القبض على رنين أصبحنا لا نبحث عن شخصٍ آخر في القضية.

ـ هل يمكن فعلًا يا سيادة المفتش أنْ يساعدكم سلمان في التحقيق وإثبات التهمة على رنين؟ آسف يا سيادة المفتش.

قالها الشيخ وأردفَ

ـ إنه أمر صعب التصديق نظرًا لإعاقة سلمان، وقلة فهمه.

ـ هؤلاء الأطفال على الرغم من إعاقتهم، ولكنهم يتمتعون أحيانًا بذكاءٍ وموهبة خاصة، نحن لا ندركها، ولكنْ مع التعليم والملاحظة سوف تجد أنَّ له مهارات خاصة عندما تساعده، وتنير الطريق له في عالمه الخاص به، ومساعدة سلمان لنا ضرورية جدًا.

ـ لا مانع لدي يا سيادة المفتش، ومستعد لتوقيع الوثائق المطلوبة؛ لإتمام التحقيق.

قالها الشيخ بقناعة واستسلام، وأكمل كلامه:

ـ أرجو أنْ تكونوا محقين، وأتمنى أنْ يساعدكم سلمان في حل القضية، ولكنْ أودُّ أنْ أسألك كذلك عن النقود التي تسلمتها من المصرف قبل أيامٍ.

ـ هل أعطوكَ كامل المبلغ المسجل في الأوراق التي سلمتكَ إياها؟

ـ نعم لقد استلمتُ المبلغ كاملًا، ولكنَّ سؤالي إذا أردنا أنْ نشتري دارًا هناك في المدينة.. فهل يمكنني من ذلك؟

ـ نعم بالتأكيد، ولكنْ بعد أنْ ننهي التحقيق والذي لن يدوم طويلًا.. هل وجدتَ أقرباءكَ هناك في المدينة؟.

ـ نعم لقد وجدتهم في خير حال، وأمضيتُ معهم أيام الرحلة القصيرة.. أين تود أنْ أوقع لكَ الأوراق؟. (قالها على مضض).

ـ هنا يا شيخ.

غادر مفتش الشرطة ضيفنا الدائم بعد أنْ وقَّع ومضى الشيخ الوثائق والمستندات، التي احتضنها المفتش في حقيبته، وأكملنا الحديث بعد هذه الزيارة الغير متوقعة من الشرطة.

ـ ماذا تتوقع يا صالح أنْ يحدث بعد ما سمعنا (قالها الشيخ بسخرية) لقد تعقدتْ القضية بشكلٍ أكبر من قبل، وأتساءل ما دافع رنين لإيذاء هذه المرأة العجوز؟ أنا لا أجد أي مبرر لعملها سوى الحقد والانتقام الذي يملأ كل أجزاء بدنها المريض.

ـ لقد أرعبتني عندما قَدِمَتْ إلى هنا في منتصف اللَّيل، وأُصارحكَ يا شيخ: لقد يبستْ الدماء في عروقي عندما كانتْ تسير باتجاهي ببطءٍ، ولم أعرف مَنْ القادم حتى وصلتْ بقربي، وأجابتْ صياحي الهستيري.. لا تسخر منِّي، ولكنَّ الشرطي كان على حق عندما أخبرني بخشيته منها، وأظنه كان على حق في كل ما ذكره لي.

ـ إنها تبدو مخيفة بقامتها الطويلة، وقسماتها القاسية، ولا أعرف ماذا أحبَّ فيها ابني إنْ كان حقيقة كان يحبها، أو أنها كانتْ فقط نزوة دفع حياته ثمنًا لها؛ لأنه ارتبط بالشخص الخطأ؟.

ـ هل تعني أني ارتكبتُ حماقة الإبلاغ عنها وسوف تنتقم منِّي؟

ـ كيف ستنتقم منكَ وهي في السجن؟ وكيف ستعرف أنكَ مَنْ أبلغتَ عنها؟

ـ إنها عرافة ومشعوذة ولها معارف كثيرين، وقد تعمد للانتقام منِّي بأي طريقة.

ـ لا أعتقد أنكَ على بالها بالمرة، ومشاكلها في السجن تغنيها عن التفكير بأي شيء آخر، والابتعاد عن هنا قد يكون أحد الحلول للتخلُّص من هذه اللعنة البغيضة.

ـ أتمنى ما تقول صحيحًا، وأصبحتُ أتمنى الابتعاد عن هنا بالرغم أني مرتاح في الخان وعمله.

وأكملتُ كلامي بسؤال الشيخ:

ـ من كلامكَ أفهم أنكَ بالفعل قد عزمتَ على مغادرة الخان والرحيل إلى المدينة يا شيخ بشكلٍ نهائي؟

ـ نعم لقد أوضحتُ لكَ من قبل لماذا أودُّ الرحيل هناك؟ والآن ازداد عزمي أكثر بعدما سمعتْ عن جرائم رنين ومشاكلها، ولا أودُّ أنْ أبقى هنا أكثر؛ لأنَّ المكان أصبح يمثِّل ذكرياتٍ أليمة، وحرصي على سلمان وأمانه بعيدًا عن هنا، ولا أودُّ أبدًا أنْ أبقى في الخان لبعد خروج رنين من السجن، ولا أظنكَ تود أنْ تكون هنا في هذا الموقف كذلك.

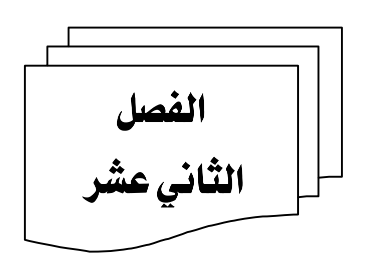
بدأتُ أحسب الأيام وأعدها في الخان، والمتبقية لي فيه بأسفٍ بعد أنْ اتخذنا قرار الرحيل عن هنا والمغادرة مجبرين، وبالتحديد قرار الشيخ بالذهاب إلى المدينة، وترك الخان بلا عودة بعد كل الزمن الذي قضاه فيه، والعمر الذي عاش فيه، والذكريات التي تملأ المكان.. ربما لينسى آلام ومرارة ما حدث لابنه إنْ كان ذلك ممكنًا، وربما ليكون بالقرب من ابنه، وزيارته في قبره كلما اشتاق إليه، وربما لكي يدفن بقربه بعد موته، وربما للابتعاد عن أسئلة ضيوف الخان الكثيرة عن ظروف وفاة ابنه الغريبة واللا متوقعة، وربما ليجلس بجانبه ليكلِّمه بعد أنْ تعب من كلام الأحياء وبلا جدوى، وربما ليرثيه بعد أنْ مات وحيدًا بعيدًا غريبًا، ولم يرثيه أحد في مماته، وحتى والدته التي توفيتْ من قبله بزمانٍ بعيد، ولم تسعد به أبدًا، وربما ليحاول الهروب من ماردٍ كبير يدعى الحزن يخيم عليه، ويلاحقه في كل زاوية وكل ركن، وأضحى ظلًا ثقيلًا يأبى

الرحيل ولا مفر منه أبدًا، وربما لأنَّ نفسه تأنبه وتوبخه؛ لأنه ترك ابنه يرحل وحيدًا بعيدًا بدونه، وأبى بعد اللقاء ألَّا يتركه بعد الآن وحيدًا أبدًا، وربما ليطمئنه أنَّ سلمان بخير، ويسرد له آخر أخباره علَّه أنْ يسمعه من تحت الثرى، ويطمئن أنَّ الإرث الذي تركه بخير رغم عوقه وعجزه، وربما غيرها من المبررات الكثيرة التي تدفع الشيخ بالتأكيد للمغادرة، وترك المكان، والرحيل إلى بقعة بلا ذكريات، وبلا مارد الحزن، وبلا سبيل دائم للدموع...

كذلك أنا قرَّرتُ أنْ أرحل إلى المدينة؛ لإتمام الرحلة التي ابتدأتها من زمانٍ، ولم تكتمل لحد الآن، ولكنْ لا تزال هناك عوائق في الطريق، وليس فقط منها إنهاء تحقيق الشرطة...

ولكنْ ماذا سيحل بالخان إنْ تركناه هكذا؟ يجب أنْ يحلَّ محلنا أشخاص ما؛ لخدمة الضيوف القادمين...

وماذا عن رحمة؟ وماذا سوف أفعل أنا بدونها وبلا طلتها الجميلة في كل صباح وأنغام صوتها العذبة الآمرة؟



كان الصباح جميلًا هذا اليوم، وككل يوم مفعم بالضياء، وبتغاريد الطيور الجاثمة على أغصان الأشجار بالقرب من الخان، والتي تملأ المكان بالحبور والفرح، على عكس ما كنتُ أشعرُ به من غثيان وتعب ووهن في كل أنحاء جسدي، الذي كان يرتعش في ذلك الصباح الجميل، وتنهمر قطرات العرق بغزارة، والتي كانتْ تملأ جبهتي ووجهي كله، والمراتب من تحت تنوء من كثرة العرق المتساقط منِّي والمنصب عليها بغزارة، يبدو المرض قد ألمَّ بي، وهاجمني على حين غرة، وأصاب بدني بجمرة وحمى، وجعل لساني جافًا كجفاف البساط الذي يفترش أرضية غرفتي، ودارتْ عيوني التي تتحرك بصعوبة في محاجرها، تبحث عن الماء بالقرب من الفراش؛ لأروي قليلًا من ظمأي، وأطفئ الحرارة التي تغزو بدني كله، وكأني مستلقي في مرجلٍ للماء، يغلي في داخلي وليس في خارجي، ومن هلوسة الحمى؛ بدأتُ أحلم بكرة الثلج المتساقطة من علو الجبل على أنْ تضل طريقها، وتنحو نحوي لأحتضنها، كم أنا مشتاق إلى الماء القرير ليطفأ لهيبي وجمرتي، ولكن ليس من مجيب، فأنا وحيد هنا في هذه الغرفة بعيدًا عن أمي،

التي كانتْ سوف تملأ المكان بطيفها الجميل، وتمسد بيدها شعري المبلل من العرق، وتبرِّد حرارة جسمي بكمادات الماء البارد، وتسقيني الماء بتروي بيديها الخشنة الحنونة، وكانتْ سوف تقول لي: (استلقي ولا تتحرك، وسوف أجلب لكَ بعض الطعام والشراب؛ لتسند زعيق أمعائكَ، واليوم ترتاح، ولا تذهب إلى الحقل للعمل هناك؛ لأنَّ حرارتكَ عالية جدًا، تكفي لحرق المحصول والزرع بأجمعه)... وتتمادى في مزاحها أحيانًا؛ لتخفف وطأة المرض الذي يدخل البدن بلا استئذان، ويعطله ويصيبه بالإعياء، وتبدأ بتقديم القرابين له من حبوب ومضادات حيوية، عسى أنْ يرضى ويغادر هذا البدن الواهن بلا أنْ يخلّف أي شيء من آثاره الضارة ومن تجمعاته الجرثومية التي تعتاش في الأحشاء على الدماء المتدفقة والمحملة بالغذاء والمضادات في صراع محموم، أتمنى أنْ ينتهي بسرعة لصالحي؛ لأعود إلى عملي الذي قد يتعطل بدوني هذا اليوم، ولا أحد يمكنه من أنْ يحلَّ محلي.

وحزنتُ على نفسي، وكيف أنا مرمي هنا لوحدي في هذه الغرفة وحيدًا بلا مُعينٍ في هذا الوقت الذي أعاني فيه من بلاء السقم، ولابد لي من التحرُّك ومغادرة الفراش والغرفة... ولملمتُ ما تبقى لي من قوة، ونهضتُ من فراشي الرطب، وبمساندة أعمدة السرير الحديدية قدرتُ أنْ أقف على قدمي الواهنة المرتعشة؛ لأتوجه نحو الحمام وأغتسل، وأروي نفسي من بعض الماء في المطبخ، وكان هناك يوجد في أحد الأدراج بعض الأدوية، التي تساعد على تخفيف شدة الحمى والإعياء الذي أحس به، وبالرغم من غشاوة العينين

بسبب المرض، إلّا أني استمتعتُ برؤية رحمة في المطبخ منهمكة في العمل.

ـ صباح الخير.. كيف حالكَ يا صالح؟

ـ كما تلاحظين، فإني لستُ على ما يرام.

ـ نعم تبدو شاحب ومريض.. ماذا ألمَّ بكَ هذا اليوم؟.

ـ لا أعلم سوى أني صحوتُ على هذا الحال التعيس من المرض، الذي أصابني فجأة.. هل لكِ أنْ تعطيني بعض الحبوب الموجودة في الدرج؟.

فتحتْ رحمة أحد الأدراج، وأخرجتْ منه شريطًا من الحبوب، وناولتني إياه مع قدحٍ من الماء.

ـ لم أعلم أنكَ مريض لهذا الحد.

ـ ولا أنا حتى هذا الصباح.

ـ لابد أنْ أصبتَ بالمرض بعدوى من أحدٍ ما، أو نمتَ في العراء بلا غطاء.

ـ لم أنم عاريًا، أو في البرد ـ كما تقولين ـ ولكنْ قد يكون أحد الزبائن قد تكرَّم إلي بمرضه.

ـ أنا لا أودُّ أنْ أشاركَكَ في المرض، وأرجو أنْ تضع غطاءً على وجهكَ؛ لمنع انتشار الجراثيم للجميع هنا ولا تنسَ أنكَ في المطبخ.. اذهب إلى غرفتكَ إلى أنْ يتحسن حالكَ؛ لأنكَ لا تقدر على العمل الآن.

ـ سأذهب إلى غرفتي بحسب أوامركِ يا سيدتي.. أودكِ أنْ تقولي للشيخ عن إعيائي، وسوف أتحسن بعد أنْ أتناول حبوب الدواء هذه.

ـ طيب، إنه في الخارج جالسًا في الرواق، سأذهب لأخبره بذلك، وأكرر أنتَ يجب أنْ تعود لغرفتكَ، وتستلقي على فراشكَ؛ لترتاح بقية اليوم.

خرجتْ رحمة من المطبخ، وجرجرتُ نفسي بصعوبة ساحبًا أسمال جسدي نحو غرفتي، وتوجهتُ نحو الفراش الذي لا يزال رطبًا؛ لأجلس عليه وأستريح، وأنتظر سريان مفعول الدواء في عروقي عسى أنْ أستعيد قوتي؛ لأستبدل المراتب العفنة من رائحة السقم، وملابسي الرطبة... ولكنَّ خلوتي لم تطل إلى أنْ أتى الشيخ باسمًا إلى الغرفة.

ـ كيف حالكَ يا صالح؟.. سمعتُ من رحمة بأنكَ لستَ على ما يرام.

ـ نعم يا شيخ ألمَّ بي المرض فجأة وبلا مقدمات، وأنا آسف؛ لأني لا أقدر على العمل الآن إلى أنْ يتحسن حالي قليلًا بعد تناولي الدواء.

ـ لا تهتم بذلك يا صالح، أنتَ لا تزال شابًا يافعًا، ويبدو أنَّ الانهماك في العمل قد أوهن بدنكَ وأضعفكَ بعض الشيء.. ارتاح هنا اليوم بلا عمل، ولكنْ يجب أنْ أغيِّر مراتبكَ، وأفتح النوافذ؛ ليدخل بعض الهواء النظيف إلى الغرفة.

ـ أنا سوف أُغيِّرها، لا تتعب نفسكَ يا شيخ.

ـ صالح، اسمع إنها كانتْ مهنتي اليومية أنْ أُغيِّر هذه المراتب للضيوف في الخان.. انهض قليلًا كي أُغيِّرها لكَ الآن.

ـ لا أودُّ أنْ تصاب بالمرض أنتَ كذلك يا شيخ.

لم يأبه لكلامي، ووقفتُ إلى جانب السرير، فيما قام الشيخ بتبديل المراتب بأخرى نظيفة.

ـ ارتاح الآن يا صالح في الفراش، وسأجلب لكَ بعض الطعام، لتأكل وتسند أمعاءكَ الفارغة.

ـ أحس بالغثيان، وليس لدي شهية لأي طعام كان.

ـ يجب أنْ تأكل حتى تسترجع قواكَ وتتغلب على المرض.

خرج الشيخ من الغرفة لأستلقي أنا على الفراش المكان المفضل لي، وأنا على هذا الحال من شدة الإعياء.

بقيتُ مستلقيًا على فراشي أتململ من المرض إلى أنْ قَدِمَ سلمان إلى غرفتي، وجلس على الكرسي بجانب الباب، وقلتُ له:

ـ صباح الخير يا سلمان.. ألم يحن موعد ذهابكَ إلى المدرسة؟.

كان ينظر إلي بتعجبٍ، وكأنه يراني لأول مرة مستلقيًا على الفراش في الصباح، وليس كالعادة حيث كنتُ أهيئ له الملابس والإفطار وحقيبته الدراسية قبل الذهاب إلى المدرسة، لذلك كان مستغربًا لمشاهدتي هكذا على هذا الحال المريض، والتعب الشديد.

ـ هل تريدني أنْ أهيئ لكَ الطعام؟ (سألته محاولًا استدراج أي استجابة، وإنْ كانتْ إشارة).

استمر في النظر إلي، ثم تأتأ بشيءٍ لم أعيه في البداية، وبعد التركيز بما لدي من طاقة متبقية سمعته يقول:

ـ صالح.

ذهلتُ لوهلة، وبدأتُ أحاول أنْ أنظر إليه بتركيز.

ـ هل قلتَ صالح؟ (كان السؤال محاولة شبه يائسة لفهمه).

ـ صالح.

أعاد ترديدها عليَّ مرة أخرى، وأنا في أتم الذهول من المفاجأة، وقَدِمَ الشيخ في هذه اللحظات السعيدة، وبيده صينية عليها بعض الطعام والشاي.

ـ آسف تأخرتُ عليكَ يا صالح، لقد حضر بعض الزبائن في هذا الوقت من الصباح الباكر، وساعدتُ رحمة في خدمتهم.

ـ يا شيخ، سلمان تكلَّم، ونطق باسمي، وقال: صالح.

نظر إلي الشيخ وإلى سلمان بكثير من الدهشة، وبعدم التصديق.

ـ لا يا شيخ أنا لا أهذي من المرض لقد نطقها لتوه لعدة مرات.

ثم نظرتُ إلى سلمان، وقلتُ له:

ـ صالح.

أجابني سلمان مجددًا:

ـ صالح.

سمعه الشيخ بذهولٍ، وامتلأتْ عينيه بدموع الفرح.

ـ لقد نطق سلمان أخيرًا، إنه جدًا متعلق بكَ يا صالح؛ لأنَّ اسمكَ أول شيء نطق به.

نهضتُ من فراشي من شدة تأثري وفرحي والبهجة العارمة التي ألمتْ بي؛ لسماعي سلمان ينطق، وأنساني كل آلامي وإعيائي، وجعلني أنتشي بهذه اللحظة المبهجة، والفارقة في الزمان.

ـ هناك أمل كبير يا شيخ في أنْ ينطق سلمان بأكثر من فقط اسمي.

لم يجبني الشيخ؛ لأنه كان جدًا متأثر بهذا الموقف غير المتوقع أبدًا.

وجاءتْ رحمة تبحث عنا.

ـ أين أنتم؟ العربة تنتظر سلمان لأخذه للمدرسة.

ـ لقد نطق سلمان باسمي. (صحتُ برحمة التي تفاجأتْ بصوتي العالي).

ـ كيف حصل ذلك؟ (قالتها بابتسامة عريضة، وهي تنظر إلى سلمان).

ـ للتو، وهكذا بلا مقدمات، جاء إلى هنا ونادى باسمي: صالح.

ـ صالح.

أعاد ترديدها سلمان، وسمعته رحمة كذلك والجميع.

ـ سآخذه إلى العربة، وسوف أخبر معلمته بهذا التطوُّر المفرح جدًا.

قالها الشيخ، وأخذ سلمان بيده.

نهضتُ من فراشي، ولم أعد أحس بآلام المرض وسقمه، الذي غاب عني بعد هذه المفاجأة السارة، وبعد أنْ بدأ كذلك فعل الدواء في بدني المريض، أبدلتُ ملابسي المتعفنة من روائح العرق والمرض وذهبتُ إلى الصالة لأبدأ العمل بهمة وشوق أكثر، وقد لا يكون نطق سلمان باسمي معجزة، ولكنه حدث كبير، ومؤشر إلى مستقبل قد يكون أفضل لهذا الطفل المعاق... واتصلتُ بالمدرسة لأتكلَّم مع معلمة سلمان التي كانتْ فرحة، ولكنها لم تتفاجأ كثيرًا، وأخبرتني أنه يحدث للأطفال مثل سلمان أنْ يبدأوا بنطق كلمات مفردة قليلة تتطور مع الوقت، والتدريب إلى عدة كلمات، قد تكون غير مفهومة في البداية، ولكنها تتحسن بالممارسة اليومية.

لم يسعني أنْ أعبِّر عن فرحي لسلمان في هذا اليوم المتناقض الأحداث سوى بتوزيع بعض الحلويات بلا مقابل للزبائن، الذين

شاركونا المناسبة السعيدة بنهمٍ شديد، وكتبناها في التقويم؛ لتبقى ذكرى سعيدة وبداية جديدة لسلمان، وذكَّرتُ الشيخ بأنَّ سلمان كان يمكن أنْ يتكلَّم قبل هذا الوقت لو أنه تلقى نفس الرعاية التي يتلقاها الآن من قبل عندما كان برفقة والديه، ولم يجبني الشيخ؛ لأنه في قرارة نفسه يعلم كم كان ابنه مقصرًا في واجبه مع سلمان، ولم يود النبش في جروح الماضي العميقة، ولكنه قال لي، ربما ليغير الموضوع باتجاهٍ آخر:

- يجب أنْ أذهب إلى المدينة مرة أخرى؛ لإخبارهم بأني أنوي التخلّي عن خدمة الخان نهائيًا، ولكنْ قبل أنْ أفعل ذلك يجب أنْ نتحدث فيما بيننا عن ماذا سوف نفعل هنا وهناك؟.

وافقته الرأي، وانتظرنا انقضاء نهار اليوم حتى ينتهي العمل؛ لنقدر أنْ نتكلَّم على الرغم من إحساسي الشديد بالتعب والجهد من المرض الذي أبى أنْ يغادرني بسرعة، واستأنس المبيت في بدني كل اليوم، وحلَّ معه المساء، ولم أُصدق كم كنتُ سعيدًا بالارتماء على الأريكة في الرواق بجانب سلمان والشيخ، وأكملنا حديثنا الذي ابتدأناه عن خطط الشيخ للذهاب إلى المدينة مرة أخرى، وسألته:

- إلى مَنْ سوف تذهب لتخبره عن تخليكَ، وتركك مسؤولية إدارة الخان؟

- هناك دائرة تدعى الأوقاف الأميرية، هي المسؤولة عن إدارة شؤون الخان المسجل على لوائحهم الإدارية، وهم مَنْ يجب إبلاغهم أولًا بقراري هذا قبل أنْ يرفعوا الأمر إلى الأميرة.

- وماذا تعتقد أن يكون رد الأميرة بخصوص الخان؟

ـ لا أعلم، ولكنهم بالتأكيد سوف يجدون مَنْ يحل محلي هنا، ولا يمكن تركه بعد هذا التطوير، وكمية المال الذي صرِّف عليه.

واستطرد الشيخ بالقول:

ـ لكنْ لحد الآن لا أعلم عنكَ يا صالح إنْ كنتَ تود البقاء هنا في الخان، أو الرحيل عنه إلى المدينة.

ـ صعب علي البقاء هنا لوحدي بدونكما، وأودُّ رؤية سلمان، ومتابعته في المدرسة، ولكنَّ الأمر أخيرًا يعود إليكَ يا شيخ.

ـ ماذا عن رحمة يا صالح؟ (سألني الشيخ، وكان يحدق بي، وهو عارف بما أكنه لها).

ـ ماذا عنها؟

أجبته بغباء متجاهلًا نظراته الحادة إلي، وكذلك لعدم علمي بما أفعله، وأكملتُ حديثي غير المشوق والمحزن في نفس الوقت:

ـ يمكنها البقاء والعمل هنا، أو أنْ تعود هي إلى العمل في متجر أبيها في الحي؛ كما في السابق.

ـ أنا لا أقصد عملها يا صالح، بل أقصد هل تقدر أنْ لا تراها وأنْ تبتعد عنها؟ أنا منتبه إليكَ، كيف ترنو إليها بشوقٍ؟ وكيف تلاحقها بنظراتكَ في كل لحظة متواجدة هنا، ولا تفارقها؟ وأعلم أنَّ لديكَ شعور خاص نحوها يا صالح.

أدنيتُ رأسي من خجلي، ومن بعد صمتٍ قصير، قلتُ:

ـ نعم يا شيخ أنا أكن لها الكثير من الإعجاب والتقدير، ولكنها تبدو عديمة المبالاة، ولا تأبه بي على الإطلاق، وكأنَّ قلبها قد تحجر وتصلَّد، ربما فقط تجاهي، أنا أعرف نفسي جيدًا، وقد أكون غير

جدير حتى بتفكيرها نحوي، هي فتاة رائعة الجمال ومثقفة، ووالدها تاجر وصاحب محل، وأنا فقط فلاح فقير مجهول بلا أي مؤهلات أو أي شهادة، والأهم من كل ذلك هو أني مفلس، وغير قادر حتى على شراء خاتم يليق بها، أو أنْ أُوفر لها مكانًا لتعيش فيه، هي مجرد أوهام يا شيخ تملأ الفراغ الكبير في داخل أمنيات نفسي لا أكثر، وأحيانًا يتمادى الإنسان في أحلامه اللاواقعية؛ لأنها مجردة بلا قيمة مادية حقيقية.

ـ لقد أضحيتُ كابنٍ لي يا صالح، وساندتني كل الفترة الماضية، وساعدتَ سلمان كأنه أخوكَ الصغير، ولن أتخلى عنكَ الآن في هذه الظروف الصعبة، يمكنكَ أنْ تأتي، وتسكن معنا في المدينة، وتجد لكَ عملًا هناك، أما بالنسبة لرحمة فهي تكبركَ سنًا، وقد تكون مترددة في أي علاقة أو زواج، ولها الحق في ذلك لظروفها الخاصة، وأنتَ لا تزال في مقتبل عمركَ، ويمكنكَ أنْ تجد ما يناسبكَ في المستقبل، في عمركَ هذا يجب أنْ تفكر في تكوين مال كافي لكَ، ولشريكة حياتكَ المستقبلية، ولما العجلة الآن؟.

ـ نعم يا شيخ، أنا لستُ بعجلة من أمري.

قلتها، ولكني في داخلة نفسي كنتُ أتألم؛ لأنَّ الحب لا يأتي بحسب الطلب، وأنَّ القلب لا يدق لكل عابرة سبيل..

قطع سلسلة أفكاري رنين الهاتف في جيبي، وأجبتُ على المكالمة، وكان ضابط من الشرطة، ويود التحدُّث مع الشيخ، وسلمته الهاتف، وبعد محادثة بسيطة أعاد لي هاتفي.

ـ خير يا شيخ، ما الأمر الآن مع الشرطة؟ أليس لديهم عمل غيرنا؟

ـ لقد طلب منِّي الضابط الذهاب إلى السجن، ولقاء رنين هناك.

ـ لماذا؟ (سألته باستغرابٍ من هذا الطلب)

ـ رنين تود مقابلتي، وطلب المغفرة منِّي على ما عملته بابني المرحوم سعد.

ـ حقًا، يبدو أنها ما تزال تمتلك ضميرًا حي وينبض.. هل سوف تذهب إلى هناك؟.

ـ الضابط أخبرني بوجوب الذهاب؛ لأنها قد تكون صحوة ضمير، وتعترف إلي بكل شيءٍ عن جرائمها، ويقدرون بذلك أنْ ينهوا التحقيق بسرعة معها، وإغلاق القضية، وإراحة الجميع، وبالأخص سلمان.

ـ هل سيكونون حاضرون معكَ عندما تراها هناك؟

ـ بالتأكيد، ولن يدعوني معها لوحدنا، وخصوصًا كونها متهمة بالقتل، وبجرائم أخرى.

ـ لكنْ.. هل تظن يا شيخ أنها تود الاعتذار لكَ؛ لتخفف الحكم المتوقع عليها؟.

ـ ربما، أنا لا أدري بدروب القانون ومسالكه، ربما تلقتْ نصيحة من أحدٍ ما بوجوب عمل شيء؛ لإنقاذ نفسها من حبال المشنقة التي تنتظرها.

ـ وماذا ستقول لها؟ أعني.. هل سوف تسامحها وتغفر لها وينتهي الموضوع برمته؟

- نعم يا صالح أتمنى أنْ ينتهي الموضوع كله، وبأسرع وقت ممكن؛ لأجل سلمان وسلامته، وإبعاده عن أي شر أو أذى منها.

- لا أعتقد أنها تضمر أي شر تجاهكَ أو تجاه سلمان، ولكنْ ما يحيرني أنها يمكنها أنْ تطلب المغفرة في المحكمة أثناء جلسة المرافعات، وأمام جميع الحاضرين.

- ربما لا أدري، إنها حقيقة محيرة تلك الفتاة، وما عليَّ سوى الذهاب هناك لتحري المقصد الحقيقي لطلبها هذا.

عمَّ الصمت لوهلة، ثم بادرتُ بالكلام:

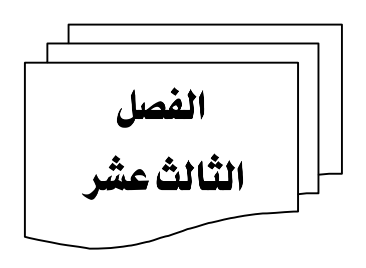
- هل تود مني القدوم معكَ إلى زيارة رنين في السجن؟

- لا.. يجب أنْ أذهب لوحدي هناك بناءً على طلبهم، وأنتَ وجودكَ هنا أهم لتكون مع سلمان.

- متى سوف تذهب؟

- غدًا صباحًا، ولن أُطيل البقاء هناك.

- أتمنى أنْ يكون غدًا خاتمة الأحزان لكَ ولها وللجميع.



كان طلب المغفرة، وإظهار الندم المفترض من قِبل رنين القابعة خلف القضبان حدثًا مفاجئًا لنا وغير متوقع... ورحل الشيخ منذ الصباح الباكر في طريقه إلى ملاقاتها هناك في سجن المدينة، وكنتُ جدًا قلق من هذه الزيارة، التي كانتْ تبدو لي غريبة بعض الشيء، وغير قابلة للتصديق، ربما بسبب طبيعة تكويني القروية، والتي تجعلني أُشكك في كل ما يقوله أبناء المدينة والأحياء المتحضرين؛ لأنَّ كلامهم ليس بالضرورة يعبِّر بصدق عن نواياهم وعمَّا يضمرون، على عكس أهل الريف حيث الصراحة هي مفتاح ألسنتهم، وهذا مما جعلني أتشكك أكثر في نوايا رنين، وأضحيتُ في حالة توتر وريبة بانتظار عودة الشيخ من هناك؛ لسماع ما قالته له، وشاركتْ رحمة في مخاوفي، التي كانتْ تعمل بانهماكٍ في مطبخ الخان؛ لتجهيز بعض الطعام، وأردتُ أنْ أستفسر منها عن شخصية رنين، وما تعرفه عنها، ولكنها كانتْ أقل اهتمامًا بالموضوع كله، وقلّلتْ من شأن الموقف بأجمعه، وأجابتني ببرود:

ـ أعتقد أنها فقط يائسة بعد أنْ كُشِفَتْ جرائمها، وشرها أكثر من كون ذلك صحوة ضمير واستغفار؛ كما تبدو القضية لكَ، وهي

تحاول التشبث بكل قشة لإنقاذ نفسها من الورطة، التي وقعتْ فيها، وماذا إنْ طلبتْ المغفرة من الشيخ؟ لا أعتقد أنَّ هذا الأمر سوف يساعدها كثيرًا في المحكمة، ولا ينطلي على أحدٍ.

ـ أنتِ تعرفينها جيدًا.. هل تعتقدين بأنها حقيقة نادمة على أعمالها؟.

ـ أنا أعرفها معرفة شخصية بسيطة، ولكني سمعتُ عنها الكثير، وأنا متشككة من هذا الأمر مثلكَ تمامًا، وقد تطلب منه شيئًا آخر غير الصفح عنها، سوف نعرف ذلك عندما يرجع الشيخ.

ـ ماذا سمعتِ عنها؟ (سألتها بشغفٍ أحاول استدراجها للحديث معي)

ـ سمعتُ ما يتراود من إشاعات من أنها كانتْ تقيم جلسات سرية أحيانًا في منزلها في الحي، وأخرى في منازل أصدقاء لها في المدينة، وغيرها من الأماكن المنتشرة في البلاد بشكلٍ دوري، وكان يحضرها جمعٌ من الناس من مناطق مختلفة، وتكسب من جرائها مالًا كثيرًا لقاء خدماتها.

ـ لكنْ.. ما هذه الخدمات التي تقدمها رنين للناس؟

سألتها، وكأني أبدو بسيطًا وساذجًا لا أعلم ماذا تفعله رنين في جلساتها الروحية؟ لأجل أنْ أبقى أستمع إلى رحمة، وهي تتكلم، وتبادلني الحديث، وهذه فرصة نادرة لي لتبادل الحديث الودي معها، وربما التقرُّب إليها أكثر.

ـ إنها تتدعي أنها يمكنها أنْ تستحضر أرواح الموتى، وتنقل أخبارهم إلى الأحياء من الناس، وكان كثير من البسطاء يصدقونها، ويطلبون خدماتها؛ لعدة أغراض منها: حقيقية لسماع أخبار أبنائهم، ومنها أخرى دافعها الطمع والجشع، أو الخوف.

- هل حقيقة أنها كانتْ تكلّم الأرواح؟

- أنا لا أدري ذلك بالتحديد، ولم أحضر في أي من تلك الجلسات الروحية، ولكنَّ بعض الناس، وبالأخص الغرباء منهم الذين يقدِمون إلى الحي للجلوس معها، كانوا يقولون إنَّ لها قدرة كبيرة على معرفة الغيب، والتكلُّم مع الغائبين عنهم كوسيطٍ روحاني.

- يعني أنَّ هناك ناس كانتْ تقدِم إلى الحي؛ لأجل الجلوس فقط مع رنين.

- نعم، لقد كانتْ وما تزال تتمتع بشهرة كبيرة، وأذكر في إحدى الأمسيات بينما كنتُ جالسة مع والدي في المحل قَدِمَتْ إلينا بعض النسوة، وسألننا عن محل إقامة رنين؛ لأنهن غريبات عن المكان، وجئنَّ من مكانٍ بعيدٍ جدًا، وتجرأ أبي وسألهم عن سبب زيارتهن إلى بيت رنين... وقالتْ إحداهن: بأنهنَّ سمعنَّ بقدراتها الكبيرة في أقصى البلاد، وهُنَّ قَدِمَنَّ للجلوس معها، وسؤالها عن زوجها المتوفي من زمنٍ... بعدها دلهنَّ والدي على مكان رنين، وطلب منهنَّ بعد انتهاء الجلسة بالعودة إلى المحل؛ كي يجد مَنْ يوصلهنَّ، ويعود بهنَّ إلى محل سكناهنَّ البعيد، وبالفعل رجعنَّ إلى المحل بعد انقضاء زهاء الساعة من الزمن في بيت رنين، وكانتْ تلك المرأة في حالة بكاءٍ وغضبٍ وحزنٍ في نفس الوقت، وبعد أنْ هدأ روعها قليلًا، سألها والدي عن سبب حزنها وبكائها، وذكرتْ له أنها علمتْ من رنين بأنَّ زوجها المتوفي كان قد تزوج غيرها في السر لعدة سنين، وله أطفال من تلك الزوجة الأخرى، وقد وهبها أكثر حصة من ماله قبل أنْ يتوفى، وتناله المنية، وكانتْ تذكر قصتها، وهي

جدًا متأثرة بما سمعته من رنين، وسألها أبي: إنْ كانتْ المرأة قد صدقتْ برواية رنين عن زوجها... فأجابته بأنها كانتْ لديها شكوك في الماضي عن زوجها من خلال الأخبار والإشاعات، التي كانتْ تصلها من أصدقائها، ولكنَّ رنين ذكرتْ لها اسم المرأة، وأسماء أبنائها، ومحل سكنهم، وقد اتصلتْ حالًا بأقاربٍ يعيشون هناك في نفس مكان تلك المرأة المزعومة؛ للتأكد من صحة روايتها قبل أنْ تدفع لها أجرتها، وأكدوا لها الخبر، وأنهم يعرفونها، ويعرفون أولادها كذلك.

وكنتُ أستمع إليها، وأنا في حالة صدمة، وتعجب عن كيفية معرفة رنين لتلك الأشياء، على الرغم من أنَّ زيارتهن كانتْ مفاجئة لها، وهُنَّ يسكننَّ في أقصى البلاد، ولا يوجد أي سابق معرفة بينهنَّ مما آثار في نفسي الدهشة والإعجاب بقدرات رنين الخيالية، وحتى والدي بقي صامتًا غير مصدق لما سمعه، وكما تعلم أنَّ والدي لا يصدق مثل هذه الترهات ـ كما يصفها هو نفسه ـ لكنه ظل بعدها صامتًا لا يجيب أسئلتي له لتبرير كيف علمتْ رنين بكل هذه الأخبار، التي كانتْ صادقة بحسب قول المرأة.

ـ أفزعتِني يا رحمة، وأحس الآن بالخوف منها كوني أنا مَنْ أبلغتُ الشرطة عنها، وكنتُ السبب في إلقاء القبض عليها وإيداعها السجن، ولكنْ اسمعي قد تكون رنين قد حصلتْ على تلك المعلومات من الشبكة العنكبوتية بعد أنْ أخذتْ كل التفاصيل منها عن زوجها، لا أدري، أنا أحاول التبرير بأي شيء لخوفي منها، ومن انتقامها المرتقب.

تظاهرتُ بالرعب، والقيام ببعض الحركات التمثيلية لأقرِّبها أكثر منِّي.

قَدِمَتْ رحمة باتجاهي حيث كنتُ جالسًا، وأخذتْ كرسي لتجلس عليه، وهدأتني بالكلام:

ـ لا تخف يا صالح، فالكثيرون من أهل الحي، وغيرهم من الناس اشتكوها للشرطة، وكانوا جدًا ساخطين عليها، وضجرين من أعمالها، وكانتْ على وشك الذهاب للسجن لولا تدخل أحد المسؤولين من الذين تعرفهم ويا ليته لم يتدخل، المهم صدر أمر بحجزها داخل المنزل لفترة محددة، ولكنها لم تلتزم أبدًا بأي قرار أو أي حجز، وكانتْ تخرج دائمًا حتى يئس أهل الحي، وتقبلوا الأمر على ما هو؛ لأنه أيضًا كان يجلب لهم المال من قِبل الناس القادمين إلى الحي لزيارتها.

ـ هل تعتقدين أنها يمكن أنْ تخرج كذلك من السجن؟

ـ لم لا؟ فقد تبرأ من كل التهم عليها، ربما أنا لا أدري ذلك، ولكنَّ لها اتصالات كثيرة، ومعارف عدة ممن يحتاجون خدماتها دائمًا، وقد يخففون عنها الأحكام، وتعود إلى الحي كما كانتْ من قبل تمارس ما تعودتْ عليه.

ـ أنا لا أؤمن بهذه الأشياء التي ذكرتها، وعن قدرات رنين المزعومة، على الرغم من كوني أبدو لكِ فلاحًا بسيطًا، ومن السهل التأثير عليه، ولكني أهاب الشر الذي قد يأتي بأي شكل، وبرغم من كل هذا التطوُّر والتقدُّم، الذي يحصل الآن يبقى الكثير من الناس يؤمنون، ويروجون لتلك الأعمال، ويهبون كثير من المال لسماع ما خفي من قصص وروايات خرافية.

ـ ليس لذلك أي علاقة له بالتطوُّر فيما تفعله رنين، ولكنه تعبير عن رغبات الناس وغرائزهم في محاولة كشف المخفي، والمجهول هو الدافع، وسوف يبقى حيًا في كل الأزمان والأوقات.

ـ ألم تحضري حقيقة أي جلسة من هذه من قبل؟

ـ قلتُ لكَ: لا لم أحضر أي من جلساتها.. ليس لدي أي اهتمام بمعرفة أسرار الغير، ولكنْ أعرف بعضًا من أهل الحي الذين كانوا يذهبون إليها، ويلتمسون منها تلك المعرفة الغامضة.

ـ هل وصفوا كيف كانتْ تعمل هذه الجلسات الروحية؟

ـ نعم، يبدو عليكَ الاهتمام جدًا بالموضوع؟ (قالتها رحمة بسخرية وهي تنظر إلي).

ـ هي نفس الغريزة التي وصفتِها عند الناس، وأنا واحد منهم من المولعين بكشف الخفايا غير الخرافية.

نظرتْ إلي بابتسامة رقيقة، وتابعتْ كلامها:

ـ كانتْ بحسب ما ذكروا لي، ترتدي رداءً حريريًا طويلًا داكن اللون يغطيها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، ويعتمر رأسها قبعة، وتتدلى على صدرها قلادة من الذهب تحمل رموزًا خاصة، ويجلس الحاضرون على بعض الكراسي المعدة لهم، وتقف هي في منتصف الغرفة على سجادة دائرية كبيرة فيها رسوم وتعاويذ، ومحاطة بالشموع، وبالقرب منها طاولة عليها كأس فيه بخور متوقد، وبعض التعاويذ المرسومة على شكل حلقات معدنية بجانب عصا خشبية داكنة اللون، وكتاب كبير أسود الجلاد، وتبدأ في تلاوة بعض القراءات منه، وتردد الكلمات غير المفهومة للحاضرين

هناك، وتبقى متجمدة، وفي شبه غيبوبة هكذا لفترة من الوقت إلى أنْ تبدأ في الكلام مخاطبةً الروح، أو ما تدعي، وهي في حالة ارتجاف وارتعاش، وتحصل بعض الأشياء الغريبة في الغرفة إلى أنْ تصحو من غيبوبتها، وينتهي كل شيءٍ.. هذا ما قالوه لي، وقد يكون هناك ربما المزيد، والذي لا أعلمه.

سألتها بشغفٍ ظاهر لها:

ـ هل تعلمتْ هذا الشيء أم أنها موهبة خاصة تمتلكها أم ماذا؟ قولي لي يا رحمة.

ـ لقد أخذتْ هذه المقدرة من جدتها المتوفية على ما يبدو، والتي كانتْ مشهورة بهذه الأعمال، وهي مدفونة الآن في مقبرة تقع على تخوم الحي.

ـ إذن هذه الأمور تجري في الحي لعددٍ من السنين؟

ـ نعم لعقودٍ من السنين في زمن جدتها، ولا أعلم قبل ذلك.

ـ الذي يذهلني أكثر شيء، هو عدم معرفة الشيخ بهذه الأشياء رغم أنه يعيش هنا لفترة طويلة.

ـ هل الشيخ لا يعلم بما كانتْ تفعل رنين وجدتها من قبلها؟ (سألتُ رحمة، وهي تنظر إلي باستغرابٍ، وعدم تصديق شديد).

ـ هذا ما قاله لي عندما سألته، وأخبرته عمَّا قاله الشرطي المستجد في الحي عن رنين، وأبدى تعجبًا، وعدم فهمه لما يجري من أمور في الحي.

ـ ربما.. هنا الأشياء في الحي تبدو مقلوبة، وغير واقعية، وصعب الإدراك، والتمييز بين الصح والخطأ، وقد يكون ابتعاده عمَّا يجري

هو السبب في عدم علمه، أو تغاضيه، وتغييب الذهن عن كل شيءٍ لا يخصه، وقد يكون لكثرة الإشاعات، والأخبار المضخمة من قِبل الناس، جعله لا يصدق أي شيء يُقال في الحي.

ـ هذا ما قاله لي: إنه كان يذهب للخلوى والانزواء، ويفرغ ذهنه عن كل شيءٍ يسمعه حوله كنوعٍ من الاسترخاء الروحي، والراحة الذهنية، وهروب من الواقع الصعب، ويكون هناك في حالة سكون، ويعود بعدها إلى الخان في أتم النشاط، والحيوية، ومنفتح الذهن.

رفعتْ رحمة رأسها بعد أنْ كانتْ تداعب هاتفها النقَّال، وظلتْ صامتة تنظر إلي لبرهة من الوقت، ثم سألتني:

ـ هل قال لكَ؟.. أين كان يذهب للاختلاء؟

ـ لا.. وهل هذا مهم؟

ـ ربما.

نهضتْ رحمة من مكان جلوسها، وسارتْ إلى خارج الخان، وتبعتها إلى الرواق.. كان النهار جميلًا، وممتلئًا بالضياء، ولا نسمع سوى دوي السيارات من بعيد في الطريق السريع، وتعلوها زقزقة الطيور، وهديل الحمام، واستوتْ على إحدى الأريكات، وجلستُ بجانبها أنظر إليها ـ كما ينظر التلميذ إلى معلمته في شوقٍ إلى سماع المزيد من الحكايات المثيرة.

ـ هل ترى هناك في ذلك الاتجاه تل صغير؟

وأشارتْ بيدها بجهة الغرب إلى الأفق، حيث يبدو من بعيد تل صغير محاط ببعض الأشجار، وأجبتها مستغربًا:

ـ نعم أراه هناك.

- هذا التل يشرف على مقبرة الحي المغلقة منذ زمانٍ بعيد، وهو منعزل تمامًا، ولا يذهب أحد إليه سوى البعض من الناس.. أقصد الناس من شاكلة رنين، والتي كانتْ تذهب هناك في أوقاتٍ محددة من الأيام في اللَّيل، حيث لا يجرؤ أحد على الذهاب، والتقرُّب من المكان في هذا الزمن.

- لماذا؟

- بعد وفاة جدة رنين، ودفنها هناك حدثتْ ظاهرة غريبة، حيث بدأتْ الطيور تعشعش حول قبرها، وتحوم حوله، ولا تغادره أبدًا وكأنها تحرسه، وخشي الناس كثيرًا، وأُغلقتْ المقبرة، ولم يعد أحد يقدر الاقتراب منها، ولا يدفن أي ميت فيها، وحتى أهالي المدفونين هناك، كانوا يتجنبون الزيارة، والابتعاد عنها؛ لخوفهم مما يحدث هناك، وسماعهم لكثير من الشائعات المخيفة، وحصول بعض الحوادث المريبة في هذه النواحي، وهذا التل يشرف مباشرة على المقبرة، ويحاذيها، وفيه بعض الكهوف الصغيرة، أو ربما فتحات تؤدي إلى ممرات داخله، لا نعلم مَنْ يسكنها، أو يعيش فيها، وإلى أين تؤدي تلك الكهوف، لم يجرؤ أحد على دخولها بعد.

- طيور تعشعش حول القبر؟ ربما بسبب كثرة الدود هناك... قولي لي: وماذا يفعلون هناك جماعة رنين في محيط التل؟

- لا أعرف بالضبط، ولكنهم يذهبون إلى هناك وقت اللَّيل، ويشعلون نارًا، ويجلسون بشكلٍ دائري حولها، ويمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويرددون بعض القراءات، وربما تعاويذ فيما عدا رنين، التي تقف بالقرب من كرة النار لوحدها مرتدية رداءها

الطويل الداكن مغطاة الرأس، وترمي بعض الأشياء في النار، وكانتْ تحدث ظواهر غريبة، كنا نهرب من خوفنا، ونترك المكان عائدين إلى الحي.

ـ كنتِ تذهبين هناك؟

ـ نعم كنتُ أودُّ أنْ أعرف ماذا يفعلون؟ والفضول كان يثير الجميع في الحي على الرغم من خشيتهم مما يفعلون هناك.

ـ هل كانتْ رنين تعلم بوجودكِ هناك؟

ـ لا أعتقد ذلك؛ لأنها كانتْ تعلم أنَّ الجميع كانوا يهابون الاقتراب من المنطقة، وبالأخص في اللَّيل، وأظن أنها كانتْ منغمسة جدًا في القراءة وترديدها وعمل الشعائر، ولكني هربتُ من المكان عندما بدأتْ تقوم ببعض الحركات الغريبة، وبدأتْ تنظر حولها بغضبٍ والشر يتطاير من عينيها؛ـ كما كانتْ تبدو لي من بعيد.

ـ كانتْ تجربة فريدة في منتصف اللَّيل يا رحمة، وبالأخص كيف رأيتِ الشر يتطاير من عينيها في اللَّيل؟!

نظرتْ إلي، وغصتْ في الضحك، وقالتْ لي:

ـ المتعة أنْ تكتشف بنفسكَ ما يهابه الآخرون.

ـ ولكنكِ لم تذهبي إلى بيتها لحضور هذه الجلسات؟

ـ للمرة الثالثة أقول لكَ: لا لم أحضر أيًا من جلساتها الروحية. وذهابي إلى ذلك المكان في اللَّيل، كان من شدة الفضول، وهوج المراهقة.. نسيتُ أنْ أذكر لكَ أنها كانتْ تحمل في يدها طفلاً رضيعًا، أو ما خُيِّل لي في ذلك الوقت، عندها كانتْ واقفة بجانب شبه طاولة حجرية مستوية بقرب شعلة النار المتوهجة بشدة.

- طفل؟.. وماذا تفعل به في مثل هذه المراسم السحرية؟

- لا أدري؛ لأني كنتُ قد رحلتُ عندها مسرعة في جنح الظلام.

ساد الصمت بيننا، وأسبرتُ في فكري أُراجع ما قالته لي رحمة عن رنين، وبقينا جالسين كسالى في الرواق لعدم قدوم أي من الزوار في ذلك الحين، نشتم عبير النسيم القادم من المزارع القريبة من الخان، وأحسستُ أني قد اقتربتُ قليلًا من رحمة بعد هذه المحادثة الطويلة لوحدنا، وأفضتْ لي ببعضٍ مما تفكّر به، وعن بعض مغامراتها على الرغم من أنَّ الموضوع، الذي كنا نتكلَّم عنه قد أدخل الكثير من الهواجس في قلبي، وأصبح المكان مخيفًا بما يحيطه من غموض، وغرائب، وطقوس غير مفهومة لي تمارس من قِبل البعض من السحرة المجانين.

لم تدم جلستنا اللذيذة كثيرًا في الرواق، حتى قَدِمَ بعض الزبائن الذين قطعوا هذه الفرصة النادرة، التي كانتْ تجمعني مع رحمة، وبدأنا عملنا المعتاد في خدمتهم.

ولم يمر وقت طويل إلى أنْ عاد الشيخ إلى الخان في نهاية النهار، وجلس إلى إحدى الطاولات، ولم يقل أي شيء، وعرفتُ أنه مستاء من شيءٍ ما، وربما بعد حين يبدأ بالكلام عندما يهدأ، ويرتاح فكره من غبار الرحلة إلى المدينة.

جلسنا مع الشيخ، الذي قَدِمَ متعبًا ومغتاظًا بعض الشيء عقب رحلته إلى المدينة؛ لزيارة رنين في السجن، وقدَّمتْ له رحمة بعض الأكل والشاي؛ ليعينه من التعب، وانتظرتُ أنا بترقبٍ حديثه عمَّا جرى في السجن، ولم يدم الانتظار طويلًا، حتى بادر هو بالكلام:

ـ لقد كانتْ تجربة سخيفة، وغبية، ورحلتي إلى هناك حقيقة كانتْ بلا طائل ولا جدوى.

ـ هل رفضتْ مقابلتكَ أم أنَّ الشرطة غيروا رأيهم ومنعوا الزيارة؟

ـ لا.. لقد قابلتها، وتحدثتُ معها، ويا ليتني لم أفعل.

وصمت الشيخ؛ ليرتشف الشاي، ونحن ننتظر إكمال حديثه بتشوقٍ شديد.

ـ وصلتُ عند الصباح إلى مركز الشرطة الكبير، الذي يقع في قلب المدينة بحسب طلب الشرطة منِّي بالأمس، وانتظرتُ في قاعة الاستقبال مدة من الزمن، ثم قادوني إلى قسمٍ آخر، يقع في خلف البناية، وفيه أشاروا إلي بالجلوس في مكانٍ مخصص للزوار، وقَدِمَتْ رنين، وجلستْ في مواجهتي، ويفصلنا لوح زجاجي مغلق، ولكنْ كنا قادرين على سماع بعضنا بوضوح، وبادرتْ هي بالكلام، وطلبتْ منِّي أنْ أُسامحها على ما جرى إلى ابني سعد، ولم تقصد أبدًا الإساءة له، أو التسبب بأي أذى لأي أحد، ثم بدأتْ بعد ذلك بالهذيان والأقوال السخيفة، عندما قلتُ لها: إني قد أُسامحها إنْ اعترفتْ بكل شيءٍ، وأتمنى أنْ يسامحها ابني كذلك، والذي لن أراه أبدًا بعد أعمالها الشريرة... وأجابتني: إنَّ ابني سعد قد سامحها، وأنها تكلَّمتْ معه، وأنه غير غاضب أبدًا منها، ويتفهَّم ما قامتْ به لاسترجاعه إليها، ومن شدة حبها له، وأنه قد أوصاها بابنه سلمان، وأنها وعدته برعايته بعد انقضاء المحكمة، وأنها بريئة من التهم الموجهة إليها، وسوف تثبت براءتها، وتخرج بعدئذ من محنتها تلك، وكل ما جرى إليها كان بدافع الحقد والغيظ من قِبل زوجته

السابقة، والتي هي المجرمة الحقيقية، وأرأدت إيقاعها، أي: رنين في نفس الجريمة، التي ارتكبتها هي بحق زوجها المظلوم، والأمر سوف ينجلّي في المحكمة القادمة قريبًا، وأنَّ لديها محامين عنها، فندوا أقوال الزوجة السابقة، وأنها على أحر من الجمر في انتظار جلسات المحكمة.

بهتَ وجهي، وأحسستُ بالغثيان من سماع هذه الأقوال، وسألتُ الشيخ:

ـ هل كانتْ تمزح أم أنها كانتْ تهذي بالكلام؟

ـ لقد كانتْ تتحدث بكل جدية، وثقة عالية بالنفس، وكانتْ أيضًا في نفس الوقت ترتدي ملابس أنيقة ومتسقة، ويبدو عليها الراحة في السجن، على عكس ما كنتُ أتوقع قبل رؤيتها صباح اليوم، حيث قلتُ لنفسي: أني سوف أجد إنسانًا منكسرًا، ومحطمًا، وبحال سيئ جدًا، وسوف تطلب المغفرة طمعًا بأي وسيلة للنجاة.. ولكنَّ ظني قد خاب تمامًا.

ـ كيف تحدِّث رنين ابنك المرحوم؟

سألتُ الشيخ بسخرية، والذي لم يجب لفترة من الصمت بعد أنْ غلبته المشاعر.

ـ سألتها نفس سؤالكَ يا صالح، وأجابتني: إنه قد قَدِمَ إليها بناءً على طلبها هي من خلال جلسة روحية عملتها في الموقف، الذي تقبع فيه، وتكلَّمتْ معه، وأنه مرتاح هناك في ذلك العالم الآخر، وغير نادم على فعلته المجنونة تلك.

- إنها مجنونة بلا شك، وقد يكون لديها انفصام بالشخصية، وهذا ما يظهر على المصابين به من تخيُّلات غير طبيعية وغير حقيقية، ويمكن من الأفضل لها أنْ تحوَّل إلى مستشفى الأمراض العقلية؛ لمعاينتها وربما علاجها، وقد تفضِّل هي أنْ تبقى هناك، لأنَّ الأشخاص الوحيدين، الذين يفهمونها هم الساكنون هناك معها.

قلتها بجدية، وهدوء، وأكملتُ كلامي:

- إنها تتهكم حتى على الأموات، ولا يوقفها أحد ما، ويمنعها من تلك الممارسات حتى في السجن.. ألم تذكر ذلك للشرطة؟.

ساد الصمت مرة أخرى، حتى بادرتْ رحمة بالكلام:

- ماذا قالتْ الشرطة لكَ عقب المقابلة؟

- إنهم جادون في مسعاهم؛ لإثبات التهم عليها، ويجب أنْ لا أعبء كثيرًا بكلامها السخيف هذا، وأنهم كانوا يتوقعون أنْ تعترف بجرائمها، وخاب ظنهم، ولكنهم سيبقون ساعين بكل جهدهم؛ لإثباتها عليها.

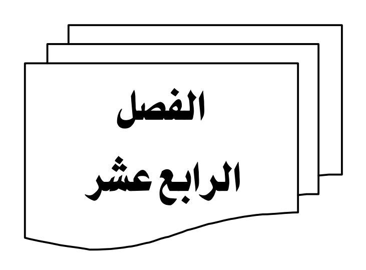
- إذن لم يبقَ سوى سلمان؛ لإثبات التهم عليها.

قلتها بنبرة استسلام، وسألتُ الشيخ:

- هل ذهبتَ إلى دائرة الأوقاف لإخبارهم عن الخان؟

- نعم، لقد ذهبتُ إلى هناك، وتحدثتُ إلى أحد المسؤولين عن الإدارة، وأخبرته عن نيتي الرحيل عن الخان، وعدم قدرتي على إدارته لسوء حالتي الصحية، ولكني لستُ في عجلة من تركه إلى أنْ يجدوا الشخص المناسب؛ ليحل محلي في إدارة المكان، وأخبروني بأنَّ الأمر يعود لسمو الأميرة، التي هي الآن المشرفة

على إدارته، وسوف يخبروها بالأمر؛ لترى ما هو مناسب لها، وانتهى الأمر عند ذلك، وعدتُ إلى هنا بانتظار أوامر صاحبة السمو، وما تقرره بشأن مستقبل الخان.



الفصل الرابع عشر

كان الانتظار لتحديد ما سوف أعمله لمستقبلي عملية بطيئة ومملة، وتبدو بلا نهاية، وجميع الخطط التي كنتُ قد وضعتها لنفسي عندما قررتُ الرحيل إلى المدينة، قد انقلبتْ رأسًا على عقب، وأصبحتُ مجددًا في دوامة وحيرة شديدة لما سوف أقرره، وبمراجعة فكري، فإنَّ هناك عدة احتمالات يمكن أنْ أقرر أحدها، وكلها تبعث الأسى والحزن في كل اختيار مهما كان يبدو جيدًا.. فذهابي إلى المدينة مع الشيخ وسلمان، سوف يحرمني من الخان، الذي أعجبني كثيرًا العمل فيه، وكونتُ صداقة مع الزوار والقادمين إليه، وكذلك تعودتُ على ظروف العمل فيه، والأهم من هذا كله هو وجود رحمة إلى جانبي وبقربي.. وخيار البقاء هنا في الخان معناه ابتعادي عن سلمان، الذي أصبح جدًا عزيزًا علي وصعب فراقه، وكذلك الشيخ الذي لا يقدر لحاله أنْ يعتني بسلمان.. والخيار الأخير والمتبقي لي هو العودة إلى قريتي وأهلي ونسيان كل شيءٍ، وهذا هو أصعب خيار، ومجرد التفكير فيه يفطر فؤادي، ويدمع عيني، ويجرح كرامتي وكبريائي بعودتي هاربًا من المسؤولية، وخائبًا وفاشلًا لم أحقق أي شيء من أهدافي، وكانتْ رحلتي بعيدًا عن القرية، هي

عبارة عن نزوة شخصية أنانية معبِّرة عن رفض طفولي لحالي البائس هناك، وفشلي في تغيير واقعي، الذي فرض علي كوني ضعيفًا وخائفًا وغير قادر على إنجاز أي شيء خارج دائرتي الضيقة، وبالتالي موهبتي الوحيدة، هي أنْ أشقَّ هذه الأرض، وأتبع أوامر أبي، وأحتضن حبات الطماطم عند جمع المحصول، وتقليم الأشجار المرتفعة، وتشغيل ماتور الماء؛ لمساعدة النواعير المتهالكة في سقي الأرض وغيرها... إنها كوابيس تراود ذهني، الذي يعوم في بحرٍ هائج مائج وسط أمواج عاتية، ويتمنى الرسو في أي ميناء، يرمي فيه مرساته، ويحقق فيه طموحاته وأحلامه، التي لم تفارق ذهني أبدًا. لكنْ إلى أنْ ترسو تلك الأحلام أقوم بعملي هنا في الخان، وأتناسى همومي بالاستغراق في العمل نفسه، وخدمة الزوار، وتبادل الحديث معهم؛ لأختصر ساعات التفكير الممل بلا نتيجة سريعة، ويمرُّ اليوم كحال كل الأيام الماضية في رتابة مملة، ولكني أتجرعها كون رحمة تعمل معي بجانبي وبقربي، وخطرتْ في بالي، وأنا مستغرق في العمل فكرة مجنونة كجنون رحمة وقت المراهقة، وسألتها:

ـ هل تودين أنْ تأتي معي للذهاب إلى هناك؟

ـ إلى أين يا صالح؟

نظرتْ إلي رحمة باستغرابٍ، وعدم فهم لما أقول.

ـ إلى التل الذي حكيتِ عنه بالأمس.

ـ وماذا تود من زيارتكَ تلك إلى هناك؟

ـ الفضول يا رحمة، لقد شوقتِني كثيرًا، وأودُّ مشاهدة المكان والتعرُّف عليه.
ـ تعرف أننا مشغولون هنا كثيرًا، ولا يوجد أي وقت للذهاب هناك.
ـ عند نهاية عملنا يمكنكِ أنْ تأخذيني إلى التل ذاك.
ـ عندها تكون الشمس قد غابتْ وبدأ حلول الظلام.. ألّا تخاف من الظلام؟
ـ لا.. لأنكِ سوف تكونين بجانبي.
ضحكتْ بشدة من أعماق نفسها، ولم تجبني، ولكني فهمتُ من سكوتها أنها موافقة، وسترافقني لزيارة المكان، وأردفتْ بالكلام:
ـ يجب أنْ تخبر الشيخ عن خطتكَ هذه.
ـ نعم يجب أنْ يعلم إنْ حدث أي مكروه.
ـ ماذا يمكن أنْ يحدث؟ (سألتني رحمة بضحكة أخرى).
ـ لا أدري.. ربما ينهض أحد الموتى من شدة إعجابه بحُسنكِ، وروعة جمالكِ.
قلتها بعفوية، وبلا وعي، وغير مدركٍ للعواقب، ونظرتْ إلي رحمة، واستدركتُ الأمر:
ـ آسف جدًا.. زلة لسان.

وخرجتُ من المطبخ محرجًا إلى الصالة، أبحث عن الشيخ الذي كان جالسًا مع أحد الزوار يتبادل الحديث معه، ولم أقاطعهما، وخرجتُ إلى الرواق؛ لأشتم عبير الهواء، وأداري حرجي، وأسأل نفسي: كيف تجرأتُ على مثل هذا القول؟ والآن هي ربما تعرف أني معجب بها، وربما سوف تتجنب الكلام معي، أو تتجنبني

بالكامل لا أدري ردة فعلها، ولكنْ أتمنى أنْ تمرَّ هذه العفوية في الكلام بسلام، وبدون عواقب.

خرج الشيخ مرافقًا الزائر، الذي كان يتبادل الحديث معه، وودعه، ووقف إلى جانبي؛ ليكمل حديثه معي:

ـ لقد فرغ الخان هذه الظهيرة بسرعة، وعاد الهدوء إليه؛ كما قلتُ لكَ سابقًا:

ـ إنَّ ازدياد عدد الزوار في الأسابيع الماضية، لم يكن سوى فورة مؤقتة حدثتْ ما بعد المهرجان. والآن عاد الخان إلى سابق عهده تقريبًا من حيث أعداد القادمين إليه.

ـ نعم، لقد كانتْ فترة صعبة في العمل لكننا تغلبنا عليها، وعادت الأمور تحت السيطرة.. أتود أنْ تشرب الشاي؟

ـ نعم أودُّ ذلك.

ـ استريح هنا، وسأجلب الشاي، وأنادي رحمة من المطبخ.

مشيتُ إلى المطبخ بتأني، وكلَّمتُ رحمة التي كانتْ منهمكة ببعض أعمال التنظيف:

ـ لقد ذهب الجميع، سوف أعمل الشاي.. هل لدينا بعض الكعك؟

ـ نعم يوجد في البرَّاد.

ـ هل سوف تشاركينا؟

ـ نعم، لِمَ لا؟ سوف أنهي عملي هنا الآن.

أجابتني باقتضابٍ، وبهدوءٍ، وفهمتُ أنها غير منزعجة من ملاحظتي الجريئة، وقد تناستْ الموضوع على ما يبدو، وخرجتْ هي إلى الرواق، فيما أنا أنهيتُ إعداد الشاي، ووضع الكعك على

الصحون، وأخذتهم في صينية إلى الرواق، وجلستُ إلى جانبهما، بعدها بادر الشيخ بسؤال رحمة:

ـ ما رأيكِ يا رحمة بالعمل هنا بعد هذه المدة؟ هل غيرتِ رأيكِ أم لا زلتِ تودين الخان وعمله؟

ـ نعم، بالتأكيد العمل هنا أصبح أهدأ بعدما ازداد قليلًا بسبب المهرجان، والآن تبدو الأمور جيدة، وأنا مرتاحة، وليس لي أي متاعب، أو مشاكل مع العمل، وجميع رواد الخان مؤدبين، ولم ألاقي أي مشكلة مع أحد عكس عملي في المتجر مع أبي، حيث كنتُ أسمع بعض الكلمات الجارحة، والتعليقات السخيفة من أهل الحي الفضوليين.

ـ نعم، يا ابنتي بعض الناس لا ترحم في كلامهم الجارح، الذي يعبِّر عن دخيلتهم المريضة بأدران الغيرة والحسد، الذي يأكل البدن من الداخل، ويجعل اللسان ينطق بما تفيض به النفس من سقمٍ وعلة.

بادرتُ بالكلام، وأردتُ تغيير الموضوع؛ لأني لاحظتُ التأثر بادي على محيا رحمة من الحديث، وقلتُ للشيخ:

ـ سوف أذهب برفقة رحمة؛ لزيارة تل الراهب بعد أنْ ننتهي من عملنا هنا عند العصر.

نظر إلي الشيخ بتعجبٍ، وسألني:

ـ ماذا تروم من ذهابكَ إلى هناك؟

ـ فقط بسبب الفضول لما سمعته من رحمة عن المكان، وحقيقة هناك شيء ما في داخلي يشدني، ويدفعني إلى زيارة المكان.. هل تعرفه يا شيخ أقصد المكان؟.

ـ نعم أعرفه، وكنتُ أذهب إليه عندما كنتُ لا أزال شابًا يافعًا بعمركَ من زمنٍ بعيدٍ جدًا.

قالها الشيخ، وهو يبتسم، واستطرد يكمل كلامه:

ـ لكني لا أدري اليوم ما حلَّ به، ومَنْ يرتاده، ويذهب إليه في مثل هذا الوقت.

ثم نظر إلى رحمة متسائلًا:

ـ ماذا تعرفين عن المكان؟

ـ ليس بالكثير، سمعتُ أنَّ هناك بعض الناس ومن ضمنهم كانتْ رنين، يذهبون هناك لأداء شعائر، وطقوس غريبة، ولستُ متأكدة من غايتهم لمثل هذه الممارسات، وشاهدتهم في أحد الأحيان يتجمعون هناك، ولكني لم أبقَ لمشاهدة ما يجري بعدئذ... ماذا كنتَ تفعل هناك وقتئذ؟. (سألتْ رحمة الشيخ).

ـ كنتُ أذهب لكي أتأمل، وأصفي فكري وذهني، كان المكان خاليًا، ومحيطه جميل، ويعمه السكون، وكنتُ أجلس هناك لعدة ساعات بلا أنْ أشاهد أي فرد، وأعود بعدها للخان بطاقة تملأ بدني، وهدوء يعم ذهني.

ـ لماذا انقطعتَ عن الذهاب هناك؟

ـ تسلمتُ مسؤولية الخان، ولم يعد لي وقت للراحة بالإضافة إلى زواجي ازداد انشغالي أكثر من قبل، وفكرتُ أنَّ خروجي هكذا لعدة ساعات، قد يثير الشبهات عند البعض، وفضلتُ الانقطاع عنه.

أجاب الشيخ بحسرة، وكأنه افتقد الذهاب إلى هناك.

لكنَّ رحمة، كان يبدو أنها لها غاية من الكلام، وتمادت في سؤال الشيخ عن المكان:

- هل تعرف جدة رنين؟

نظر الشيخ إلى رحمة، وبعد صمتٍ أجابها:

- نعم أعرفها، لقد توفيتْ منذ زمنٍ بعيدٍ، ودفنتْ في المقبرة قرب التل.

- يقال إنَّ بعد دفنها في المقبرة تلك أصبح المكان ملعونًا، ولم يعد أحد يقدر أنْ يذهب إلى التل، ولا إلى المقبرة خوفًا من أنْ تلحقه أي بلاء، أو لعنة من هناك.

- ربما؛ لأنها كانتْ حينئذ مشهورة بقدرتها على قراءة البخت، والاستبصار بالمستقبل، ولستُ متأكدًا أنها كانتْ تعمل السحر، لكني سمعتُ عن قدراتها.

انحشرتُ في المحادثة لأسأل الشيخ:

- يعني أنَّ رنين أخذتْ هذه القدرات عن جدتها؟

- لا أعرف، إنْ كانتْ هذه الأشياء يمكن أنْ تتوارث، ربما قد أعطتها بعض الدروس، ووهبتها بعض الكتب، لتعلّمها مثل هذه القدرة المتميزة، لم أكن أؤمن بهذه الأشياء أبدًا، ولذلك لم أُصدق ما قيل عن رنين في البدء، وحتى جدتها أنا لم أذهب عندها أبدًا لعدم اعتقادي بجدوى تلك الممارسات، وما تقولينه يا رحمة عن خوف الناس الذهاب هناك، هو قد يكون مبالغةً، وخوفًا لا داعي منه، وأظن ناس من أمثال رنين، هم مَنْ أطلقوا تلك الشائعات؛ لكي يخلو المكان لهم حتى يمارسوا طقوسهم الغريبة بحرية، وبدون مراقبة

أيًا كان، والناس هنا بسطاء التفكير، ويمكن من التأثير عليهم بسهولة، ولا تجد مثل هذا الشيء يحدث في المدينة.

سكتنا جميعًا بعد كلام الشيخ إلَّا أنَّ رحمة تملك في داخلها ما تود ذكره، ولم يطل الأمر كثيرًا، حتى سألتْ مرة أخرى:

ـ قلْ لي يا شيخ بصدق، أرجوكَ؛ لأنكَ أقدم مَنْ عاش هنا في الخان: هل صحيح أنَّ الأمير سلمان كان يقدِم هنا بكثرة إلى هذا المكان بالذات قبل أنْ يبنى ويكون "خان"؟

ـ نعم هذا ما سمعته من والدي، الذي كان يقدِم معه هنا لخدمته عندما يقيم الخيم في هذا المكان، ويمضون عدة أيام في الصيد، والليالي في قضم الشعر والأدب.

ـ هل صحيح أنه كان يقدِم هنا كذلك لأجل جدة رنين؛ لأنه كان كما يقال مولعًا بها جدًا، ووقع في حبها، وكانتْ فتاة يانعة في ذلك الوقت، وشاهدها بالصدفة عندما حط الرحال هنا للراحة وشرب الماء، وكانتْ هنا لوحدها، ويقال إنه هام بها، ولم يدخر وسيلة للتقرُّب إليها، وبدأ يقدِم هنا عدة مرات هنا لأجل أنْ يراها، وكانتْ تأتي عنده في خيمته ربما لقراءة البخت له، وعندما طلبتْ منه أنْ يتزوجها لإحساسها بشدة حبه لها، رفض الأمير طلبها، وحدث بعدها أنْ أصابه سقم المرض، ولم يشفَ منه أبدًا، ومات هنا في هذا المكان بعد فشل كل علاج له، والكل كان يعتقد أنها قد لعنته بهذا البلاء، الذي لا يمكن الخلاص منه، وعلمتْ زوجة الأمير بهذا الأمر، وبتفاصيله من والدك، والذي كان الأمير يأتمنه على كل أسراره، ولذلك طلبتْ الأميرة حينها بناء هذا الخان لأجل ذكرى

الأمير، وأمرتْ والدكَ بالبقاء هنا لإكمال بناء الخان وخدمته لأجل ذكرى الأمير، واعذرني يا شيخ، ولكنَّ الناس تقول: إنه ذلك كان عقابًا لوالدكَ؛ لكتمه الأسرار عنها، ولإبعاده عن المدينة، وعن دار الإمارة هناك؛ لإبقاء سمعة الأمير من غير شوائب قد تصل إلى أسماع أهل المدينة وباقي البلاد، إذا سُمِحَ له بالذهاب إلى هناك، وبعض الناس من أهل الحي يعتقدون أنَّ رنين عملتْ نفس الشيء مع ابنكَ، وحفيدكَ، وانتقمتْ بطريقتها السحرية الخاصة، وأنَّ عوق سلمان هو نتاج لتلك اللعنة.

اغتم الشيخ، وأشاح وجهه عنا في حزنٍ وكدرٍ، عند سماعه ما قالته رحمة، ولم يتكلَّم، وكظم الغيظ في داخله، وفهمتُ الآن لماذا يتجنب الذهاب إلى الحي والاختلاط بأهله؛ كونهم يسرِّبون تلك الحكايات السخيفة والأقاويل البلهاء عن والده وعن ولده وحفيده، إنهم بلا رحمة ولا يقدِّرون آلام الناس ومصائبهم وجروحهم، ويستنزفون كل قطرة دم ساقطة بلا رأفة بأحد بعقلية جاهلة يملأها غبار الماضي البائد.

استطردتْ رحمة، وكأنها أدركتْ عبثيتها في الكلام المؤلم، وكم تمأدت في الأذى إنْ كان مقصودًا، أو غير مقصود عواقبه، وقالتْ:
- أنا آسفة جدًا جدًا يا شيخ.
وبدأتْ هي كذلك بذرف الدموع، وكأنها صحوتْ ضمير، أو أنها تذكرتْ كلام الناس عنها، وكم يجرحها في مشاعرها، وتخيلتْ الألم الذي أصاب الشيخ من جراء كلامها.

ـ أرجو أنْ تسامحني؛ لأني لن أغفر لنفسي ما تفوهتُ به، وأنا أدرك أنه أصابكَ في صميم الجرح، وكل ما قلته كلام، أو شائعات يتداولها الناس في الحي، وأرجوكَ مرة أخرى أنْ تسامحني، وإذا وددتَ فلن أُقدِم إلى هنا بعدئذ إنْ كان هذا يؤلمكَ يا شيخ.

ـ انا أعلم ماذا قال الناس؟ وماذا يقولونه عنا الآن وفي السابق؟ في الماضي كنتُ أحزن كثيرًا، وأبتعد عن الدنيا، ولا أُكلِّم أحدًا، ولكنْ بعد هذا العمر، وهذه الشيخوخة لم يعد لي مقاومة تذكر، وبدني يتقبل السهام بترحاب، وهذه الدموع هي آخر ما لدي لأُعبِّر به عن ما يجتري نفسي، وأرجوكِ أنْ تبقي في العمل في الخان لأجل الجميع هنا، ولا تهتمي فلستُ غاضبًا أبدًا؛ لأنَّ ما حدث كان في الماضي وولى بلا رجعة، وما فعلته رنين سوف تأخذ جزاءها، وسوف تعاقب عليه بالقانون، وفي المحاكم.

عمَّ الصمت على المكان، ولا أعرف ماذا أقول؟ لأنَّ الكلمات قد غابتْ عني، ولا أعرف ما يعتريني لسماع مثل هذه الأحداث، التي جرتْ في الخان، ولا زالتْ تجري ليومنا هذا، وأتساءل في نفسي: هل حقيقة أنَّ الإنسان يملك مثل هذه القدرة على إيذاء غيره؟ وهل كل علاقة يجب إما أنْ تنتهي بالزواج أو بالموت؟.

لكنَّ شوقي ازداد بعد سماعي لتلك الأحداث؛ لزيارة المقبرة، وتل الراهب، واستكشاف أي شيء غير طبيعي هناك لإرضاء فضولي اللامتناهي.

نهضتْ رحمة، وذهبتْ متجهة إلى داخل الخان، وقبل أنْ تغيب، قال لها الشيخ:

ـ أرجوكِ أنْ لا تذهبي مساء اليوم إلى تل الراهب برفقة صالح.. المكان بعيد، وسيحل الظلام قريبًا، ولا أودُّ أنْ يحصل لكِ أي سوء من ذهابكِ إلى هناك، أو جراء تأخركِ بالعودة لداركِ، وقد ينشغل أهلكِ كثيرًا بتأخركِ عن وقت عودتكِ المعتاد، يمكن لصالح أنْ يذهب لوحده، وسوف أدله على الطريق إنْ أراد حقيقة الذهاب إلى هناك.

ـ طيب يا شيخ.

هذا كل ما أجابتْ به رحمة، ودخلتْ إلى صالة الخان.

وبعد أنْ ابتعدتْ، قلتُ للشيخ بشيءٍ من العتب:

ـ هل تخشى على رحمة منِّي؟

ـ لا يا صالح أنا أثق كل الثقة بخلقكَ وأدبكَ، وأعرف ما هو معدنكَ، ويبدو أنكَ أسأتَ فهمي، ولم تفهم مرادي، أنا حقيقة أخشى عليها، ولكنْ ليس منكَ، ولكنْ يجب الحرص على سمعة رحمة، وهي كما تعلم مطلقة، وعندما تعود متأخرة لوحدها، أو إذا رآها أحد ما معكَ، فلن ترحمها ألسنة الناس، التي لا تزال تلاحقها وتلاحقني ـ كما تلاحظ ذلك ـ وهم لا يزالون لا يعرفونكَ بشكلٍ كامل، ولا يعرفون رفعة أخلاقكَ، لذلك أردت تجنيبك مثل هذه المواقف، التي قد تبدو لديكَ بريئة، ولكنها ليستْ كذلك عند الباقي من الناس، وذهابكَ هناك لوحدكَ قد يكون أفضل لكَ؛ لتأخذ وقتكَ، وتتجول في المكان بحرية أكثر، ولكنَّ هناك شيء آخر يا صالح يشغل فكري كثيرًا، ولم أفصح به بعد إليكَ.

ـ ماذا هناك يا شيخ؟ (كنتُ أنظر إليه، وكان يبدو مهمومًا جدًا).

ـ لا أعتقد أنَّ رنين أرأدت بذهابي لرؤيتها في السجن، أنْ تعتذر وتعترف بندمها فقط.

سكتَ الشيخ لبرهة؛ ليستجمع أفكاره على ما يبدو، ثم أكمل كلامه:

ـ أثناء حديثي معها، أشارتْ إلي وربما بغموضٍ إلى أنها أُم، وأنَّ لها ابنة، وفهمتُ من كلامها المبطن أنَّ والد الطفلة، هو سعد ابني كما بدا لي من تلميحاتها اليوم في السجن، حقيقةً إني لا أزال مصدومًا بهذا الادعاء، ولا أعرف إنْ كانتْ صادقة أم لا.

ـ لكنْ.. كيف سوف تعرف بالتحديد إنْ كان ابنكَ سعد هو والد الطفلة إنْ صدقتْ هي في كلامها؟ أين الدليل على ذلك؟ وهل هناك أحد يعرف أنَّ لرنين ابنة؟.

ـ هذا الأمر محير، ولابد أنْ نسأل في الحي إنْ كان كلام رنين صحيحًا، يمكن أنْ نسأل رحمة، فقد تعرف أي شيء عن رنين وأهلها.

ـ لقد ذكرتْ لي رحمة، أنها رأتْ رنين يومًا ما في الماضي قبل عدة سنين، وأنها كانتْ تحمل بيدها طفل عندما كانتْ تذهب إلى تل الراهب، أو هذا ما خُيَّل لها في ذلك الوقت، عندما كانتْ تسترق النظر إليها، وهي تمارس بعض من طقوسها هناك، الحقيقة يا شيخ أنا لا أستغرب أبدًا مثل الشيء بعدما عرفتُ عمق العلاقة، التي كانتْ تجمع ما بين ابنكَ سعد ورنين، وقد تكون هذه الطفلة هي حقيقةً حفيدتكَ وابنة سعد، وعندما أتتْ رنين إلى هنا قبل أيام، وقبل أنْ يتمَّ القبض عليها، كانتْ في شديد الرغبة لزيارة منزلها، وربما

لاحتضان ابنتها، والتي قد لا تراها بعدئذ لعلمها بمصيرها المحتوم، وما ينتظرها في المحكمة من قضاء.

ـ هل أوصتكَ بشيءٍ عن تلك الفتاة؟

ـ ربما ألمحتْ إلي بذلك، وأظن أنها حاولتْ أنْ تثير الموضوع من دون التسبب بفضيحة تؤثر على مستقبل ابنتها، وحاولتْ بشكلٍ مبطن أنْ تفهمني سبب كل مشاكلها، هو تخلّي سعد عنها، وعن ابنتها في ظروفٍ قاسية، حاولتْ فيها إخفاء فضيحتها بكل الطرق.

ـ كل ذاك الزمن الذي مضى، والاهتمام بالطفلة لوحدها مع مساعدة أهلها لها.

ـ أنا لا أعرف موقف أهلها من الموضوع برمته.

ـ وإنْ كانتْ رنين صادقة في قولها، فإنَّ أهلها بالتأكيد قد تجرعوا الكثير من الألم في الماضي، ولا يزالوا يعانون من هذه المشكلة العويصة لحد الآن، وأنَّ ابني المرحوم قد جنى عليها، وتخلّى عن مسؤوليته، وهرب منها بجبنٍ، وخسة لا تليق به، ولا بنا، وبأهلها.

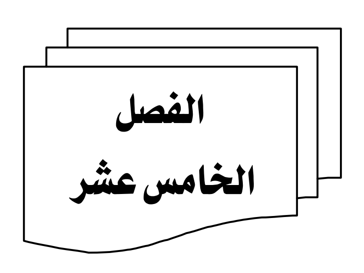
ـ ربما يجب أنْ تذهب، وأنْ تكلّم والدة رنين، وأنْ تعرِّض عليها بعض المال للمساعدة في مثل هذه الظروف القاسية.

ـ لا أعتقد أنَّ هذا هو الوقت المناسب، إنهم الآن في حال متوتر، وقلق من مجريات المحكمة، وربما قد يسيئون فهم زيارتي لهم، ولا يمكن أنْ أقول أي شيء عن الطفلة، إنْ لم أكن متأكدًا من القضية بأكملها.

ـ هل تود منِّي أنْ أستفسر بشكلٍ غير مباشر عن أهل رنين من رحمة، أو في الحي لكوني غير طرفٍ في أي مشكلة هنا، وقد يقولون لي ما يخفونه عنكَ؟

ـ لننتظر ما سوف يحصل في المحكمة، وبعدها يمكن أنْ أذهب وأكلِّم والدتها بالأمر، وقد تذكر لي كل شيءٍ تعرفه عن علاقة رنين وسعد.

فهمتُ إنَّ الشيخ لم يكن متأكدًا تمامًا مما قالته رنين، ولم يود إثارة الموضوع أمام رحمة؛ لخوفه من انتشار الفضيحة أكثر عن ذي قبل، وهذه تخصه، وتمس سمعة ابنه، وبالأخص إنْ كان أهل الحي لا يعلمون بهذا الأمر بعد، لذا أراد أنْ يتأنى، ولا يتعجل البت في الأمر، ولأنَّ الفتاة تعيش مع جدتها الآن، ويجب إبقاء هذا الأمر طي الكتمان كلما كان ذلك ممكنًا.



مضتْ بقية ساعات النهار القليلة بهدوء معتاد بعد كل ما جرى من أحداث ومستجدات، ولكنْ في خضم كل هذا الهرج الصاخب، الذي يدور حولي هنا في الخان، لم يشغلني عن تذكُّر تاريخ اليوم، وهو يصادف شيئًا أثيرًا لدي، وهي ذكرى ميلادي الثاني والعشرين، ولم أنتبه لذلك بجدية سوى بعدما دخلتُ إلى غرفتي؛ لأبدل ثياب العمل التي كنتُ أرتديها بأخرى نظيفة، وعندما نظرتُ إلى التقويم الذي أعلقه على ظهر باب الغرفة كعادتي يوميًا؛ لأكتب ملاحظاتي عليه، خطف نظري مجددًا تاريخ اليوم وما يعنيه لي، وعلى الرغم أني لم أحتفل يومًا ما من قبل بهذه الذكرى في قريتي؛ لأنها ليستْ من عادة أهل الريف الفقراء على عكس أهل المدينة، وما يفعله البعض هناك من تهيئة الكعك وإطفاء الشموع والرقص والغناء في المناسبة إياها، والتي قد يكبر أو يصغر حجمها بحسب الموقع الاجتماعي والقدرة المادية للمحتفلين بمناسبة أعياد ميلادهم، ولكنْ ما كان يحيرني دائمًا هو عملية التمني ذاتها قبيل مراسم إطفاء الشموع المنغرسة في الكعك، وكان يبدو لي ذاك التمني كأنه محاولة سحرية يائسة لتغيير مسار الحياة مستقبلًا بشكلٍ أفضل للمحتفلين،

وإنْ لم أعبء يومًا ما بهذه المناسبة، فهل يعني ذلك أنَّ قدري سوف يبقى هو هو بلا تغيير؟ لا أظن ذلك... ولكنْ ما يشغلني الآن هو حسن الحظ الذي أتمناه كثيرًا في مسيري، الذي بدأته باتجاه ذلك المكان المفترض أنه منحوس أو ملعون ربما لا أدري ماذا يخبئه لي؟.

ولكنَّ الشيخ دلني على الطريق إلى تل الراهب، وكيف يمكنني الوصول إلى هناك، وكان بعد انتهاء العمل مباشرة، وكانت الشمس قد غربتْ وقتها، وضاعتْ في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، ولم يبقَ سوى بصيص من ضياء الشفق بحمرته معلق في الأفق... وبدأتُ أتلمس طريقي وسط الأحراش والمروج، التي قد مُهدَ جزء منها لغرض السير عليها في طريقٍ متعرج يبدأ عند نهاية المرآب بجانب الخان، حيث توجد بعض المزارع والحقول، ويشقها هذا الممر الضيق الملتوي، والذي تعلو جوانبه الأعشاب لقلة الارتياد، وعدم الاهتمام به، وبحسب توصيف الشيخ يجب أنْ أتبع هذا الممر، وأنْ لا أحيد عنه، وهو يقودني إلى التل والمقبرة مباشرةً، ولم أنحرف عن الطريق، وواصلتُ مسيري، ولم يكن في مقدوري أنْ أرى التل، وأنا سائر في دربي؛ لعلو الأشجار الكثيفة المتراصة على الجوانب، وبدأتْ تظهر لي بعد قطعي مسافة قصيرة من الطريق، وتزداد كثافةً وعلوًا كلما تقدَّمتُ في الطريق أكثر، والذي لابد من الاعتماد عليه للوصول هناك... وبدأ اللَّيل يسدل أستاره قليلًا فقليلًا، وكأنه يحذرني من المغالاة في المسير، ولم أعبء بذلك كثيرًا؛ لأني كنتُ قد أخذتُ تحوطًا معي مصباحًا كهربائيًا؛

ليصطحبني وينير لي الطريق، وداومتُ على المسير الذي تعودتْ عليه أقدامي وبدني منذ نعومة أظفاري، وكان السكون وقتها يعمُّ كل شيءٍ حولي حتى الطيور لا تسمع لها صوتًا أو رفرفة، والذي يبدو وكأنه قد غاب وذوى في هذه المكان.. عجيب هل هاجرتْ من هنا الطيور بلا عودة، وتركتْ مثل هذا الفردوس من الأشجار الباسقة، أم أنها راحتْ تأوي في سبات عميق ربما لخشيتها مما يخبئ لها اللَّيل من جوارح متربصة بها في جوانح اللَّيل؟.. تساءلتُ في نفسي وقتها، ولكنْ تناهى لي فجأة صوت من علو يشبه نعيق البوم يصدر من الأشجار التي ترافق طريقي، إذن أنا لستُ وحدي هنا، وثمة مَنْ يراقبني من عليائه، ويتحسس خطواتي، وربما يقول لنفسه إنه فريسة كبيرة الحجم لا تنفع معها براثني الصغيرة، ومنقاري على وسعه، واستمر نعيقه يكسر الصمت المطبق حولي، وتساءلتُ في نفسي مجددًا: هل هو ثرثار يريد الكلام أم يحذرني أني متجاوز في منطقة نفوذه؟

لا تهتم يا سيِّد بومة، فأنا عابر سبيل فقط ألتمس طريقي بصعوبة وسط هذه الأغصان المنسدلة المتهدلة، والتي تعترضني في كل خطواتي المتأنية المتأهبة على قارعة الدرب، الذي يقودني إلى حيث لا أدري...

يبدو أنَّ الطريق أطول مما وصفه لي الشيخ، أم أني تهتُ وسط هذه الأشجار على هذا الدرب الملتوي والمتعرج الغامض، أو أنني حقيقةً متعجل الوصول إلى النهاية؟.

توقفتُ لأرى ما حولي بترقبٍ، والهواجس تراودني بشدة، وقلتُ:

ـ هل أعود أدراجي الآن إلى الخان، وأنسى كل ما قيل عن هذا المكان المزمع أنا الذهاب إليه؛ لأنَّ الخوف قد غلبني؟

لا لقد تعهدتُ على نفسي أن أكمل الطريق، الذي أسلكه إلى النهاية مهما تكن عواقبه، وكأن هناك شيء ما يشدني بشدة لإكمال هذا المسير، والقفز على كل هذه الهواجس، وتنائى لذاكرتي بينما أنا أسير على دربي كلمات أغنية كنتُ أسمعها من المذياع في صالة الخان، وبدأتُ أرددها، وأنا أتابع الوطئ على الأديم، وما يعلوه من أوراق الشجر المتساقط، وبعض الأغصان التي انفصلتْ عن الشجرة الأم، وسقطتْ على دربي لتتكسر بفعل حذائي الثقيل محدثةً أصواتًا تتناغم مع كلمات الأغنية، التي أرددها بصوتٍ عالٍ مع أنغام المذياع المحشور في جيبي؛ ليؤنس وحدتي، ويطفئ من هلعي، ويشجعني قليلًا في مشي المتعثر، والمتخبط في هذه البرية.

أنتِ تضئين ظلمة السماء من فوقي

يا نجمةً شدة لمعانكِ قد أعمتني

أنارتْ لي الدرب في سجى وحدتي

وأخرجتني من دوامة حيرتي

لا لن أُغلق عنكِ محاجر عيني

لا تذوي وبعيدًا عني ترحلِ

هنا في وحدتي حزينًا ترميني

أخيرًا، وبعد مسيرة طويلة انتهى ذاك الدرب الملتوي المنعزل، وانتهتْ معه رفقة الأشجار الصامتة، والأغصان الكثيفة المتدلية، والتي كانتْ تحجب الأنظارعني كالجدار العالي؛ لينكشف أمامي فجأة المكان المرتقب على وسعه، وبدا لي أنَّ كل شيءٍ يغمره الظلام الخفيف، ولا يضيئه سوى ضوء القمر مشكورًا بنوره الفضي، والذي يتلألأ ومن حوله ترصعه النجوم بسماءٍ صافية، وتراءى لي من بعيد تل الراهب بعلوٍ شامخ، وتغطيه بعض الأشجار على قمته وعلى سفوحه، التي تمتد لمسافة كبيرة إلى الجوانب، حيث شاهدتُ المقبرة التي وصفتها لي رحمة، وتقع بعيدة بعض الشيء إلى جانب ذلك التل، وتنتشر القبور فيها مترامية ومبعثرة بلا انتظام، وتعلوها الأحجار الصماء التي تدل على ساكنها، وتلقي بالظل على بقايا شاغلها، ويتخللها ضباب خفيف منتشر برفق في النواحي.

مضيتُ في مسيري في اتجاه ذاك التل، يعينني ضياء المصباح، الذي جلبته معي مع ضوء القمر الخافت على الطريق، الذي هو الآن يبدو أكثر اتساعًا من سابقه ومنفتح، وتترامى حوله المروج المغطاة بالأحراش، والدغل غير المهذب والنامي بعلوٍ قليلٍ، وكانتْ الأرض هنا لم تمس منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا، حتى أضحتْ جدًا قاسية، ومتجهمة، ومتشحة بالسواد كالمرأة الأرمل التي هجرها زوجها قسرًا إلى عالم آخر، وتركها في هذا العالم وحيدة متيبسة من جفاف العاطفة، تعصف الرياح القاسية بها بلا توقف وبلا كوابح، وتملأها السواقي الصغيرة التي تصرف ماء المطر أو ربما الدموع المنهملة التي جعدتْ هذه الأرض البكر من سوء الإهمال وعدم الاهتمام.

بدأتُ أقترب أكثر من التل، والتفتُ حولي مترقبًا؛ لأرى إنْ كان هناك شيء ما، أو أي حركة في أرجاء المكان، والهلع الذي خاجلني للحظات قليلة، لكنْ كان كل شيءٍ يبدو هادئًا جدًا وبشكلٍ غير طبيعي، واقتربتُ منه، وأضحيتُ بجواره تمامًا، وبدأتُ أنظر حولي، وتراءتْ معالم التل أشد وضوحًا لي، وبدتْ لي في أحد جوانبه بعض الفتحات الغارقة في الظلام، والتي لا يمكن رؤية ما بداخلها، وربما هي تلك الكهوف التي ذكرها لي الشيخ، والتي تخترق بدن هذا التل، وانتبهتُ إلى أحد جوانب التل المتلاصق مع المقبرة، وكان هناك ما يشبه الدائرة الكبيرة المحددة، ومحاطة بأحجار صغيرة مرتبة بتناسق حول حجر كبير مستوي، ينتصب في منتصف هذه الدائرة الحجرية، وتقع بالقرب منها شجرة عالية، يمكن أنْ يكون هذا المكان، هو ما ذكرته رحمة عن مراسم الطقوس الخاصة، التي تجري هنا ولكنه يبدو مهملًا ومتروكًا، ربما توقفوا عن هذه الطقوس بعد رحيل رنين إلى السجن.. لم أعبء كثيرًا بذلك، وبدأتُ أرتقي سفح التل شيئًا فشيئًا ما بين بعض الأشجار المترامية على جوانبه، تتخللها بعض القبور المترامية هنا وهناك، والمغطاة بالصلصال الأحمر كالدم المراق، الذي اختلط مع الهياثم والتراب الهش، ويتخللها ويمتزج معها ورود الزنابق البيضاء بكثافة، جعلتني أتساءل في نفسي: كيف نصبوا هذه القبور هنا على سفح التل هكذا؟ كل تلك الأرض المستوية الفارغة لم تكفي لدفن موتاهم فيها، أم أنَّ المتوفي يود قضاء الموت على مرتفع؛ ليقترب أكثر ما يمكنه من السماء، أم لينظر إلى الأرض من علوٍ، ويمتع

ناظريه في جمال البرية في وحدته الأبدية، أو ربما ليبتعد أكثر ما يمكنه عن مركز الأرض الممتلئ بكرة النار وحمم الماجما المستعرة؟ لقد بذلوا جهدًا وفيرًا لحفر هذه اللحود على هذا المرتفع، ربما ليطلبوا من زوارهم الأعزاء تسلُّق سفوح التل عند زيارتهم في مقرهم الأخير، وكأن الموت هو ارتقاء، لا أعلم، ولكنَّ المكان يبدو جميلًا ساحرًا خلابًا هنا، على الرغم من هذا الظلام الخافت المخيم عليه.

ودَّعتُ السابقين الراقدين في لحودهم، ثم مضيتُ، وواصلتُ تسلُّقي لهذا المرتفع، وبدأتُ ألهث قليلًا من التعب، وتزايدتْ نبضات قلبي، وتسربتْ قطرات العرق إلى حواجبي، وإلى جفوني لا ليس من الخوف أو الهلع، كوني وحدي هنا في هذا المكان المهجور المقفر، والممتلئ بالقبور، ولكنْ بسبب الجهد، الذي أصابني من صعود هذا المرتفع، الذي وصلتُ أخيرًا إلى قمته، وارتقيتها بعد جهدٍ جهيد، وارتميتُ على الأرض؛ لأرتاح، وأستمتع بالنظر من حولي إلى مديد البعيد، حيث يمتد بصري قاطعًا المسافات، ويمكنني أنْ أرى من علو الخان، حيث يلوح لي بأضوائه الخافتة المرتعشة مع أنسام الهواء، وكذلك الطريق السريع على جانبه تقطعه العربات بالاتجاهين وأضواء الحي البعيد القليلة من الجانب الآخر، كم جميل ومريح الاسترخاء هنا والاستمتاع من علو بما يحيط هذا المكان الساحر المنعزل... مددتُ بدني مسترخيًا، واستلقيتُ تمامًا على العشب الذي يغطي الأرض، وامتدتْ يداي إلى جانبي، وجال بصري بعيدًا جدًا يعدُّ النجوم التي تملأ السماء بغزارة، قلتُ في

نفسي: مستحيل لا يمكن ذلك إنها محاولة يائسة لحصر كم عدد النجوم التي تبسط السماء الفسيحة، مثل الأحلام بلا نهاية.

انتشى بدني في ارتخاءٍ تام، وشَرِّدَ ذهني في سكونٍ وهدوءٍ تام، ولم أعد أفكّر في أي شيء مطلقًا، ورحتُ في نشوةٍ وغفوةٍ وسباتٍ مجازي روحاني أُقاوم النوم، والصحو في آنٍ واحد، وتراءتْ لي النجوم كأنها تتحرك، وتتبادل مواقعها مع بعضها البعض، أو أني في هلوسة ما بين الحلم والحقيقة...

بقيتُ مستلقيًا لفترة لا أعلمها، ربما امتدتْ لدقائق أو أكثر، لكني صحوتُ فجأة بإحساسٍ شديدٍ بالبرودة، والتي غمرتْ جسدي كله، ونهضتُ بفزعٍ، وقلبي يخفق بتسارعٍ شديدٍ، والتفتُ حولي إلى جانبي، وكانت هناك فتاة جميلة، واقفة تنظر إلي باستغرابٍ وبتساؤلٍ، وقالتْ لي:

- آسفة إنْ كنتُ قد أفزعتكَ من أحلامكَ الجميلة في خلوتكَ المرتفعة هذه.

لم أُجب لوهلة؛ لأنَّ هول المفاجأة كان قد صعقني، وشلَّ عضلات لساني من الرعب، الذي تسببتْ به هذه الفتاة الحسناء، والتي كنتُ أُحدق بها بشدة من روعة جمالها، وحسنها الخلاب بوجهها الأبيض المستدير، وخدودها الحمراء اليانعة، وعينيها الواسعتين المشرقتين في أتون هذا الظلام، وبجسمٍ ممتلئ بتناسق، وقوامٍ ممشوق مفعم بالحيوية، وشعرٍ كالذهب ينسدل بطوله؛ ليغمر ثديين عامرين، ويسرح فوق رداءٍ قرنفلي اللون طويل، يكسو جسدها بتراص إلى

تحت ركبها، ويميل مع انحناءات بدنها المكتنز، وبقيتُ صامتًا لا أدري، ماذا أقول في حينها.

ـ هل أنتَ غريب عن هنا؟ ألا تعرف اللغة؟

سألتني باستغرابٍ شديد، ولكني ابتسمتُ، وأجبتها أخيرًا بعد أنْ فكتْ عقدة اللسان:

ـ لا أنا لستُ غريبًا، وأعرف اللغة، ولكني مصدوم جدًا، وتفاجأتُ بوجودكِ هنا بقربي، وكأني لا أزال في حلمٍ يمتلئ بالملائكة، والحوريات، ولا أودُّ أنْ أصحو منه أبدًا.

وقفتُ على رجلي المرتعشتين، وبدأتْ الفتاة بالضحك، وقالتْ مبررة ظهورها المفاجئ هنا:

ـ كنا نسير على جانب هذا التل، وشاهدنا ضياء المصباح من بعيد يرتقي التل، ثم اختفى ذلك الضوء فجأة، وجئنا لنطمئن إنْ كان كل شيءٍ على ما يرام، ولم يصبكَ أي مكروه.

وأشارتْ إلى الخلف، حيث تقف فتاة أخرى لم أنتبه لوجودها، وكانتْ تنظر إلي بإمعانٍ كذلك، وتبدو أطول قامة، ونحيفة، وبشعر بلون الحنة، وترتدي رداءً أبيض، وقلتُ لها:

ـ أشكركِ على اهتمامكِ بي، ولكنْ.. ماذا تفعلان هنا في هذا المكان في هذا اللّيل؟.

ـ نحن طالبتان، جئنا هنا في سفرة علمية، ونقيم في فندقٍ ليس بعيدًا في الجانب الآخر، وأحببنا الخروج والتعرُّف على المكان لعدم وجود أي شيء نفعله هناك، ورأينا هذا التل عن بعد، وقَدِمنا إليه سيرًا، والوقت لا يزال مبكرًا... وأنتَ ماذا تفعل هنا؟.

ـ انا أعمل هناك في ذاك المكان.

أشرتُ إلى الخان بيدي

ـ جئتُ هنا لنفس السبب، الذي أتى بكِ لعدم وجود أي شيء أعمله الآن في الخان، ووددتُ أنْ أتجول هنا كذلك.

ثم عرَّفتُ بنفسي للفتاتين، وقلتُ:

ـ أنا صالح.

وأجابتا على التوالي:

ـ سافي ورند.

وكانتْ الفتاة الأخرى، والتي قالتْ:

ـ حقيقةً حسبنا أنْ أصابكَ مكروه، وكنا في الجوار، وأردنا فقط الاطمئنان، وليس الفضول أو التطفل عليكَ.

ـ هل قدمتما من مكانٍ بعيد؟ (سألتهما باهتمامٍ).

ـ لا، نحن من المدينة، قَدِمنا هنا لعدة أيام لبحث أنواع النباتات في المنطقة، والتي هي جزء من دراستنا في الجامعة في قسم الزراعة، وأنتَ هل تملّك ذلك البناء؟.

ضحكتُ بسخرية من نفسي، وقلتُ لهما:

ـ لا، أنا فقط أعمل هناك، إنه خان نقدِّم فيه الأكل والشراب للزوار المسافرين، إنه عمل مؤقت، وأنا في طريقي إلى المدينة للعمل هناك، أنا بالأصل كنتُ فلاحًا في أرض والدي، وأردتُ إيجاد فرصة أفضل لنفسي في مكانٍ آخر، هل وجدتما ما تبحثان عنه من نباتات للبحث والدراسة؟.

ـ هناك مزرعة نموذجية قريبة من هنا، تحوي الكثير من أنواع النباتات المتنوعة، والتي يجب أنْ ندرسها، ونعود بعدها إلى المدينة، هل تأتي إلى هذا المكان كثيرًا؟.

ـ لا، هذه أول مرة أقدِم بها إلى هنا، كنتُ أودُّ الاسترخاء، والجلوس هنا، والاستمتاع بالمنظر المحيط، هل أعجبتكما هنا في هذه الأنحاء المنعزلة؟.

ـ نعم؛ لأنَّ كل شيءٍ مزدحم في المدينة، وهنا هدوء وسكينة، والطبيعة لا تزال بِكرًا وعذراءً، وكأنها لم تُمس بعد.

ـ نعم، إنها لم تمس بسبب أنَّ هناك مقبرة كبيرة على جزءٍ من هذه الأرض، ألم تلاحظاها في طريقكما؟ (سألتهما بتهكُّمٍ ربما لأُرعبهما)

ـ كلا جئنا من هذا الاتجاه من الجانب الآخر، ولم يكن هناك أي قبور في الطريق، ونحن لا نهاب مثل هذه الأشياء الخرافية.

حاولتُ مداراة خجلي منهما، وقلتُ:

ـ إذا كنتما قد أنهيتما جولتكما، يمكنني أنْ أدعوكما إلى أنْ تزورا الخان، يمكنكما أنْ تزورا باقي المكان، وأنْ أُقدِّم لكما هناك الشاي أو مشروبات غازية، والمكان ليس ببعيد، ولن تبتعدا كثيرًا عن الفندق.

نظرت الفتاتان كلًا إلى الأخرى، وأجابتا:

ـ لِمَ لا؟ سوف نسير معكَ إلى هناك، وتعرِّفنا على المقبرة، ونواحي باقي المكان.

قفلنا عائدين إلى الخان بنفس الطريق الذي سلكته عند قدومي إلى هنا، وتبادلنا الحديث طوال مسافة الطريق في مختلف الشؤون من

الدراسة الجامعية، والفرق في ظروف الحياة في المدينة عنها في الأرياف... ووصلنا إلى الخان حيث كان الشيخ وسلمان جالسين في الرواق الخارجي.. وبعد السلام، عرَّفتُ الجميع ببعضهم البعض، وجلستْ الفتاتان بجانب سلمان، ودخلتُ إلى مطبخ الخان؛ لأعد الشاي والكعك، ولم آخذ وقتًا طويلًا في الإعداد، وعدتُ إلى الرواق؛ لأسمع ضحكات الفتاتين... وبعد السؤال عن السبب، قالتْ سافي الحسناء:

ـ كنتُ أُري سلمان بعض الصور على الهاتف النقَّال، وكان جدًا مستمتعًا بتصفحها، وكل صورة أُريه إياها تعجبه، يقول: صالح... يبدو أنه جدًا متعلق بك.. هل هو ابنكَ؟.

ـ لا، إنه حفيد الشيخ، ولكنه بمثابة أخي الصغير، وهو يتيم الأب، ولا يقدر أنْ ينطق سوى بكلمة صالح، ربما لأنَّ اسمي سهل الترديد، وأنا أعرفه فقط من أسابيع قليلة جدًا، عندما جئتُ إلى هنا بالصدفة، ولكنْ، ما تلك الصور التي ترينه على الهاتف المحمول؟

ـ إنها صور رمزية ضمن برنامج لتعليم ذوي الاحتياجات الخاصة، وغير القادرين على النطق، ويستعين بالصورة للدلالة على حاجته، أو حتى رأيه، وفكره، أو أي ألم يحس به.

ـ نعم، أنا أعلم بهذه الطريقة، ولدينا كتيب فيه هذه الصور، ولكنْ لم أكن أعلم أنها يمكن أنْ توضع، وتحمل على الهاتف النقَّال.

ـ نعم، يمكن ذلك، وهو برنامج بسيط، وضعته في هاتفي؛ لأنَّ أخي الصغير كذلك حالته تشابه حالة سلمان، والمدرسة هي التي أعطتني البرنامج، ونستخدمه للتخاطب مع أخي، وهو جدًا يستمتع

به، وتقلّل من توتره وغضبه؛ لأنه يجد حالًا ما يود التعبير عنه بخلاف ما كان يحصل في السابق قبل الحصول على متصفح الصور هذا، حيث كان دائم الغضب لعدم قدرته على إيصال ما يود قوله، وارتحنا كذلك نحن معه.

ـ أيمكنني كذلك من الحصول على البرنامج في هاتفي المحمول؟

ـ بالتأكيد يمكنكَ ذلك... ألَا يذهب سلمان إلى المدرسة؟.

ـ نعم، إنه يذهب إلى المدرسة كل يومٍ بعد انقطاع لعدة سنين قضاها في المنزل وحيدًا بلا تعليم، وهو يحاول الآن اللحاق بأقرانه في الصف.. هاك الشاي سوف يبرد.

وجلبتُ الكعكة الموجودة في المطبخ، وسألتُ الشيخ:

ـ من أين لنا هذا الكعك؟

رد علي الشيخ بابتسامة:

ـ لقد صنعتها رحمة قبل نهاية العمل بطلبٍ منّي لأقدِّمه لكَ، وهي مناسبة جيدة لكي نتشارك الجميع في هذه الكعكة، وكانتْ رحمة تود البقاء، لكنها لم تكن تعلَّم متى ترجع، ووعدتها بإبقاء حصتها من الكعكة.

ألتُ الشيخ، وأنا في حيرة من أمري في الأمر:

ـ ماهي المناسبة التي صُنعتْ الكعكة من أجلها؟

ـ أليس اليوم هو عيد ميلادكَ الثاني والعشرين، ولكونكَ بعيدًا عن أهلكَ، فقلتُ لرحمة أنْ تصنع الكعك لكَ، ونحتفل جميعنا هنا، ومع الضيوف الجدد سافي ورند سوف تزداد المناسبة رونقًا.

امتقع وجهي من الاحمرار لهذه المفاجأة المذهلة لي، والتي غابتْ عن بالي تمامًا وسط البحث في ثنايا القبور، ضحكتْ الفتاتان على خجلي، وقالتْ سافي:

ـ إنه من الأفضل لكَ عندما يحتفل الغرباء بعيد ميلادكَ؛ لأنهم حقيقة سوف يتمنون لكَ الخير والسعادة، على الرغم من أنهم لا يعرفونكَ.

رد الشيخ بسرعة:

ـ إنه شاب رائع، ومؤدب، والأهم فيه طيب القلب، والالتزام.

شكرتُ الجميع على تمنياتهم الحارة لي، وبالأخص تمنيات سافي اللاسعة الحرارة، وبدأتُ بتوزيع الكعك بعد إطفاء بعض الشموع، التي وضعها الشيخ، والتهمناه لجودته وللذته، وأبقيتُ لرحمة حصتها منه.

قالتْ الفتاتان إنهما يجب أنْ يذهبا الآن، واتصلتَا بالفندق؛ ليرسل لهما عربة لتعود بهما إلى هناك.

وقالتْ لي سافي:

ـ هل سوف تُقدِّم إلى المدينة؟

كانتْ تنظر إلي بنظرات اخترقتْ قلبي، وهزتْ كل بدني ضعيف المقاومة، وارتفعتْ حرارة جسدي، وقلتُ لها، والكلمات تتعثر عند الخروج من فمي:

ـ بودي كثيرًا إنْ قدرتُ على ذلك، وأنْ أجد عملًا ما هناك.

ـ لا تهتم بهذا الأمر، هناك العديد من الفرص وسوف أُساعدكَ.

تبادلنا أرقام الهاتف، ووعدتها بالاتصال بها عند ذهابي إلى المدينة.

قَدِمَتْ العربة التي سوف تقلهما، وتوادعنا جميعًا، ولكنَّ سافي اقتربتْ منِّي، وقبلتني على خدي، وقالتْ لي:

ـ كل عام وأنتَ بخير.

ورحلتْ... ولكنَّ أثر قبلتها لا يزال حارًا جدًا على وجنتي الملتهبة.



سألتُ الشيخ في الصباح الباكر، بعد أنْ أعطيتُ رحمة الكعك، والتي تمنتْ بدورها لي الخير، وشكرتها على جهدها في صناعته وعن لذته: عن كيفية معرفته بتاريخ ميلادي، والذي لم أُصرح به من قبل.

وقال الشيخ:

ـ إنه مسجل على أوراق الشرطة، والتي أعطونا نسخًا منها بعد التحقيق بحادثة الجدة المتوفاة، ألَّا تذكر ذلك وفيها تفاصيل كل شخص منا مكتوبة عليها؟.

ـ نعم، تذكرتُ الآن تلك الأوراق، ولكنها بقيتْ في ذهنكَ كل هذه المدة؟.

لم يجبني الشيخ سوى بابتسامة، وفهمتُ السبب الآن في اعتراض الشيخ بالأمس على مرافقة رحمة لي من أجل أنْ تعمل الكعكة بدون علمي، ولكنَّ القدر قد لعب دورًا آخر في تعريفي بتلك الفتاة الجميلة الناعمة سافي، وهي أول فتاة تبدي لي شعورًا، وإحساسًا لم أحسه، ولم أشعر به من قبل في حياتي (تختلف بالتأكيد عن أحاسيس المراهقة الطائشة) وتساءلتُ: هل هذه كانتْ مجرد فورة إعجاب عاطفية قصيرة الأجل، وقد تنطفئ وتتلاشى مع الوقت والبُعد؟

لا أدري عن الحبِّ كثيرًا، ولم أُدركه من قبل، وإعجابي برحمة قد ينقص عن كونه حبًا؛ لأنَّ رحمة لم تبدِ أي مشاعر حميمة تجاهي، وشعوري تجاهها غير متبادل بالتأكيد، وقد تكون رحمة لا يزال في قلبها ما تبقى لزوجها السابق، في حين سافي أظهرتْ بجلاء ما تكن في داخلها تجاهي، وكأنها اختارتني من كل الجمع؛ لتقول لي: أنت مَنْ أود... وأنا لا أعرفها، ولا أعرف مَنْ هي سوى تلك الدقائق من الزمن، التي جعلتْ ليلتي مليئة بأحلام مشوشة، وهواجس أمنيات لا نهاية لها، ولكنَّ الذي أعرفه أنَّ الأقدار لها أيادٍ خفية تتلاعب بحياة الإنسان، وعواطفه بشكلٍ غريب لا يمكن تفسيره، ولابد من تقبله شئتُ أم أبيتُ.

في خضم العمل ورتابته قَدِمَ شخص ما إلى الخان، وأراد التحدُّث إلى الشيخ، وسألته: عمَّا يريد؟

وقال:

ـ إنْ كان لديكم عمل هنا في الخان.

وأجبته:

ـ لا أظن ذلك، ولكنْ سوف أُخبر الشيخ لعلَّ له رأيًا آخر في الموضوع.

وناديتُ الشيخ الذي قَدِمَ؛ ليتحدث مع هذا الشخص، وجلسا على إحدى الطاولات في الصالة، وذهبتُ أنا إلى المطبخ، وقلتُ لرحمة:

ـ إنَّ هناك شخصًا ما يود العمل هنا في الخان، وهو جالس مع الشيخ الآن.

ـ لكنْ لا يوجد حاجة إلى شخص آخر للعمل هنا.

ـ نعم، وهذا ما قاله سابقًا الشيخ، ولكنَّ هذا الشخص يبدو متلهفًا للعمل هنا بأي شكل بحسب ما قاله لي.
ـ غريبة قد يكون في حاجة ماسة للعمل، هل هو من الحي؟.
ـ لا أعرفه، ولم أشاهده من قبل هنا، أو في الحي.
ـ سوف أذهب إلى الصالة لربما أعرفه، وقد يكون من زبائن والدي، وأرسله إلى هنا لغرض العمل، واستبدالي به.

ذهبنا سوية إلى الصالة حيث الشيخ جالس مع الشخص، والذي تفاجأتْ رحمة جدًا لرؤيته، وسألته بشكلٍ مباشر، وبدون تحية، وبعصبية، وامتعاض ظاهر:
ـ ماذا تريد؟
ارتبك، وتلعثم، ونهض عن كرسيه، وبدا كالطفل يتوسل إليها مكسور الجناح.
ـ أودُّ التحدُّث إليكِ؟
ـ ليس لدينا شيء لنتحدث به، هذا مكان عمل، ولا يصح أنْ تأتي هنا، ولا أسمح لكَ بأنْ تتحدث إلي.. آسفة يا شيخ، يبدو أنَّ مشاكلي لا تزال تلاحقني إلى حيث أذهب.
واستدارتْ لتترك الصالة، وتذهب إلى المطبخ عندما ناداها الشيخ قائلًا:
ـ يا ابنتي إنْ كانتْ لكِ مشكلة، يجب أنْ تواجهيها، وهو يريد أنْ يقول لكِ شيئًا، والأفضل أنْ تسمعيه بدلًا من أنْ يبقى يراوح حولكِ ويشغلكِ عن عملكِ.
ـ ولكنه مكان عمل، ولا يصح أنْ يسمع أحد حديثنا.

ـ يمكنكما الذهاب إلى الخارج للتحدُّث معًا، ولن يسمع أحد كلامكما إنْ ظل خافتًا.

خرجتْ رحمة يتبعها هذا الشخص، الذي سألتُ الشيخ عنه، وأجابني:

ـ إنه زوجها السابق يود الحديث معها.

ـ عن ماذا؟ هل هناك مشاكل مادية بينهما؟

ـ قال لي إنه جدًا متندم، ويريد الأسف منها، والاعتذار لما فعله بها من قبل، ويرجوها أنْ تعطيه فرصة أخرى.

ـ بعد كل هذا الزمان الذي مضى؟.. ولكنه كما قلتُ لي متزوج بأخرى، هل حنَّ إلى الماضي؟.

ـ يبدو ذلك، ولكنه ذكر لي أنه غير متزوج الآن، أي: أنه قد طلق الأخرى كذلك، أو هي طلقته لا أعلم بالضبط، لقد كان مشوشًا، ومرتبكًا عندما تكلَّم معي، وقال إنَّ والدته وأهله قد ضغطوا عليه، وأجبروه على طلاق رحمة، ولم يكن قراره هو شخصيًا، وهذا تبريره، ولذلك هو يحس بالندم والضعف، ويود تصحيح خطأه الجسيم الذي ارتكبه بحقها.

في هذه الأثناء، رنَّ هاتفي النقَّال، وكان ضابط الشرطة على الخط، وأراد الحديث مع الشيخ الذي ناولته الهاتف، وذهبتُ لخدمة الزبائن في الصالة، وبعد برهة قَدِمَ الشيخ، وأرجع لي الهاتف، وقال:

ـ إنَّ المحكمة الأسبوع القادم، ويجب أنْ أحضر مع سلمان، وأنتَ كذلك للمحكمة.

قلتُ:
ـ وكيف العمل هنا؟ لا تقدر رحمة أنْ تبقى لوحدها هنا في الخان.
ـ سوف نغلق الخان في ذلك اليوم لظروف طارئة، وسوف يتفهَّم الزبائن ذلك.

هززتُ رأسي مُبديًا الموافقة، وعدتُ إلى العمل، ولم أنتبه سوى لاحقًا أنَّ رحمة وزوجها السابق كانا في الصالة، وعادت هي إلى المطبخ للعمل، ولحقتُ بها، وكلي فضول لمعرفة ما جرى، وسألتها:
ـ هل حقيقة يود العمل هنا زوجك السابق؟
ـ قال لي إنه يود العمل هنا فقط؛ ليكون بجانبي، ويعتذر لي في كل لحظة أمضاها بدوني.

ساد صمتٌ، وبدأتْ رحمة بالعبث ببعض حاجيات المطبخ، وكانتْ تبدو محرجة ومتوترة، وهنا طرحتُ عليها الفكرة المجنونة القادمة حقيقة من أعماق قلبي، والتي خرجتْ من فمي بصعوبة لمساعدتها، وربما إعادة الأمور بينهما إلى سابق عهدها.
ـ الأسبوع القادم، سوف نذهب إلى المحكمة، وسوف يُغلق الخان، إلَّا إذا وددتِ أنْ يساعدكِ زوجكِ السابق في العمل هنا، ويمضي اليوم كله يُقدِّم أطباق الاعتذار، وشراب الغفران للجميع.

ابتسمتْ رحمة، وأحسستُ أنها على ما يرام، وراقتها الفكرة، وأنها قد تكون مقتنعة بما قاله لها، على الرغم من قصر الفترة التي أمضياها في الخارج، وتساءلتُ في نفسي: هل هو ساحر فنان يركل ويرمي ويطلق.. ومن ثمَّ يعتذر ويندم ويطلب المغفرة.. ويُقبل

اعتذاره ببساطة متناهية.. أم أنَّ رحمة لا تزال تحبه بشدة، ولم تقدر أبدًا أنْ تفارق ذاك الشعور الطاغي، وحرارة الإحساس، وهذا ما يُغيب الرؤيا أحيانًا، ويعمي البصيرة عن الأخطاء التي جرتْ في حقها، ويجعلها تتسامح معها بهذه السهولة المتناهية؟... هل هي صحوة ضمير منه متأخرة، أم عجلة في المغفرة منها؟.. الحب غريب غير مفهوم حتى في ضحاياه على اختلافهم.

رجعتُ للشيخ، الذي كان لا يزال جالسًا مع زوج رحمة السابق، وقلتُ له:

ـ إنْ كان يود العمل، فقد يمكنه أنْ يساعد رحمة الأسبوع المقبل، عندما نذهب إلى المحكمة، ولا داعي لغلق الخان، ويمكنه من أنْ يحل محلي في خدمة الزبائن إنْ أراد ذلك.

كان الشيخ ينظر إلي أثناء ذلك، ولم يجب، واستدار ناحيته، وكأن السؤال موجه إليه، وبادر الزوج السابق، الذي كنتُ لا أعلم اسمه لحد الآن بالموافقة مباشرةً، وبدون إبطاء أو تلكؤ، ولم يمانع أبدًا، وفرح لهذا الاقتراح كثيرًا.. وغادر بعد الشكر وإلقاء التحية.

نظر إلي الشيخ بتساؤل، وفهمتُ قصده، وقلتُ له:

ـ أتمنى الخير لرحمة، وكانتْ تبدو فرحة وراضية، عندما اقترحتُ عليها ذلك، وربما هو مُخلّصًا حقيقةً في ندمه، وإلّا لم يتوسل بها بهذا الشكل، وسوف أكون جدًا سعيدًا إنْ عادت الأمور إلى سابق عهدها بينهما عساها ترتاح هذه المرة.. ماذا قال لكَ قبل رحيله؟.

ـ ردد نفس الكلام المعاد عن أخطائه بحقِّ رحمة، وقال إنَّ زوجته الأخرى طلقته، كونها ملّتْ، وعجزتْ منه؛ لكثرة زلات لسانه في اسمها، وتكراره لاسم رحمة أمامها حتى، وهو نائم بجانبها.

قَدِمَتْ رحمة إلينا، وقالتْ:

- أنا آسفة لهذا الصخب، الذي افتعله عامر، وقد أحرجني أمامكما، واستغل كوني هنا محاطة بكما ليقول ما يريد؟ لقد ذهب إلى والدي، ولكنه طرده، وقال له: إنَّ رحمة بغنى عن مخبول، وتافه مثلك.. ولكنه آثر الإهانة، وقَدِمَ إلى هنا، ولا أعلم ردة فعل والدي إنْ عَلِمَ بالأمر.

- المهم أنتِ، وليس والدكِ يا رحمة.

قال الشيخ، واستكمل:

- إنْ كنتِ لا تزالين على ود، ومقتنعة بندمه، أو لا تزالين في شكٍ، فالأمر يعود إليكِ، ولا أظن أنَّ والدكِ سوف يمانع، ولكنه قد يضع شروطًا قاسية تعجيزية عليه.

- لقد ذكر لي أنَّ والدته تود القدوم كذلك، والتأسف منِّي على ما حصل، ويطلبون منِّي أنْ تطوى هذه الصفحة، وتكون بداية جديدة، وأنا لا أعلم حقيقة ماذا هو ردي؟ لقد كانتْ مفاجأة لي، وأودُّ أنْ أفكِّر أكثر بالأمر.

- نتمنى جميعنا الخير لكِ يا رحمة، ولا نريد أنْ نخسركِ؛ لأنكِ فتاة جادة ومخلصة.. لكِ فرصتكِ أنْ تفكري مليًا، وهو سوف يقدِم هنا الأسبوع القادم؛ ليساعدكِ في العمل أثناء غيابنا في المحكمة، وتقدرين ربما إلى ذلك الحين أنْ تصلي إلى قرار بشأنه.

أتى يوم المحكمة، وقَدِمَ عامر زوج رحمة السابق منذ الصباح الباكر؛ للعمل في الخان عوضًا عنا، كما تهيأنا نحن كذلك للمغادرة وقَدِمَتْ إلينا عربة أجرة، كنا قد اتفقنا مع سائقها مسبقًا؛ لنقلنا إلى

المحكمة، والتي تقع في المدينة، وكانتْ لي هذه فرصة ولأول مرة أزور فيها المدينة، وإنْ كانتْ في ظروف مختلفة وصعبة، ولكنَّ القدر له رأي مختلف.

استقللنا العربة أنا والشيخ وسلمان، الذي اتصلتْ بي معلمته؛ لتعلمني أنها سوف تكون حاضرة هناك في المحكمة مع الباحثة الاجتماعية، وانطلقتْ العربة بنا متجهة نحو المدينة، تقطع الطريق السريع المتجه إليها مباشرةً بحسب السائق، الذي لم يتوقف عن الكلام طوال الطريق عن هموم الدنيا ومشاكله؛ وكأنه الوحيد الذي لديه هموم ومشاكل، وكنا أنا وسلمان جالسين على المقعد الخلفي للعربة، وناولته الهاتف النقَّال؛ ليسمع الموسيقى، وكذلك يتصفح الصور التي حمَّلتها من هاتف سافي؛ لنقضي الوقت بالتسلية، واللعب والضحك على الرغم من قلقي لذهابي إلى المحكمة، التي لم أزرها في حياتي مطلقًا، وهذه تجربة فريدة أخرى تمر علي منذ رحيلي عن القرية، ولابد من قضاء الوقت، وإشغال نفسي على هذا الدرب الطويل الممل، والذي بدا وكأنه يضيق كلما نقترب أكثر من المدينة، ربما لازدياد عدد، وزخم العربات المتراصة على جوانبه، والمتوجهة للمدينة، وبدا يتعالى دوي الضجيج، والصخب من كل مكان؛ لأنَّ نافذتي كانتْ مفتوحة لكي لا أسمع الأغاني السخيفة المنطلقة من مذياع السيارة، وبدأتْ تظهر لنا الأبنية، والمصانع التي تقع على أطراف وفي ضواحي المدينة، وترتفع قمم المداخن الشاهقة، والنافثة للدخان الأسود من المعامل المترامية على جوانب الطريق، وتمرُّ العربات الكبيرة المحملة بالبضائع، وأخرى محملة

بالأزبال والأنقاض، وتتوجه نحو مناطق رمي النفايات، وتجميع القمامة التي تجمع من المدينة؛ لترمى وتكدس في ضواحيها، بحسب قول سائق عند سؤالي عن تلك الجبال من القمامة على جانب الطريق.. وأكملنا مسيرنا حيث اقتحم الطريق السريع شوارع المدينة، واخترق الأبنية السكنية المترامية على الجوانب، ومجاميع المحال، والدكاكين التي تعج بالمتسوقين، وحتى مراكز التسوق الكبيرة التي تتخللها الشوارع الممتلئة بالسابلة، والباعة المتجولين، والنساء المحملات بأكياس بكل الألوان، والعلامات التجارية المتنوعة، وراكبي الدراجات البخارية الذين لا يتوقفون عند إشارات المرور، وعربات الشرطة، والسيارات الفاخرة، والأخرى القديمة البالية معًا جنبًا إلى جنب، وكنا نسير ببطءٍ لشدة الزحام في مركز المدينة، وكان الكل يزمجر بأبواق السيارات، وكأنه ينفث غيظه فيها، والبعض الآخر منهم يصرخ، ويلوح بيده دليلًا على سأمه، أو ربما يشتم ويسب لغضبه من هذا الزحام المتراكم، وجال نظري في سماء المدينة بعد أنْ ضجرتُ من رؤية جنون الشوارع اللامنتهي، والتي تمتلئ بالطائرات المحلقة عاليًا، وبالطيور المستلقية على أعمدة الكهرباء وأسلاكها... لقد دخلنا عالمًا مختلفًا عمَّا تعودتُ عليه يعج، ويمتلئ بمختلف البشر المتعجلين بلا سبب، وكلما يمضي الطريق السريع مخترقًا المدينة، كان يظهر لي التباين الشنيع، والفارق الكبير ما بين الأحياء الفقيرة الممتلئة بالأبراج السكنية المتهالكة المغطاة بالصحون الفضائية، وغسيل الملابس المتأرجح مع أنسام الهواء، والكلاب السائبة، وحتى المقطورات

التي يسحبها الحمير في الضواحي المتهالكة (تذكرتُ حمارنا "أبي صابر"، وكم هو مدلل في قريتنا، ولا يعاني كل هذا الضجيج والزحام) وصولًا إلى الأبنية العالية الشامخة الشاهقة الفاخرة الصقيلة الشكل، والتي تلتمع من انعكاس ضوء الشمس عليها في مركز المدينة، إنه تمازج غريب من البشر، ويجمع كل الطبقات المتباينة، والمختلفة في كيان واحد غير متجانس، وغير متسق تمامًا، ويمكن من تمثيله كدمية مارد أخرق، يرتدي حذاءً قديمًا مصدوعًا أجرب بالكاد يغطي أصابع القدم القذرة، وسروالاً عتيقًا مهلهلاً تبرز بواطنه للخارج، وتتدلى جيوبه المثقبة على جوانبه، ويغطيه من أعلى ثوب من الحرير الفاخر الكشميري المصقول الناعم شديد البياض، وتعتمر الدمية قبعة بيضاء مرصعة ومذهبة، وكلما تحاول أفواج القمل، التي ضاقتْ من رائحة الحذاء، وثقوب السروال الكبيرة من التسلُّق والزحف نحو الأعلى إلى المكان المفضل لها على فروة الرأس، تواجه بيد من فولاذ مزينة بخواتم ذهبية مرصعة؛ لتردعها، وتردها إلى مكانها المناسب في الأسفل؛ لتبقى متراصة، ومكتظة في أساس البناء حفاظًا على القاعدة المتينة التي تحمل بجهدها، الذي لا يلوء، ولا يفتر القمة الشاهقة المتألقة، والمقصورة على القلة المحظوظة، كما تبدو لي، وربما أتمكن من الإفلات والارتقاء مثل البعض، والزحف إلى القمة المقصورة...

وفجأة صاح بنا السائق، وقال:

ـ لقد اقتربنا من المحكمة.

وبدأ يظهر من بعيد بناء كبير من القرميد الأصفر اللون والمزين بأقواس كبيرة الحجم، ومحاط بأسوار عالية، يترامى حولها الكثير من رجال الشرطة، وعرباتهم المصفوفة بجانب السور البليد، وكذلك تنتشر الكتل الخرسانية عند مداخلها.

وقفتْ العربة على جانب الطريق؛ لنترجل منها، وذهبنا إلى المدخل الكبير لهذه البناية، وتمَّ تفتيشنا بعناية خوفًا على ما يبدو من سلامة الكادر القضائي، والمتهمين، وغيرهم من الحضور... وبعد الاستفسار عن مكان الجلسة المرتقبة، ارتقينا السلالم العريضة في باحة المحكمة؛ لنتجه إلى إحدى القاعات في الطابق العلوي، وكان هناك عند مدخل القاعة بانتظارنا ضابط الشرطة، وبمعيته الباحثة الاجتماعية، ومعلمة سلمان، وعدد من الشرطة، وبعد التحية، دخلنا لنجلس في القاعة الكبيرة بانتظار بدء جلسة المحاكمة، وكان هناك يتواجد بعض الحضور، ومن ضمنهم والدة رنين التي أعرفها من زيارتي لهم، وكانتْ مرتدية ثياب قاتمة، ووشاح يغطي رأسها، وكانتْ جالسة بهدوءٍ على إحدى المقاعد الخشبية، وتبدو أمارات الحزن الشديد عليها، وبرفقة أشخاص قد يكونون أقرباء لها، ومضى بعض الوقت، الذي قضيناه بتبادل الحديث إلى أنْ قَدِمَتْ رنين تسير مرفوعة الرأس، مكبلة اليدين برفقة شرطية، وتبعتها كذلك امرأة أخرى برفقة شرطية أخرى مكبلة كذلك، ولكنها تسير برأس منكسة إلى الأسفل، وأجلسوهما في المكان المعد للمتهمين المسور بأعمدة حديدية على جانب القاعة، ولكنْ على مسافة عن بعضهما ويفصلهما كذلك سور داخلي من القضبان الحديدية،

ويرافقهما الشرطيتان، وتكلَّم مع رنين على ما يبدو محاميها، الذي كان يرتدي بدلة سوداء اللون، وكذلك والدتها التي سُمِحَ لها بالذهاب للتحدُّث معها عبر القضبان الحديدية، وسألتنى الباحثة الاجتماعية:

ـ هل تعرفون تلك المرأة المتشحة بالسواد الجالسة بجانب رنين في القفص الحديدي؟

أجبناها مباشرةً بالنفي، وقالتْ لنا:

ـ إنها والدة سلمان، وهي اليوم شاهدة في محكمة رنين، وقَدِمَتْ من السجن؛ لأنها تمضي الآن فترة محكوميتها بعد أنْ أخذتْ جزاءها من القضاء في محاكمة سابقة بتهمة التآمر على زوجها السابق والد سلمان.

كان موقفًا جدًا صعبًا ومؤثرًا؛ لكون سلمان جالس بيننا، وأمه أمامه مركونة في القفص الحديدي، مكبلة اليدين محاطة بالشرطة، ولا أعرف إنْ كان قد تعرف عليها، وأدرك مَنْ هي؟.

أخرجتُ من جيبي هاتفي النقَّال، وبدأتُ بتصفح الرموز الصورية إلى أنْ وجدتُ رمزًا يدل على الأم، وأشرتُ به إلى سلمان؛ لينظر بتمعن في الصورة، وبعد برهة من التركيز على الصورة، نظر إلي، وأشار إلى قفص الاتهام، الذي يوجد فيه والدته، ونظرتْ إلي الباحثة الاجتماعية، وسألتها:

ـ هل يجب أنْ يمرَّ سلمان بكل هذه التجربة المريرة؟

أجابتني بالقول:

ـ إنه يؤدي واجبه تجاه جدته المتوفاة، والتي كانتْ هي كذلك ضحية لهؤلاء، وكانتْ تشير إلى المتهمين.

ساد صمت عميق في داخلي، ثم تشجعتُ، وسألتها:

ـ هل يمكن أنْ نأخذه إلى أمه؟

فكرتْ الباحثة لبرهة من الزمن، ثم وقفتْ، وذهبتْ إلى ضابط الشرطة؛ لتتكلم معه، وبعد نقاشٍ بسيط أشارتْ لي بأخذه إلى والدته في القفص الحديدي برفقة ضابط الشرطة، وتقدمنا وسط المصاطب الخشبية العديدة؛ لنقترب نحو مكان الحجز، وعندما دنونا أكثر من مكان التوقيف، نهضتْ الأم مصعوقة، ومندهشة لرؤية ابنها سلمان، وكأنها لم تتوقع رؤيته أبدًا يقترب منها، وانهملتْ دموعها على خديها، عندما مد يده من خلال القضبان، واحتضنته بيدها على قدر ما سمح لها الحاجز الحديدي بذلك، والذي يفصل ما بين الاثنين وكنتُ أُراقبهما عن بعد؛ لأنه لم يسمح لي بالاقتراب كثيرًا منهما، وقلتُ في نفسي: إنها لمفارقة مؤلمة جدًا في كيفية انقلاب الأمور على هذا النحو الغريب، وتبادل الأدوار، الذي حصل الآن حيث أمضى الطفل سنين من عمره مسجونًا، وحبيس غرفته، والآن هو حر طليق، ولكنَّ أمه تقبع مسجونة في قفص حديدي، قد يكون هذا عقابًا لها وتحقيقًا للعدالة، التي نفتقدها في مجتمعنا الظالم، وقد تكون الدموع التي انهمرتْ منها بسخاءٍ معبِّرة حقيقةً عن الندم على ما فعلتْ بحقه وبحقِّ والده، أو قد تكون هذه الدموع فقط لشعورها بالأسى، والخزي لنفسها الذليلة في ركنٍ مهمل أمام ابنها... لا أعلم ما في دخيلة نفسها، ولكني أدركتُ بشدة مشاعر اللامبالاة والبلادة، عندما نظرتُ إلى رنين الجالسة في الحجرة المجاورة، وكانتْ تبدو كالحجر المصبوب على الأرض القاحلة، ولم تتأثر البتة بما يجري

بجوارها، ولم تظهر أي عواطف لهذا الموقف... وسحب الضابط سلمان من أيادي أمه بعنفٍ؛ لينهي المقابلة قصيرة الأجل، وأخذته بيده؛ لنعود إلى مكاننا بجانب الشيخ...

وقبل أنْ أصل إلى مقعدي صاح بي أحد من الجانب:

ـ صالح.

استدرتُ لأرى مَنْ يناديني:

ـ قاسم ! ماذا تفعل هنا في المحكمة؟

ـ جئتُ هنا أنا ومجموعة من الشباب في التنظيم؛ لكي نعبِّر عن مساندتنا لرنين المتهمة، والتي هي ضحية مؤامرة سياسية خبيثة؛ للتخلُّص منها وإسكاتها، ويجب الإفراج عنها حالًا، ورد اعتبارها، وإسقاط جميع التهم الملفقة، والتي لا أساس لها من الصحة، ولا يمكن لرنين أنْ تقوم بمثل هذه الأعمال، ولا يمكنها أبدًا السرقة والقتل، إنهم مخبولون باتهامها هكذا... وأنتَ يا صالح ماذا جاء بكَ إلى هنا؟ هل قَدِمتَ إلى مساندة رنين كذلك؟.

ذهلتُ لسماع مثل هذا التهويل السمج، والذي لا يمت بأي صلة للقضية، التي نحن هنا من أجلها.

ـ لا يا قاسم أنا جئتُ مع هذا الطفل لإسناده وإسناد الحق ضد الباطل، وأعتقد أنكَ وجماعتكَ مشوشين ومندفعين، ولا تعرفون الحق، ولا تفعلون الصواب بحضوركم هذا المستهجن.

عندها قَدِمَ القاضي، وجلس على مقعده، وكذلك فعل الحاضرون، وبعدها أعلن عن بدء جلسة المحكمة.

طلب القاضي من الكاتب أنْ يدلي بتفاصيل القضية المقامة من الحق العام تجاه رنين، وبعد ذكر التهم المتعددة الموجهة إليها، طلب القاضي من المدعي العام بالترافع، وعرض التهم الجنائية الموجهة بحقِّ المتهمة رنين، وكشف الأدلة والقرائن، وتقديم الشهود، وابتدأ المدعي بشرح القضية منذ البداية، وذكر أنَّ رنين تحاكم في قضايا أخرى بتهمة التآمر، والنصب، والسرقة، والاحتيال، ولكنَّ اليوم هي تحاكم بتهمة القتل العمد، والتسبب بالموت للسيدة خالدة عمير البالغة من العمر ٦٥ عامًا، وكذلك بتهمة محاولة الاختطاف للطفل سلمان ابن المتوفي سعد، وابن المحكومة سعاد، وأشار إلى والدة سلمان القابعة في القفص الحديدي، وإيقاع الأذى الجسدي به، واستهل عرض الأدلة، وهي تتضمن سجل المكالمات ما بين رنين وسعاد، ومحضر اعترافات سعاد والدة سلمان، وتقرير الطبيب العدلي عن سبب الوفاة، وشهادة السائق الذي أوصل الجدة إلى الخان، وشهادة جد سلمان، وشهادتي، وأخيرًا شهادة سلمان الطفل نفسه، الذي كان متواجدًا في مكان الحادث عند وقوع الجريمة إياها... واستطرد المدعي العام في كلامه أنَّ جميع هذه الوثائق موجودة في سجل المحكمة، وأشار إليها بالأرقام، وترتيب السجلات، وأنها كذلك متوفرة إلى محامي المتهمة... وبعدها بدأ يستعرض دوافع الجريمة، والملابسات المتعلقة بكيفية حصول عملية القتل لجدة الطفل، وذكر أنَّ من خلال اعترافات الوالدة، ومن خلال تحليل المعلومات من المكالمات الهاتفية بين سعاد الأم ورنين، يتضح أنَّ الأم سعاد بعد سماعها بخبر انتحار السيد سعد

زوجها السابق وطليقها، اتصلتْ برنين؛ لتخبرها عن تلك الوفاة، وتستشيرها فيما العمل بسلمان الطفل بعد أنْ آلتْ مسؤوليته إليها، وهي غير قادرة على ذلك، وفي نفس الوقت أنَّ سعد بعد وفاته سوف تؤول إلى الطفل بحكم الوراثة ملكية العقار، الذي كان يسكنه، وكذلك المحال التي كان يمتلكها الوالد، ومخزن البضائع، الذي تمَّ سرقته ونهبه من قِبل عصابة مجرمة بتحريضٍ من سعاد زوجته السابقة، التي تقضي محكوميتها بسبب ذلك، وبمساعدة رنين، التي سهلتْ الاتصال ما بين سعاد والعصابة، ومن خلال هذه الاتصالات أخبرتْ سعاد أنها تود أنْ تصبح هي المالكة لهذا الميراث بكونها الوصي الفعلي على الطفل، وبالتالي يمكنها من التحكم بهذه الممتلكات الموروثة، ولكنْ هناك يوجد جد الطفل، الذي لا يعلم أحد عن وجوده، ومكان تواجده، ويجب إخفاء أمره عن المحكمة لحين إكمال كل المعاملات المتعلقة بالوصاية والإرث، وبعدها يمكن من التخلُّص من مشكلة سلمان بأي طريقة، وضمن الحديث وعدتْ الأم بتقاسم مردود الإرث؛ لأنه يصبح لها في حالة وفاة سلمان.. ولكنْ فيما بعد يتضح من متابعة الاتصالات المستمرة ما بين سعاد ورنين أنَّ والدة سعاد كانتْ جدًا ممتعضة، وغير راضية عمَّا يجري من ترتيبات إجرامية بين المتهمتين، وأنها كانتْ تعلم بوجود الشيخ جد الطفل سلمان، ومكان سكنه، وبالتالي قررتْ جدة سلمان أنْ تأخذه إلى جده، وتشرح ملابسات ما حدث لابنه سعد، وما يخططونه للطفل سلمان، وكانتْ تحاول بكل طريقة من إنقاذ سلمان من براثن رنين، ومن خطط والدته سعاد، واتصلتْ

الجدة بسائق؛ ليأخذها إلى الخان حيث يسكن جد الطفل، وعلمتْ سعاد بالأمر من السائق، الذي قَدِمَ عند الصباح الباكر جدًا؛ ليقلهم إلى الخان، واتصلتْ سعاد بعدها برنين التي تسكن الحي المجاور للخان، وأخبرتها بأنَّ كل خططهما سوف تبوء بالفشل؛ لأنَّ والدتها في طريقها إلى الخان؛ لتوصيل سلمان إلى جده، وأنها تنوي إخبار الجد بكل شيءٍ عن سرقة المخازن العائدة لابنه، وعن الموروث الذي سوف يؤول إلى سلمان، وعن خطط الوالدة الوصية المفترضة عليه من التخلُّص من سلمان، والاستحواذ على الممتلكات، وتقاسمها المزعوم مع رنين، وأجابتها رنين من أنها سوف تخرج إلى الخان؛ لمنعها بأي طريقة من إيصال سلمان للجد، وكشف المخطط، وكما نعلم بعدئذ أنَّ الشيخ جد الطفل سلمان، ومعه السيد صالح الذي كان متواجدًا في الخان حينئذ، اكتشفوا جثة الجدة مرمية بمسافة عن الخان، وذهب الشيخ لاستحضار مساعدة من الحي، وكان أول مَنْ شاهده في الطريق إلى الحي المتهمة رنين، وكان في الصباح الباكر حوالي السابعة والنصف صباحًا، ويعتقد الطبيب العدلي من خلال تقريره أنَّ حالة الوفاة للجدة حدثتْ ما بين السادسة والنصف إلى الساعة السابعة، وكان سبب الوفاة بحسب التقرير، هو الاختناق نتيجة الضغط الشديد المتواصل على العنق لفترة قصيرة من الزمن من ثلاث إلى خمس دقائق، وهذا الضغط أدى إلى أنْ تفقد الضحية في هذا الوقت القدرة على استنشاق الأكسجين الضروري للحياة من الهواء، مما يؤدي إلى الغيبوبة نتيجة انعدام وصول الأكسجين إلى المخ، وبالتالي إلى تلفه والتسبب

في الموت الحتمي، ويظهر التقرير كذلك أنَّ الضحية حاولتْ المقاومة، ولكنَّ فارق السن والبنيان الجسمي بينهما حيث إنَّ الضحية ضعيفة البنيان، ومسنة بعمر يناهز الـ ٦٥، وقصيرة الطول، بينما رنين التي تبلغ من العمر ٣٠، وهو أقل من نصف عمر الضحية، وكذلك أنَّ رنين أطول بفارق كبير عن الضحية بالتحديد بأكثر من ١٥ سنتيمتر، وأكسبها هذا الفارق ميزة، وقدرة في السيطرة على الضحية، وخنقها بيديها، والتسبب في موتها، كما أنَّ شهادة الشرطي، الذي أعد محضر الحادث وقت اكتشاف الجثة والتبليغ عنها، تذكر أنه عند استجوابه للمتهمة رنين، التي كانتْ متواجدة حينئذ في محيط مكان الجثة، أنه لاحظ تمزق في أكمام الرداء الذي كانتْ ترتديه، وكذلك وجود آثار خدوش حديثة على ساعدها الأيمن، وعند سؤالها عنها ذكرتْ أنها من جراء العمل، وقد تمَّ مصادرة الرداء والتحفظ عليه، والذي كانتْ ترتديه وقت الجريمة، وهو ضمن الأدلة المقدمة والمعروضة إلى المحكمة، وأشار إلى كيس بلاستيك يحوي رداءً في داخله.

وبعد برهة من الصمت وهو يعيد الأدلة إلى مكانها على الطاولة، استكمل المدعي العام طرحه للقضية بالقول للقاضي:

ـ إنه من خلال اعترافات المجرمة سعاد، وسجل المكالمات الهاتفية بينها وما بين المتهمة رنين، يتضح لنا وجود الدافع، والنية، والتخطيط المدبر في هدف إيقاع الأذى البدني للسيدة خالدة، وكذلك في محاولة اختطاف الطفل سلمان، والتآمر لطمس الحقائق، والاستيلاء على ممتلكات الغير، وكذلك وجود النية، والتخطيط

لإيقاع الأذى بالطفل والاستحواذ على ملكيته الموروثة إليه من والده، الذي توفي منتحرًا بعد خسارته الكبيرة نتيجة جريمة السرقة المدبرة، التي حصلتْ لمحتويات مخازنه من بضائع ثمينة تمتْ على يد عصابة مجرمة تقبع الآن في السجون بتوجيه، وتدبير من قِبل زوجته السابقة المجرمة سعاد، وكان يعلم المغرر به السيد سعد أنه ليس بام كأنه سداد الديون الهائلة التي كانتْ مستحقة عليه، وحتى إنْ تمَّ تصفية كل ممتلكاته، والتي لا تكفي لتغطية جزء من هذه الخسارة الكبيرة التي تكبدها نتيجة السرقة، ونعتقد أنه بقراره الانتحار وإنهاء حياته، فإنه يعفي نفسه من هذه الخسارة الكبيرة ومن الديون التي ترتبت جرائها، وبموجبها وبالتالي تؤول ممتلكاته العقارية المتبقية إلى ابنه سلمان بدلًا من أنْ تذهب إلى الدائنين لإيفاء الخسائر، وهي قد تكون تضحية من جانب الوالد لإبقاء شيء من الورث إلى ابنه المعوق، ولكنَّ طمع وجشع المجرمة سعاد، والمتهمة رنين في محاولتهما لطمس الحقائق، والتمادي في غيهم أدى إلى مقتل الجدة الرافضة لأعمالهما الإجرامية، وكذلك في محاولة اختطاف الطفل سلمان وإيقاع الأذى به، والذي كان متواجدًا لحظات حدوث الجريمة، وهو الشاهد الوحيد على ما حصل لجدته على يد المتهمة رنين، وكيفية التسبب بموتها، ويبدو أنَّ معرفة رنين المسبقة بعوق سلمان الفكري جعلها تتجرأ وتتهور، ولا تهتم كثيرًا لوجوده بجوار جدته عند ارتكابها للجريمة المؤلمة؛ لاعتقادها الجازم من أنَّ سلمان لن يتمكن أبدًا من الإفشاء والإفصاح عمَّا جرى وما حدث لها، ولن يقدر على قول الحقيقة لكونه معوق وغير

قادر على الكلام، ولكنَّ ذاكرة الطفل سلمان تعمل، وليس فيها أي عوق أو ضرر، والخلل يكمن فقط في قدرته على الكلام، وكان لابد من إيجاد وسيلة للتخاطب معه، وفهم حقيقة ما جرى قرب الخان، وقد جرى عرضه على أخصائيين في الطب النفسي، وكذلك اختصاصيين ومعالجين في النطق، وكيفية التواصل والتفاهم مع سلمان.

ثم أخرج المدعي العام عدة وثائق، وقال:

ـ هذه هي التقارير الطبية التي تصف حالة سلمان الصحية، وكذلك عوقه، وكيفية معالجة النقص في القدرة على الكلام، وقد طورنا برنامج خاص بالتعاون مع المدرسة التي ينتظم بالذهاب إليها، وهذا البرنامج يستخدم الرموز والصور لغرض مقاربة الحقيقة، وما جرى إلى ذهن سلمان المعوق، والذي سوف يتيح له بسهولة استنباط، وترتيب تسلسل مجريات ما حصل لجدته وله بحسب ما رآه وقت الحادث بشكلٍ مقارب جدًا للحقيقة، وبدون وجود أدنى شك في النتائج المستخلصة منها.

وهنا بدأ يشرح ماهية لغة الرموز الصورية، وكيف يمكنها أنْ تعبِّر عمَّا يود الشخص المعوق من خلال ضغطه على أحد الرموز، وكذلك وضعها في تسلسل صف عمودي لتبين التتابع الزمني وفق أولويات ما يجري، أي: أنَّ الأعلى هو أول شيء يتبعه الثاني تحته، وهكذا إلى آخر الجدول يكون آخر شيء حدث، وعند وجود أكثر من صورة في الصف الأفقي يعني حدوث أمريين أو أكثر في وقت وزمن واحد، هذا يعني وجود سياقين، الأول: عمودي لتفسير زمن

تسلسل الأحداث بحسب أولوية وقوعها، والثاني: سياق أفقي يفسر الحدث وطبيعة ما جرى، وقد يكون هناك أكثر من صورة واحدة فيه تمثِّل عدة أحداث في زمن واحد متقارب، وشرح المدعي العام هذه الطريقة أولًا على مجلد يحوي الصور أمام القاضي، ثم طلب من معلمة سلمان القدوم، وشرح البرنامج بالتفصيل على شاشة تمَّ وضعها إلى جانب مكتب القاضي، واستمع الجميع إلى شرحها المكرر ولكن بتفصيلٍ أكثر، وكيف يمكن أنْ نستنتج بالدقة ما يود سلمان قوله، وكذلك تمَّ عرض فيلم سُجِّل في المدرسة حيث كان سلمان يتمرن على العمل على البرنامج.

وبعدما انتهتْ سألها القاضي مرة أخرى عن الدقة في معرفة حقيقة ما يود أنْ يقوله سلمان، وأنْ ليس هناك شك أو خطأ في الاستنتاج، وأجابته بأنَّ هذه الطريقة توفِّر دقة حاسمة، ولا تقبل الشك، ولا الظن في الحكم.

وعادت إلى مقعدها.

ثم طلب المدعي العام من القاضي أنْ يأمر باستجواب سلمان عمَّا حدث بحضور معلمته وكذلك الباحثة الاجتماعية، وبالفعل أمر القاضي بجلب سلمان إلى مقعد الشهود المخصص إليه، وقادته الباحثة الاجتماعية إلى المقعد برفقة المعلّمة، وأجلسوه إلى ما يشبه الطاولة المدرسية يعلوها جهاز بشاشة كجهاز الحاسوب، ويعمل بطريقة اللمس، ومرتبط بالشاشة الكبيرة المعلقة أمام القاضي؛ لكي يقدر الجميع أنْ يتابع مجريات، وتسلسل ما سوف يفعله سلمان على شاشة الجهاز، وبالفعل ابتدأتْ المعلّمة بتشغيل الجهاز، وبرزتْ عدة

اختيارات على الشاشة، ومنها: صورة لجدته، وصورة عربة، وصورة الخان، وصورة السائق، وصور المنزل الذي كان يسكنه قبل قدومه للخان، وعدد آخر من الصور التي كانتْ بغير ترتيب كلوحة الألغاز، ويجب على سلمان أنْ يعيد ترتيبها بحسب مجريات الأحداث في الزمان الصحيح، وضغط على صورة جدته؛ لتظهر لوحة جديدة تبرز على قمتها صورة جدته، ثم عاد وضغط لإعادة اللوحة السابقة التي تحمل باقي الصور، وضغط على صورة السائق، والتي انتقلتْ إلى اللوحة الثانية؛ لتوضع تحت صورة الجدة، وضغط مجددًا على صورة العربة، وجعلها أفقية بجانب صورة السائق، وهكذا استمر بمهارة عالية ينتقل بين اللوحات؛ ليرتب الصور التي كانتْ منتشرة بغير نظام في اللوحة الأولى؛ ليرتبها في اللوحة الثانية بانتظام بحسب ذاكرته، وبدأ تدريجيًا يتضح تسلسل الأحداث التي حصلتْ، وكيف أنَّ جدته رحلتْ بمعية السائق إلى الخان، ومن ثمَّ ضغط سلمان على صورة الجدة مرة أخرى، وضغط على رمز آخر يدل على التوتر ووضعها بجانب صورة الجدة، ثم عاد وضغط كذلك على صورة جدته، ورتبها إلى تحت الصف، ووضع بجانبها رمز العنف والعراك، وأعاد نفس العملية، ووضع صورتها بجانب رمز يعني الاستلقاء، وفهمنا أنَّ جدته كانتْ تتجادل ثم تتعارك، وبعدها سقطتْ على الأرض، وهنا تدخلتْ المعلّمة، وأبرزتْ لوحة جديدة فيها الكثير من الصور لأشخاص مختلفين من رجال ونساء، وظل يعاين لبرهة من الزمن على الصور أمامه، ثم ضغط على صورة، وحركها، ورتبها بجانب رمز الجدال من الجانب الآخر، وعاد إلى اللوحة السابقة، وضغط

نفس الصورة مجددًا، ورتبها بجانب رمز العراك، وكانتْ هذه الصورة هي صورة رنين، واتضح للجميع من تسلسل، وترتيب صفوف الصور والرموز، أنَّ الجدة دخلتْ في جدال مع رنين، ثم عراك، ومن ثمَّ استلقتْ على الأرض...

وهنا تدخل المدعي العام، وقال:

ـ هل يمكن أنْ نعرف من سلمان كيفية وفاة الجدة؟

وضغطتْ المعلّمة على شاشة الجهاز، وظهرتْ لوحة جديدة من الرموز المتعددة والمختلفة، وبدأ ينظر إليها سلمان، وضغطتْ المعلّمة على صورة الجدة؛ لتظهر بقرب هذه الرموز، وضغطتْ المعلّمة مجددًا؛ لتظهر صورة رنين بجانب صورة الجدة، وبقى سلمان برهة من الوقت ينظر إلى اللوحة، ثم ضغط على رمز يُظهر شخص ما يضغط على رقبة شخص آخر، ثم حرك صورة رنين؛ لتكون على جهة الرمز من ناحية الشخص الذي يضغط بيده، ثم حرك صورة الجدة؛ ليضعها بجانب الرمز من ناحية الضحية، والشخص الذي يقاوم الضغط.

ـ يا سيادة القاضي يتضح من هذه العملية تسلسل الأحداث، التي أدتْ إلى وفاة الجدة منذ وصولها إلى الخان، وملاحقتها من قِبل المتهمة إلى التسبب في وفاتها المؤسفة والمدبرة.

وهنا سأل القاضي:

ـ كيف يمكن أنْ نعرف إنْ كان الطفل يعمل حقيقة ما رآه أم أنه فقط يعملها؛ لأنه قد حفظها في المدرسة، وتدرب عليها، وبالتالي هو يعتبر هذه العملية بمثابة واجب مدرسي، وأنه فقط يعيده أمامنا؟

وهنا أجابتْ المعلّمة:

ـ لا تملك المدرسة صورة جدة سلمان، ولا صورة السيدة رنين، وهذه أول مرة يشاهدهما على هذا الجهاز، ولم يتم تمرينه على رموز فيها عنف أو التحام، وهذه كذلك لأول مرة يشاهد هذه الصور والرموز الغريبة عنه.

قاطعها القاضي، وقال لها:

ـ أنتِ لم تؤدي يمين القسم بعد أمام المحكمة، لذلك أودكِ أنْ تؤدي القسم الآن، وتكرري ما قلتِه؛ ليسجل في محضر الجلسة ضمن أقوال شهود النيابة العامة.

عندها تقدَّم كاتب الجلسة، وأرشدها إلى مكان القسم، وأقسمتْ المعلّمة، ثم كررتْ ما قالته عن الصور والرموز.

طلب القاضي من محامي الدفاع التعليق إنْ كان له أي اعتراض على العملية، أو أي مداخلة وسؤال، وهنا سأل المحامي:

ـ سيادة القاضي نعم أنا أعترض على شهادة الطفل، وأطلب الطعن في صلاحيتها لهذه المحكمة؛ لكون الطفل معوق، وقدرته على الاستيعاب قليلة، وهو غير مؤهل لاعتباره شاهد في هذه المحكمة.

وهنا تكلَّم المدعي العام:

ـ نعم إنَّ الطفل معوق وغير قادر على الكلام، ولكنَّ ذاكرته سليمة، وقد تمَّ اختبارها من قِبل الأخصائيين، وقدَّمنا نسخة إلى المحكمة لتقرير يتضمن سلامة ذاكرته من أي ضرر أو عوق، والأساس في قبول كفاءة الأدلة، وشهادة الشخص، هو مدى استجابته للأسئلة الموجهة إليه، وقدرته على الرد عليها بوضوح وجلاء، وهذا ما تمَّ

منذ قليل حيث أجاب الطفل على الأسئلة، وأظهر بكل وضوح ما حدث لجدته، ويمكن إعادة التجربة إنْ كانتْ سيادة القاضي يأمر بذلك.

وأجاب القاضي:

ـ لا موجب للإعادة، وتمَّ قبول شهادة الطفل، ولا يجوز الضغط عليه، ويجب الأخذ بالاعتبار مشاعره وحالته النفسية في إعادة ما جرى له من تجربة قاسية، أنا أكتفي بهذا القدر من شهادة الطفل، ويمكنه مغادرة المنصة، والعودة إلى مكانه في المدرسة الآن، ولا يوجد داعي لبقائه في المحكمة بعد الآن.

غادرنا جميعنا المحكمة بعد انتهاء شهادة سلمان، ولم نبقَ لنتابع مجريات جلسة المحاكمة وما يحصل فيها، ورافقنا ضابط الشرطة إلى خارج دار المحكمة، وقال إنهم سوف يتصلون بنا عند الحاجة إلينا، وكذلك لإخبارنا بحصيلة ونتيجة المحكمة والتي قد تدوم بضع أيام أخرى.

وقفنا في باحة خارج المحكمة بالقرب من مرآب حيث تنتشر فيه العربات، وقالتْ الباحثة الاجتماعية إنها سوف تأخذ سلمان، ومعلمته إلى المدرسة الآن.

ودَّعناهم.. وقال الشيخ:

ـ لنذهب، ونجلس في مكان نشرب فيه القهوة لدينا وقت قبل العودة إلى الخان.

سرنا قليلًا وسط الزحام، وجلسنا إلى طاولة في مقهى قريب من المحكمة، وقَدِمَ النادل حيث طلبنا القهوة، وبدأنا نتبادل الحديث، وسألني الشيخ عن رأيي بالمدينة، وأجبته:

- إنها مزدحمة جدًا، وإنْ كنتُ هنا لوحدي قد أتيه بسرعة، وبسهولة وسط هذه الجموع من الناس المتسارعة، وهذه الأبنية الكثيرة متباينة الشكل.

- إنها هكذا دائمًا مزدحمة حتى في المساء، حيث تبقى المحال مفتوحة للزبائن، ويتقاطرون على المطاعم، والمسارح، ودور السينما، والنوادي المنتشرة هنا في المدينة، وكما ترى الحياة، فهي مختلفة عن حياة الخان، والقرية، وكل واحد هنا على عجلة من أمره، ومنشغل أكثر بالماديات، وتوفير لقمة العيش له ولأهله، ولكنكَ.. هل تود العيش هنا يا صالح؟.

- لِمَ لا إنْ قدرتُ أنْ أجد عملًا ما، يكفيني لدفع أجور الحياة هنا في المدينة، والاستمتاع بما افتقدته في القرية، وتبدو وسائل الترفيه منتشرة بكثرة هنا.

ارتشفنا قهوتنا التي جلبها لنا النادل، ودفعنا له الحساب، ولكنْ كان هناك سؤال لا يزال في بالي، وقبل أنْ نغادر المقهى، وددتُ سؤال الشيخ عنه، على الرغم من إدراكي الحزن الذي سوف يسببه.

- يا شيخ أودُّ أنْ أسألكَ عن منزل ابنكَ سعد الذي تركه، ألا تفكر أبدًا بزيارته؟.

- لا يا صالح إنه صعب جدًا علي أنْ أدخل المنزل الذي خرج ابني منه ميتًا، إنه يحوي ذكريات أليمة لي وإلى سلمان المظلوم.

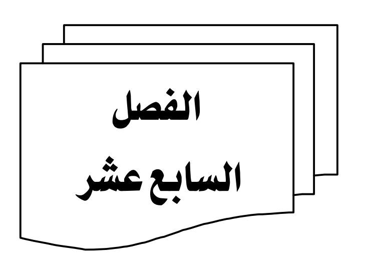
- وماذا سوف تفعل به؟

- سوف أعرضه للبيع بعد استكمال إجراءات الإرث.

- ها، لقد حضر سائقنا الثرثار لنذهب إليه.

ذهبنا إلى العربة التي أقلتنا عائدين إلى الخان، وانتهتْ زيارتي التي لم تدم طويلًا للمدينة، وعدنا من نفس الطريق السريع الذي سلكناه في رحلة الذهاب، ويشقها متجهًا جنوبًا.

ودَّعتُ المدينة بنظراتٍ، حاولتُ فيها تكديس وتخزين كل المشاهد والصور التي مررتُ بها؛ لتبقى في مخيلتي وأعيد عرضها لاحقًا كشريطٍ مسجل في ذاكرتي، التي استوعبتْ الكثير من الأحداث، وبدأتُ أشك بقدراتها على استيعاب المزيد منها.



الفصل السابع عشر

وصلنا الخان بعد رحلة امتدتْ أكثر من ساعتين من الوقت قضيناها بمجملها نستمع إلى سائقنا الذي حلَّ محل المذياع أحيانًا في نقل آخر الأخبار ومستجداتها وتحليلها بمنطقه البدائي، وكان لتعجبنا عند وصولنا إلى الخان أنْ كان كل شيءٍ على ما يرام، ورحمة كانتْ أول مَنْ استقبلنا لتسألنا عمَّا جرى في المحاكمة، وكيف انتهتْ الأمور إليها... وجلسنا إلى إحدى الموائد، وبدأ الشيخ يسرد تفاصيل الجلسة، وكيف استدعى القاضي سلمان ليشهد على ما جرى لجدته، ويصف للقاضي تفاصيل الحادث بالصور والرموز على جهاز إلكتروني بشكلٍ أقنعه، وقَبِلَ بشهادته على الرغم أنَّ سلمان طفلٌ معوق، ولم يقدر أنْ يحلف أمام القاضي، ومع ذلك استكمل شهادته بكل هدوءٍ وبساطة، ومن ثمَّ أمرنا القاضي بالخروج من الجلسة؛ لإعادة سلمان إلى مدرسته بعد انتهاء شهادته.

وسألها الشيخ عن أحوال العمل في الخان أثناء فترة غيابنا، وقالتْ:

ـ إنَّ كل شيءٍ على ما يرام، وأنَّ عامر استوعب واجباته بسرعة، وكان يعمل بهمة وجدية، ويستمع للأوامر بشكلٍ جيد ومطيع.

قالتها، وهي تضحك، وفهمنا منها أنها كانتْ مبتهجة للعمل بجانب زوجها السابق، ولم تحدث أي مشاكل.. مما شجع الشيخ؛ ليسألها:

ـ هل تودين أنْ يعمل هنا معكِ في المستقبل؟

ابتسمتْ، وهزتْ رأسها، وأجابتْ:

ـ الأمر عائد إليكَ يا شيخ.

مضتْ رحمة إلى المطبخ، وقلتُ للشيخ:

ـ لم نسمع أي خبر من مكتب الأميرة بشأن ما سوف تفعله في الخان عند رحيلكَ؟.

ـ لا يا صالح ربما قريبًا نسمع منهم، وأعتقد أنَّ الآوان قد حان للبحث عن مسكنٍ لنا في المدينة.

قلتُ له:

ـ سوف أفتقدكما عندما تذهبان للمدينة للسكن هناك، وسوف يصعب علي زيارتكما.

ـ لا يا صالح، لقد قلتُ لكَ إنكَ سوف ترافقنا إلى هناك، وتسكن معي ومع سلمان، لقد أصبحنا عائلة واحدة، وسلمان متعلق جدًا بكَ، وأنا لا أقدر على رعايته لوحدي كما تلاحظ، وهو كما تعلم يتيم، وإنْ جرى أي شيء لي سوف يبقى لوحده، وصحيح لدي أقرباء هناك، ولكنهم لا يعرفون سلمان جيدًا، كما تعرفه أنتَ، ولن أأتمنهم عليه، وقد ينتهي الأمر به ـ كما قال المفتش ـ في ملجأ الأيتام، ويأخذون ما تبقى من الأملاك لديه؛ لأنه جدًا مسكين وضعيف، ولا أثق بأحدٍ سواك على الرغم من قصر المدة التي أعرفكَ، لكنَّ معدن الإنسان هو هو لا يتغير، وأنتَ يا صالح خير مَنْ عرفتْ من الناس الكثر الذين مرَّوا بي، وأرجوكَ أنْ تبقى معنا، وألَّا تتخلى عن سلمان.

لأول مرة في حياتي أحس بأني شيء مهم، وأنَّ هناك مَنْ يعتمد عليّ، وهذا ما يزيدني فخرًا واعتزازًا بذاتي، وقلتُ للشيخ:
ـ لا يا شيخ لن أتخلى عن سلمان أبدًا هذا وعد لن أنكث به.

قَدِمَ عامر، وجلس على الطاولة، وشكر الشيخ على هذه الفرصة التي تمكّن في خلالها من التقرُّب قليلًا من رحمة.

رنَّ الهاتف، وأجبتُ عليه، وكان المتحدث شخصٌ ما؛ أراد الشيخ، وأعطيته الهاتف، وبدأ الكلام معه، ولم تدم سوى برهة بعدها أنهى المحادثة، وقال لي الشيخ:
ـ إنه سكرتير الأميرة، يريدنا أنْ نذهب هناك غدًا لمقابلة الأميرة بشأن تركنا خدمة الخان.
قلتُ للشيخ بتوجُّسٍ ظاهر:
ـ هل هذا شيء سيئ؟
ـ لا أظن ذلك؛ لأنه كان يتحدث بهدوء، ومن حق الأميرة أنْ تعلم شخصيًا لماذا بعد هذه المدة الطويلة من الخدمة أريد ترك الخان، ومَنْ سوف يحل محلنا في إدارة هذا المكان؛ كما قال لي سكرتيرها الآن على الهاتف.
ثم نظر إلى عامر، وقال له:
ـ هل تقدر يا عامر أن تأتي غدًا أيضًا للعمل هنا في الخان، فكما ترى كثرة المفاجآت غير المتوقعة؟
ـ نعم أقدر على ذلك يا شيخ، وسوف آتي غدًا في الصباح الباكر للعمل مع رحمة وصالح.

ـ لا، صالح سوف يأتي معي غدًا إلى قصر الأميرة؛ لأنَّ السكرتير طلب أنْ نذهب نحن الاثنان هناك لمقابلتها شخصيًا.

تدخلتُ في المحادثة، وقلتُ:

ـ أنا أيضًا؟.. لماذا؟ يبدو أنها تفكّر في إحلالي محلكَ هنا في الخان عند رحيلكَ، ولكنْ يا شيخ.. هل يمكنني أنْ أرفض أمرها في هذا الشأن؟.

ـ لا تقلق يا صالح، ودع الأمر لي معها، وأنا سوف أوضح لها أني لا أقدر على رعاية حفيدي بدون مساعدتكَ.

واستكمل حديثه:

ـ ما رأيكَ يا عامر؟ هل تود أنْ تعمل أنتَ ورحمة هنا في الخان بشكلٍ دائم؟ أخبرني الآن بقراركَ، وسوف أخبر الأميرة غدًا بأنَّ لدي مَنْ هو أهلٌ لتسلُّم مكاني في الخان، لكنْ قبل أنْ تجيب اذهب وتكلَّم مع رحمة، وسوف أنتظر جوابكما.

نهض عامر، وذهب إلى المطبخ، وقال لي الشيخ:

ـ اتصل بسائقنا الثرثار؛ ليقلنا غدًا إلى قصر سمو الأميرة.

قالها الشيخ، وهو مبتسم، ولم أُبطئ، واتصلتُ بالسائق، واتفقنا على موعد قدومه غدًا في الصباح الباكر.

وفي هذه الأثناء قَدِمَتْ رحمة برفقة عامر، وجلسا إلى الطاولة، وقالتْ رحمة:

ـ لا مانع لدي يا شيخ من العمل هنا مع عامر.

ـ كان هذا قرارًا سريعًا جدًا يا رحمة، ألّا تودين استشارة والدكِ في الأمر؟.

ضحكتْ رحمة، وقالتْ:
ـ أستشيره بماذا؟ لقد وافق والدي منذ زمانٍ على عملي هنا، ولماذا يمانع الآن؟.
ـ ربما بسبب وجود عامر هنا بجانبكِ بشكلٍ دائم، ولابد أنْ يعرف بهذا الأمر، وكما ذكر عامر فإنَّ والدكِ كان غاضبًا عليه عندما حاول الكلام معه.
نظرتْ رحمة إلى عامر، ثم قالتْ للشيخ:
ـ لا تهتم يا شيخ، أنا مَنْ يقرِّر هذا الأمر، وسوف أُكلِّمه لاحقًا لأخبره بواقع الحال، وما جرى.
ـ على خير يا ابنتي.
أجابها الشيخ باستسلام، ونهض الاثنان، وتبع عامر رحمة إلى المطبخ.
ثم قال لي الشيخ:
ـ كما ترى حُلَّتْ بعض الأمور هنا، وما بقي سوى أنْ نجد دارًا لنا في المدينة وبأسرع وقت؛ لنستقر هناك، وتجد لكَ عملًا، وربما تقدر أنْ تأخذ الدكان، الذي تركه المرحوم سعد، والذي لا يزال مغلقًا، وتقدر أنْ تعمل منه شيئًا لكَ يفيدكَ في عملكَ هناك.
ـ نعم إنها فكرة رائعة، ولكنْ قلْ لي: ألَّا يصعب عليكَ ترك الخان هكذا؟
ـ بالتأكيد يصعب علي ذلك جدًا، لقد قضيتُ كل عمري هنا، ولم يتبقَ سوى القليل منه، وأودُّ أنْ أمضيه في مكانٍ آخر أجد فيه بعض الراحة، وبعيدًا عن الذكريات المؤلمة الكثيرة هنا، ولكنْ يا صالح لم تقلْ لي: ما هو رأيكَ بزوج رحمة السابق؟

أظن أنَّ الشيخ أراد تغيير مسار الحديث، وأجبته:

- أظنه شابًّا طيبًا، بخلاف تلك الفكرة، التي كونتها عنه فيما سبق عندما علمتُ بما فعل لرحمة، ولكنَّ الاثنين يبدوان الآن في انسجام وتآلف، أتمنى لها كل الخير، وسوف أفرح لها كثيرًا إنْ عادا إلى بعضهما.. ألَّا تظن ذلك يا شيخ؟.

- نعم، يبدو أنه يعمل كل جهده لاسترضائها، وإقناعها بمسامحته، وربما ينجح في ذلك... على فكرة يا صالح، قلْ لي: هل لديكَ ملابس لائقة لمقابلة سمو الأميرة غدًا في القصر الأميري؟.. المظهر مهم جدًا هناك، وإنْ لم يعجبهما مظهرنا قد لا يسمحا لنا حتى بالدخول إلى عتبة القصر.

- لا يا شيخ، في الحقيقة؛ كما ترى؛ لا أملك أيًا من البدلات الفاخرة، ولا حتى أحذية لائقة، هل يمكن أنْ تعفيني من القدوم معكَ إلى القصر؟ إني جدًا محرج من الأمر كله.

- ليس الأمر بيدي، لقد طلبوكَ بالاسم لتذهب معي، وماذا تريدني أن أقول لهم؟ إنه خجول!.. اسأل رحمة وعامر ربما يمكنهما أنْ يساعدانكَ في شراء الملابس، أو استعارتها من أحدٍ ما لقضاء حاجتكَ غدًا.

- ليس لدينا وقت للذهاب إلى أي متجر الآن، نحن في مكانٍ منقطع، والرحلة إلى المدينة الآن صعبة في هذا الوقت، وأنا جدًا متعب، سوف أسأل رحمة إنْ كان لها أي فكرة أو اقتراح.

ذهبتُ إلى المطبخ حيث رحمة وعامر مجتمعين، وحكيتُ لهما عن المشكلة المتعلقة بالملابس والمظهر، وقالتْ لي رحمة:

ـ إنكَ بحجم عامر مع أنكَ أطول منه، ولكنْ يمكن لعامر أنْ يعيركَ إحدى بدلاته؛ لتلبسها غدًا على أنْ تعيدها إليه.

قالتها، ونظرتْ إلى عامر الذي كان واقفًا بجانبها، وقال بعد أنْ نظر إليها:

ـ نعم لدي بدلة لم ألبسها بعد، ولا تزال تبدو جديدة تليق بسمو الأميرة، سوف أذهب الآن لجلبها إليكَ، ولكنْ يجب أنْ تستحم قبل أنْ ترتديها.

قالها، وهو يضحك، وأجبته:

ـ لا تهتم سوف أبذل جهدًا كبيرًا في الاستحمام، ولكنْ لا تنسى إنْ كان لديكَ كذلك زوج إضافي من الأحذية تجلبه لي، وكما ترى لا أملك حتى حذاء يليق ببدلتكَ.

وضحكنا جميعًا، وذهب عامر، وقلتُ إلى رحمة:

ـ أنا حقيقةً خجل منكِ جدًا، ومن عامر بسبب طلبي الملابس في هذا الوقت، ومحرج جدًا من زوجكِ السابق عامر لتكبده هذه المشقة، ولكني لم أتوقع أبدًا مثل هذه الدعوة المفاجئة، والتي علمنا بها للتو فقط، ولو كان لدي وقت لذهبتُ إلى المدينة لبتياع الملابس اللائقة لي، وأوفر عليكما هذه المشقة.

ـ من حظكَ أنْ كان هنا عامر موجود، وإلَّا ما كنتَ سوف تفعل؟.

ـ لا أدري، قلتُ للشيخ: اعفني من الذهاب، وقال لي إنهم طلبوكَ بالاسم، ولا يمكن رفض دعوتهم.

ـ يبدو أنكَ شخص مهم جدًا يا صالح.

ـ لا تستهزئي بي يا رحمة، إنهم لا يعرفوني سوى ذاك النادل في الخان المغمور، وربما هي تريد أنْ تجعلني أنْ أحلَّ محل الشيخ عندما يرحل عن هنا، وأقوم بخدمة المكان.
ـ هل ستوافق على ذلك؟ (سألتني رحمة).
ـ لا أقدر على ذلك، وسوف أذهب مع سلمان والشيخ للعيش في المدينة، وأنتما مَنْ سوف يذكر الشيخ للأميرة للعمل هنا، وسوف تزوركما بالتأكيد مستقبلًا، ويجب أنْ تكوني متأهبة دائمًا لزيارتها ولاستقبالها.
قلتها في ابتسامة.
وذهبتُ لإخبار الشيخ عن البدلة التي سوف يجلبها عامر، وكان هو كذلك يهيئ بدلة له للمناسبة إياها، وكان مشغولًا بنفض الغبار عنها وإعدادها؛ لتظهر بشكلٍ لائق.
ومضى الوقت قبل أنْ يقدِم عامر ومعه البدلة وزوج من الأحذية، وأعطاني إياها، وقال لي أنْ أجرب الحذاء؛ لأنه لا يعرف القياس الصحيح لي... وكانتْ ضيقة بعض الشيء، ولكنْ لا يوجد حل آخر لي في مثل هذه الفسحة الضيقة من الوقت، وكذلك البدلة التي كانتْ تبدو واسعة علي، والبنطال قصير بعض الشيء، ولكني لا أبدو على الأقل كمهرج؛ بحسب عامر ورحمة؛ مما هدأني قليلًا.
وبدأتُ أتهيأ لهذه الزيارة المهمة جدًا، والتي شغلتني بهواجس كثيرة لعدم علمي ماذا سيكون رد سمو الأميرة إذا رفضتُ أنْ أبقى في العمل في الخان، وقد تغضب علي من هذا الأمر كثيرًا، وهذا ما أقلقني وجعلني أفكّر بالأمر طوال اللَّيل.

تهيأنا في الصباح الباكر جدًا، وارتديتُ البدلة وزوج الحذاء الذي جلبهما عامر لي، وقالتْ رحمة إني أبدو وكأني ذاهب إلى حفلة عُرس.

وأعجبني إطراءهم لي، وربما لأنهم لم يروني من قبل بملابس رسمية أو لائقة، وجُلُّ ما أملك بعض أسمالٍ متهرئة تغطيني إلى أنْ يمكنني أنْ أشتري لي بعض الملابس عندما أذهب إلى المدينة، ولكنْ الآن يجب أنْ أتهيأ لزيارة الأميرة... وكان الشيخ قد حضر مرتديًا بدلة تبدو قديمة، ولكنها لائقة للمناسبة، وقَدِمَ سائقنا المعتاد، والذي تفاجأ برؤيتنا بهذه الملابس، وقال إنْ كان ممكن له أنْ يحضر معنا حفلة العرس المبكرة.

وذكر الشيخ له إننا ذاهبون لزيارة الأميرة.

عندها غيَّر السائق رأيه تمامًا... وبدأ يقودنا إلى المدينة عبر نفس الطريق السريع الذي سلكناه بالأمس، ومضى بنا في الطريق نتحدث عن أسعار العقارات والدُور وأجور الوكيل العقاري، وكذلك الضرائب المترتبة، وغيرها من الأمور المالية، قبل أنْ نصل إلى المدينة... عندها تحوَّل السائق إلى طريقٍ سريعٍ آخر بعد عبوره أحد الجسور المتصلة به، وسألناه أين هو ذاهب؟.

قال لنا:

ـ إنَّ قصر الأميرة الذي تودون الذهاب إليه، يقع في ضواحي المدينة في الجانب الآخر منها بالقرب من ساحل البحر.

بدأتْ مناظر المدينة تتغير كلما قطعنا مسافة أعمق في هذا الطريق، الذي غابتْ عنه الأحياء الفقيرة، وبدأتْ تظهر لنا مشاهد مختلفة من

المنازل الفارهة الكبيرة والمترامية في الأنحاء، ومحاطة بأسوارٍ عالية، وتتخللها الجنائن والحدائق الغنية بأنواع الأشجار العالية والزهور المتنوعة، وتخترقها الطرقات النظيفة والممتلئة بأنواع السيارات الفاخرة، وقلة قليلة جدًا من السابلة، وكأننا في مدينة أخرى مختلفة تمامًا عن تلك الأحياء الصاخبة والشوارع المزدحمة والرؤيا المنعدمة لكثرة اختلاط الغبار مع غاز عوادم العربات المتنوعة.. واقتربنا أكثر مما يبدو وكأنه متنزه كبير ممتد على جانب الطريق، وخرجنا من الطريق السريع؛ لنسلك طريقًا محاذيًا أخذنا إلى شارع آخر، يحاذي المتنزه بديع التنسيق من جهة، وبدا لنا من الجهة الأخرى البحر بمياهه زرقاء اللون، والسفن التي تملأ عبابه، والزبد الأبيض يعتلي قمم أمواجه التي تنهال على الساحل المغطى بالرمال.. وقال لنا السائق:
ـ لقد اقتربنا من قصر الأميرة.

بدأتُ أضع مجددًا قدمي في الحذاء الضيق، الذي أقرضني إياه عامر والذي لا يلائم قدم فلاح مثلي، وقد خلعته في الطريق لإراحة القدم من ضيقه.. وبعد مسيرة لعدة دقائق ظهرتْ لنا خلف الأشجار، التي ترافق الشارع أسوار شاهقة، لا يمكن أنْ ترى ما يجري خلفها، وسرنا بمحاذاة تلك الأسوار؛ لنقترب من بوابة ضخمة مغلقة، ويقف بجانبها حراس مدججين بالسلاح، وانعطف إلى جانب الطريق، وتوقف في مرآب في مقابل البوابة، وقال لنا:
ـ هذا هو المدخل الرسمي للقصر، وفيه مكتب استعلام، يمكننا السؤال هناك.

ولم نبطئ حيث ترجلنا من العربة؛ لنعبر الطريق باتجاه البوابة، وهناك استوقفنا أحد الحراس، وقلنا له:

ـ إنَّ لدينا موعد مقابلة مع سمو الأميرة.

أشار إلينا إلى بناية تقع خلف السور، مضينا إليها، ودخلناها حيث يوجد مكتب خلفه يجلس موظفان وكذلك حراس، وكررنا لهم موعدنا مع سمو الأميرة، وذكرنا له أسماءنا، وسبب المقابلة، وتمَّ تفتيشنا بدقة، ثم أشاروا إلينا للجلوس والانتظار في الغرفة المجاورة لحين البت في الأمر، وجلسنا على كنبات تملأ المكان، وكان هناك ماكنة للقهوة والشاي أشار إليها أحد الموظفين، وقال:

ـ اخدم نفسك بنفسك.

بدأنا نرتشف القهوة اللذيذة على الرغم من أنها نتاج ماكنة غربية حديثة، ونستمتع بمشاهدة التلفاز الذي يبث برامج الأخبار فقط، ومضى وقت طويل حسبته دهرًا، والحذاء يضيق علي خناقه، ولكنْ لا يوجد حل آخر؛ إذ لا يمكنني نزعه الآن، ولكني كنتُ أتوسل أنْ ترانا بسرعة؛ لكي أخرج وأطيح به، وأخلص من عذابه.

امتد الوقت لأكثر من ساعة من الزمان، وبعدها قَدِمَ أحد الموظفين، وأشار إلينا بالذهاب إلى بوابة أخرى، ومنها خرجنا من هذه البناية يرافقنا هذا الموظف إلى وسط الحدائق البديعة المترامية، وبدا لنا القصر من مسافة شامخ بهي بديع البناء بعدة طوابق، مكسي بالرخام الأبيض، وتزينه أعمدة رخامية، وكل أركانها مزخرفة بإتقانٍ، وحواشيه مزركشة بحجر أصفر، وتعلو النوافذ الواسعة والمغطاة بستائر، لا يمكننا استراق النظر من خلالها صفوف من

الأحجار المنقوشة والمزركشة... واقتربنا من سلالم واسعة من أحجار المرمر الأبيض، ويحاذيه درابزن منقوشة من الرخام الأسود تخترقه خيوط بيضاء اللون، وبعد ارتقاء تلك السلالم، فتح لنا أحد الموظفين أحد الأبواب الجانبية؛ لندخل إلى غرفة أنيقة مزدانة بلوحات وتنتشر حولها الكراسي وبعض الطاولات الصغيرة وأشار إلينا بالجلوس والانتظار.. ودارتْ عيناي تتأمل المكان الذي يبدو كأنه غرفة انتظار، ولكنها جميلة الألوان والترتيب.. وأمضينا زهاء نصف الساعة إلى أنْ قَدِمَ موظف آخر؛ ليشير لنا بالقدوم من باب آخر؛ لندخل إلى بهوٍ كبيرٍ شاسعٍ محاط بالأعمدة الرخامية بُنية اللون، وينتصفه سلالم هائلة من الرخام الأبيض، ودرابزن منقوشة بإتقانٍ شديدٍ، وكل الجدران مغطاة بلوحات بديعة، وكذلك تنتشر تماثيل ونحوت في كل الأركان والأرضية مغطاة من المرمر الأبيض، ويوجد في المنتصف سجادة كبيرة بألوان يغلب عليها اللون الأحمر، وتتدلى الشمعدانات هائلة الحجم، وعشرات الأضواء تبرز منها والمصنوعة من الكريستال اللامع من نور الضياء، وتغطي النوافذ القليلة ستائر مخملية حمراء داكنة اللون... وبالحقيقة كنتُ متأنيًا وخجلاً، وأنا أمشي على هذه الأرضية، التي كانتْ تلمع ببريقٍ رائعٍ من شدة النظافة والاعتناء، وتنعكس الأضواء عنها، وحتى الوجوه التي تبدو كالحة نسبة لبريقها، وأشار إلينا الموظف بالوقوف والانتظار، ونسيتُ في تلك اللحظات كل آلام قدمي من ضيق الحذاء؛ لشدة انبهاري بهذا المكان الخيالي... ولم يطل وقوفنا حتى فُتِحَ أحد الأبواب، وتقدمتْ الأميرة يتبعها عدد من الموظفين، وألقتْ السلام علينا، وقالتْ:

ـ كيف حالكما؟ وكيف الخان؟

أجابها الشيخ:

ـ نحن على ما يرام سمو الأميرة، والخان في أحسن حال من خير كرمكِ وعطائكِ.

ـ لكنْ يبدو عليكَ التعب يا شيخ.

ـ حكم العمر يا سيدتي، وطول الخدمة في الخان، وهموم الدنيا التي لا تنتهي، ولذلك جئتُ لأستميحكِ في أنْ أُنهي خدمتي في الخان.

ـ هل وجدتَ أحدًا يقدر أنْ يشغل محلكَ في الخان؟

ـ نعم، هناك الفتاة رحمة التي شاهدتِها يوم تكرَّمتِ بزيارة الخان، وهي من أهل الحي، وتود العمل هناك بجانب شاب آخر اسمه عامر حديث العهد بالخان، ولكنه يود كذلك أنْ يعمل في الخان إنْ أذنتِ سموكِ.

نظرتْ إلي الأميرة:

ـ وماذا عنكَ؟.

وكانتْ توجه الكلام لي، وارتبكتُ وتعثرتُ، وقلتُ لها:

ـ أنا سوف أُرافق الشيخ للسكن في المدينة إنْ سمحتِ بذلك سموكِ.

هنا تدخل الشيخ، وقال:

ـ أنا وحفيدي سوف ننتقل إلى المدينة، وأحتاج مساعدة صالح وبالأخص مع حفيدي، الذي هو متعلق جدًا بصالح، ولكنه طفل معوق ويحتاج رعاية، وأنا غير قادر لوحدي عن توفيرها.

ثم سألتني الأميرة مجددًا:

ـ ماذا سوف تعمل في المدينة يا صالح؟

وكانتْ تنظر إلي بإمعانٍ شديدٍ... أحسستُ بالحرج، وصعد الدم إلى وجهي، وقلتُ لها متعثرًا:

ـ لا أعلم، ولكن سوف أحاول أنْ أجد أي عمل هناك.

عمَّ الصمت للحظات، وكأنها كانتْ تفكر، ثم قالتْ للشيخ:

ـ بودي أنْ أشكركَ كثيرًا على رعايتكَ وخدمتكَ المديدة للخان، أنتَ ومِن قبلكَ والدكَ كل هذه السنين إكرامًا لجدي ولجدتي، وأرجو أنْ تقبل هذه المكافأة كعرفان بجميلكَ على هذه الخدمة.

وتقدَّم السكرتير، وقدَّم للشيخ مظروفًا مغلقًا، وبعدها نظرتْ إلي وقالتْ لي:

ـ يمكنكَ أنْ تعمل هنا كنادل مع باقي الموظفين العاملين هنا في القصر، وسوف يخبركَ كبير الخدم بواجباتكَ هنا، ويجب أنْ تكون مطيعًا، وملتزمًا، ودقيقًا في العمل، وحسن الهندام.

ثم استدارتْ للسكرتير، وقالتْ له:

ـ اصرف له بدل ملابس وتنقُّل؛ لكي يستطيع البدء بالعمل، واشرح له ما يجب أنْ يفعل.

ثم نظرتْ إلينا، وقالتْ:

ـ حسنًا يا شيخ أودُّ لكَ الخير والتوفيق في سكناكَ الجديد، وسوف أسمع أخباركَ من صالح.

وأدارتْ إلينا ظهرها، وقفلتْ عائدة إلى نفس الغرفة.

انتظرنا حتى غابتْ الأميرة عنا، وجاء إلي السكرتير.

ـ متى تقدر أنْ تبدأ بالعمل هنا؟

ونظرتُ إلى الشيخ بحيرة، وأنا لا أعرف ماذا أنْ أقول؟ وهنا قال الشيخ:
ـ الأسبوع المقبل؛ لأنكَ سوف تساعدني في الانتقال إلى المدينة في هذا الأسبوع.
وراقتْ الفكرة للسكرتير، وقال:
ـ تعالى أُريكَ أين سوف تعمل، ومن ثمَّ أُعطيكَ بعض النقود؛ لتشتري لكَ بعض الملابس اللائقة، وسوف أُعطيكَ عنوان المحل في المدينة؛ لتذهب إليه، وتقول له إنكَ من طرفنا، وهو يعرف ماذا سوف ترتدي من ملابس هنا.
وأعطاني كارت باسمه ورقم الهاتف عليه، ثم أخذنا إلى ممرٍ جانبي يؤدي إلى غرفة دخلناها، وكانتْ عبارة عن مطبخٍ كبيرٍ جدًا وفيه بعض العاملين، وقادنا إلى أحد العاملين، ويبدو رجلًا كبيرًا في العمر في منتصف الخمسينيات من عمره، وقال له:
ـ هذا صالح، إنه موظف جديد لديكَ سوف يبدأ الأسبوع المقبل العمل بأمر سمو الأميرة.
تصافحتُ معه، وكان مرحبًا بقدومي للعمل هنا في المطبخ، واستكمل السكرتير حديثه:
ـ سوف ترشده، وتشرح له واجباته، وما يجب أنْ يقوم به، ولكنْ بعد أنْ يشتري له ملابس، ويكمل أشغاله في الخان والمدينة.
خرجنا من المطبخ، وسلمني السكرتير مظروفًا، وقادنا إلى البوابة الخارجية، وودعناه، وأخذنا طريقنا إلى خارج القصر وإلى المرآب

حيث ينتظرنا السائق، الذي أقلنا عائدين إلى الخان، وسألته إنْ كان يعرف المحل، الذي أعطاني عنوانه سكرتير الأميرة.

قال السائق:

ـ إنه يعرف المنطقة التي فيها المحل.

وقلنا:

ـ لنذهب إلى هناك.

وكذلك الشيخ أراد الذهاب إلى مركز المدينة لإيداع المال الذي أعطته إياه الأميرة في المصرف، وتوجهنا إلى مركز المدينة حيث يوجد المحل، وافترقنا هناك حيث ذهب الشيخ إلى البنك، وقال إنه سوف يوافيني إلى المحل بعد انتهائه من مهمة إيداع المال.

ذهبتُ إلى المحل لشراء الملابس، وعند دخولي قَدِمَ إلي أحد العاملين هناك، وذكرتُ له ما هو مرادي، وعرف على الحال ماذا يجب أنْ يجلب لي بعد أنْ أخذ المقاسات.. ثم طلبتُ منه كذلك زوجًا من الأحذية، ونزعتُ عني حذاء عامر الذي آلمَ قدمي بشدة، ولبستُ حذائي الجديد بفرحٍ عارم، وأخذتُ الملابس بعد دفع الحساب والتحق بي الشيخ؛ لنقفل عائدين إلى الخان بعد كل ما أنجزناه في هذا اليوم، الذي أقل ما يوصف أنه لا معقول.

تخيلتُ نفسي وأنا أعمل في القصر، إنه شيء لم يكن في بالي حتى في أحلى أحلام اليقظة التي كانتْ تنتابني بعد جهد العمل في الأرض، وحتى لم أجرؤ على التفكير به، ولكنه في سبيله ليتحقق، ويصبح جزءًا من واقع حياتي الجديدة.

ونحن في طريق العودة سألتُ الشيخ المنتشي بالمبلغ الذي أكرمته إياه الأميرة:

ـ يا شيخ.. هل تصدق ما جرى اليوم؟ إنه حلم، وأنا لا أزال أعيشه لهذه اللحظة، وغير مصدق لما جرى.

ـ لم يطرأ ببالي أنها سوف تكون بمثل هذا الكرم.

وكان يتحدث عن المبلغ الذي أعطته... ثم نظر إلي الشيخ، وقال:

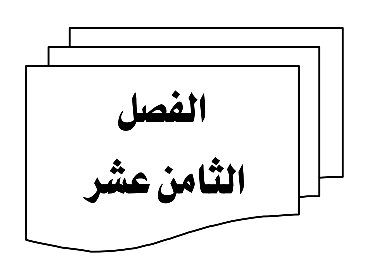
ـ كانتْ تنظر إليكَ بشكلٍ مختلف يا صالح، وأعتقد أنكَ نُلتَ إعجابها كثيرًا، وقد يكون الحظ قد اقترب منكَ جدًا.

ـ لاحظتُ ذلك، لكنْ قد يكون بسبب البدلة المستعارة التي أرتديها، وقد أعطاني انطباعًا آخر.

ضحك الشيخ، وبدأ ينصحني بتوخي الحذر والحرص عندما أبدأ العمل هناك.

وصلنا إلى الخان أخيرًا، وأخبر الشيخ رحمة وعامر بأنهما سوف يتسلمان العمل في الخان حالًا؛ لأننا سوف نبحث عن مكانٍ لنا في المدينة، وأنني سأعمل في قصر سمو الأميرة في الأسبوع المقبل.

كانتْ مفاجأة كبيرة لرحمة وعامر لسماعهما هذه الأخبار، وبالأخص مسألة عملي في القصر، وهو شيء لم يكن متوقعًا حتى لي شخصيًا، وشكرتُ عامر على البدلة بعد أنْ سلمته إياها مع الحذاء، وقلتُ له أني مدين له بهذا المعروف الذي أسداه إلي، وتمنيتُ لهما التوفيق في الحياة بعد أنْ سمعنا منهما أنَّ عامر سوف يطلب يدي رحمة مرة أخرى منها بعد أنْ وافقتْ على طلبه بالزواج منها، ونسيان ما حصل من مشاكل الماضي.



كنا قد عزمنا على البحث عن دارٍ لنسكن فيه في المدينة، ولم نتوانَ في ذلك لضيق الوقت المتاح، وابتدأنا البحث الشاق منذ اليوم الثاني بعد عودتنا من مقابلة الأميرة في قصرها البديع، وكان من رأي الشيخ أنْ نتصل بمعارفه؛ ليمدونا ببعض النصح حول أسعار المنازل في مناطق المدينة.

وارتحلنا مجددًا إلى المدينة برفقة سائقنا، الذي هو خير معين، وله خبرة قيِّمة في معرفة الأحياء التي نود أنْ نسكن فيها، ولم نأخذ وقتًا طويلًا في إيجاد السكن المناسب مع وجود المبلغ المتوفر للشيخ، الذي قام بالإجراءات المطلوبة، وسُهلتْ الأمور الإدارية، وكان الانتقال سلسًا وسهلاً إلى الدار، التي كانتْ تبدو فخمة وواسعة، وتحوي غرفًا متعددة، مطلية من زمنٍ قصيرٍ، ولا تزال رائحة الطلاء تملأ أركانها المشمسة، ويقع وسط حديقة واسعة، ويمتد على جانب الحديقة صف من أشجار النخيل والسرو، وتتوزع الأزهار في كل أركانها التي تتوسطها أرض مغطاة بالنجيل الأخضر.

قلتُ للشيخ:

ـ هنا يمكن لسلمان أنْ يستمتع باللعب واللهو، ويمكن أنْ نضع له بعض المراجيح، ولعب الأطفال في الحديقة.

وافقني الشيخ الرأي بأنَّ المنزل كان جيدًا جدًا، وواسعًا للإقامة فيه، وكان سعيدًا جدًا كما يبدو عليه، وصارحني بالقول:

- هذا هو أول شيء أمتلكه بعد كل هذه السنين، والزمان الذي مضى في الشقاء للغير، وأثمر أخيرًا، على الرغم من أنَّ بعض الأموال جاءتْ من تعب الغير (وكان يقصد ابنه سعد) ولكني سعيد بأني نلتَ شيئًا ما في توالي العمر يبقى لسلمان فيما بعد.

ثم استدركَ بعجلة:

- يجب أنْ نعود أدراجنا؛ لنودع الخان، ونأخذ حاجياتنا من هناك، ونستقر هنا؛ لتبدأ عملكَ الجديد في القصر بأسرع وقت ممكن حتى لا تحصل لكَ أي مشكلات معهم.

عدنا إلى الخان لآخر مرة كما أظن، وأخذنا حاجياتنا القليلة، وودَّعنا رحمة وعامر، وبعض الزوار الذين كانوا متواجدين هناك، وكان وداعًا حزينًا للشيخ الذي يفارق المكان، وحتى أنا أحسستُ بالحزن لفراق الخان، على الرغم من قصر المدة التي قضيتها فيه إلَّا أنها كانتْ حافلة، وفتحتْ آفاقًا لم أكن حتى أحلم بها، ولكني كنتُ أودُّ أنْ أجد فرصة للذهاب إلى قريتي، وإخبار أهلي عن انتقالي وعن محل سكني الجديد، وبالطبع عن عملي المرتقب في القصر، ولكنْ.. كيف سوف يتاح لي ذلك؟.. كنتُ في حيرة من أمري لضيق الوقت، وكثرة الانشغال، والترحال الجديد، وقلتُ: لا بد لي من أنْ أجد وقتًا لعمل ذلك.

وعدنا إلى المسكن الجديد، وكان لا يزال فيه بعض العمال، الذين كانوا يضعون اللمسات الأخيرة على الإنهاءات والتشطيبات في

بعض الغرف، وكانوا كذلك قد جلبوا الأثاث والمفروشات، ورتبوها بحسب مواقعها في فضاءات الغرف، وكان كل شيءٍ يبدو معدًا ومهيأً للسكن...

وبعد أنْ ارتحنا قليلًا وتوزعنا كلًا لغرفته؛ لنضع فيها أغراضنا، ذهب الشيخ مع السائق مجددًا للقيام بالتسوق، وبقيتُ في الدار للقيام ببعض التنظيفات الضرورية، وشغَّلتُ جهاز التلفاز ضيفنا الجديد العزيز جدًا، وكان سلمان جدًا سعيدًا بعد عودته من المدرسة إلى الدار الجديد، وجلس مقابل التلفاز، ولم يبرح مكانه من أمامه على الرغم من نداءاتي المتكررة له لتناول الطعام، وكذلك قمتُ بالاتصال بصديقي قاسم، وأخبرته عن انتقالي إلى المدينة وسكني الجديد، وكان فرحًا جدًا لي، واتفقنا على اللقاء قريبًا... وكان لا بد لي أولًا من معرفة كيفية التنقل في المدينة، واستخدام وسائل النقل العام، والتي تبدو عملية شائكة ومتشابكة وسط الزحام الكبير في مركز المدينة، وربما أحتاج وقت لأعتاد على استخدامها.

ولكنْ كان هناك شيء لم يفارق ذهني، وكنتُ جدًا متردد فيه، وهو سافي الفتاة التي عرفتها صدفة، وأبدتْ لي بعض العواطف، والتي قد تكون وليدة تلك اللحظة الساخنة، ولكنْ ما أخشى أنَّ هذه الأحاسيس قد ذابتْ وذبلتْ مع الوقت ومع البُعد الذي فرقنا، ولكنها لا تزال تشغل حيزًا كبيرًا من فكري، ولم تبرحه أبدًا منذ لقائنا الأول في مكان مغمور وسحري، وبمناسبة حُفرتْ وقائعها في ذاكرتي، ولا تزال تؤجج عواطفي المضطربة كلما خدشتْ الذاكرة بصورتها، وتساءلتُ: هل أتصل بها، وأجدد ما كان بالرغم أنه قد

يكون لها شيئًا عابرًا ومضى؟ وماذا سوف أقول لها؟ وكيف سوف أراها إنْ قدِّر لي ذلك؟...
أسئلة كانتْ تشغل بالي وتحيِّرني، وفضَّلتُ الصبر والانتظار حتى أركِّز تمامًا على عملي الجديد، وبعدها قد أكون قادرًا على الاتصال بها مجددًا، وربما رؤيتها إنْ كانتْ لا تزال تود ذلك.

جلسنا في الصالة حول المائدة الكبيرة التي تنتصب في وسطها، محاطة بالكراسي الخشبية المنقوشة، نتناول الطعام بعد قدوم الشيخ عائدًا مع السائق، الذي شاركنا المائدة كذلك، والتهمنا ما موجود عليها لشدة الجوع بعد يومٍ مجهدٍ وشاقٍ من الترحال، وتربعنا الكنبات في الغرفة المجاورة بعد الانتهاء من الأكل، وكنا نتبادل الحديث عندما رنَّ جرس الباب، وكان مفتش الشرطة زائرنا الكريم المعتاد على عتبة الباب، وهنأ الشيخ على المنزل الجديد بعد أنْ جلس، وقدَّمتُ لضيفنا الشاي، ثم بدأ بالكلام عن سبب زيارته المفاجئة هذه:
ـ مبروك لكما الدار الجديدة، وأنتَ يا صالح مبروك لكَ العمل الجديد.
ـ أشكركَ يا سيادة المفتش.
ـ آسف؛ لأني جئتُ هكذا بلا موعدٍ، ولا هدية بمناسبة انتقالكما إلى الدار الجديدة هذه، ويجب أنْ تعذروني، ولكنْ كان لابد لي من تقفي أثركما بعد أنْ ذهبتُ لزيارتكما في الخان، وأخبروني بأنكما ارتحلتما من هناك، وأعطوني عنوانكما الجديد هذا، وسبب حضوري هو لإبلاغكما، أولًا: بانتهاء محاكمة رنين اليوم بعد عدة

أيام طويلة استغرقتها في المداولات، والمرافعات القضائية، وثانيًا: بأنها قد وُجِدتْ أخيرًا مذنبة بالتهم المنسوبة إليها، وجُرِّمتْ، وحكم القاضي عليها بالسجن المؤبد بتهمة القتل العمد، والحقيقة أنَّ القاضي ذكر في مستهل قراءته للحكم أنه اعتمد بشكلٍ رئيسي في حكمه على شهادة سلمان، واعتبرها الدليل القاطع على ارتكاب رنين للجريمة، بالإضافة إلى باقي الأدلة المقدَّمة من قِبل النائب العام، وأحببتُ أنْ أكون أول مَنْ يخبركَ يا شيخ بهذا الحكم، ونتيجة ما آلت إليه المحكمة، وأرجو أنْ تكون قد ارتحتْ أخيرًا بعد أنْ نال كل مجرمٍ عقابًا يستحقه، وأنْ تطمئن أنَّ موت ابنك لم يذهب سدى، وبدون عقاب عادل.

ترقرقتْ بعض الدموع على وجه الشيخ، وقال:

- أشكركَ يا بني على الجهد الكبير الذي بذلته ولولا جهودكَ؛ لبقيتْ رنين حرة طليقة تنفث شرها في الناس، أتمنى أنْ يكون هذا الكابوس قد انتهى وولَّى إلى الأبد.

- اطمئن، فلن تغادر السجن وهي على قيد الحياة، وأخبرني الآن كيف حال سلمان؟.

- إنه بخير؛ كما ترى؛ ومستمتع كثيرًا بمشاهدة التلفاز، وكذلك بالدار الجديدة.

- وأنتَ يا صالح.. متى تبدأ عملكَ الجديد؟.

- غدًا صباحًا سوف أذهب إلى هناك، وأباشر عملي، لقد أرسلوا إلي رسالة آلية على الهاتف تذكرني بوجوب الالتحاق غدًا بعملي.

ـ هل تعلم كيف سوف تصل إلى هناك؟ أقصد هل تعرفتَ على وسائل النقل في المدينة؟.. إنها معقدة جدًا هنا.

ـ نعم، لدي فكرة عمَّا سوف أستقل غدًا في الصباح الباكر للذهاب للعمل في الوقت المحدد.

ـ طيب أتمنى الخير للجميع.

وهبَّ واقفًا مستعدًا للرحيل، وكذلك نحن لنودِّعه.

ـ لا تنسوا أنْ تتصلوا بي إذا ما احتجتم أي شيء، وسوف أتصل بكَ يا صالح من حينٍ إلى آخر للسؤال والاطمئنان عليكم.

هنا سأل الشيخ المفتش:

ـ يا سيدي قبل أنْ ترحل بالسلامة، هناك سؤال كان يشغل بالي دائمًا، ولم أسألكَ إياه طيلة الفترة الماضية، ربما لقلة أهميته في خضم ما جرى من أحداث متوالية.

ـ قلْ يا شيخ.. ما تود سؤاله؟

ـ لقد أقدم ابني على الانتحار ـ كما ذكرتَ لي يا سيادة المفتش ـ ولكنْ.. هل ترك رسالة ما ليخبر بها عن سبب إقدامه على هذا العمل؟ قد تكون هناك أسباب أخرى دفعته لا نعلم بها.

ـ لقد بحثنا في أرجاء الغرفة التي أقدم سعد على الانتحار بها، ولم نجد أي شيء من هذا القبيل، هل لديكَ أيَّة شكوك يا شيخ؟

ـ لا أقصد التشكيك في أي شيء، ولكنَّ هذا شيء يحصل أنْ يترك المُقدَم على الانتحار رسالة يذكر فيها اللحظات الأخيرة له، وما يشعر به حينها، وكنتُ أُمني النفس بأي ذكرى من ابني قبل رحيله المؤلم ذاك.

ـ آسف يا شيخ لتخييب أملكَ في هذا الأمر، وكما تعلم الدار الذي توفي فيه ابنكَ لا يزال مغلقًا ومفاتيحه أعطيناكَ إياها، ويمكنكَ زيارته، والاطلاع بنفسكَ على الغرفة، وباقي المنزل؛ لتتأكد على الرغم من أني متأكد أننا قمنا بواجبنا على أتم وجه.

خطرتْ فكرة على بالي في غضون ذلك الحديث، وسألتُ المفتش بشكلٍ مفاجئ:

ـ لماذا برأيكَ يا سيادة المفتش عفا المدينون المرحوم سعد عن كل المبلغ الهائل الذي استدانه منهم؟ كان يمكنهم مصادرة أملاكه المتبقية، وإيفاء بعض ديونهم منها، وهذا ما هو متداول وجاري في حالة وفاة المدين بمبالغ كبيرة.

نظر إلي المفتش، وكأنه تفاجأ بهذا السؤال، الذي قد لا يعلم له أي جواب في هذه اللحظة من الزمان، ثم أجاب بعد برهة:

ـ على ما أذكر فإنَّ المدعي العام في القضية، قال لي إنَّ المدينين قد تنازلوا عن استيفاء كامل المبلغ بعد أنْ شرح لهم وقائع القضية بأكملها، وهذا ما أعلمه وبالأخص عندما أقمنا المزاد على البضائع المسروقة، ولكنَّ أسئلتكما ربما تحتاج لإعادة النظر في القضية بأكملها، لقد آثرتما الشك في، وسوف أُعيد قراءة الملف مرة أخرى، والحقيقة لم يخطر ببالي أنَّ وفاة ابنكَ سعد قد لا تعدو كونها انتحارًا نتيجة حالة اليأس والإحباط التي كان يعيشها في ذلك الحين... عمتم مساءً.

ودَّعناه شاكرين له جل خدماته التي قدمها إلينا على مدار هذه الفترة العصيبة من الزمان المليئ بالأحداث، والعديد من الألغاز.

- إنه إنسان طيب، وملتزم، وغيَّر تمامًا فكرتي السابقة الخاطئة بعض الشيء عن الشرطة، أتمنى أنْ يكون هذا الإنسان الشهم قدوة لغيره من رفاقه في المسلك، ولكنْ لا أعرف بالتأكيد إنْ كان مصيبًا بشأن رنين، وأنَّ السجن هو بالحقيقة مقرها النهائي، وأنَّ خطرها قد زال إلى الأبد، وأنَّ القضية قد أُغلقتْ تمامًا، وأنَّ جميع المجرمين يقبعون في السجن.

أخيرًا أقرَّ الشيخ بأنه كان على خطأ في وصمه الشرطة، أو على الأقل البعض منهم؛ بعدم الاكتراث والاهتمام لمشاكل الناس الفقراء والضعفاء المعدومين منهم، وربما كانتْ له تجربة سابقة قاسية معهم في الماضي أفقدته الثقة بهم، وكوَّنتْ انطباعًا لديه بأنهم أداة مطاوعة للأثرياء وذوي النفوذ من الناس، ولكنهم جزء مهم من هذا الكيان الكبير المدعو "المجتمع"، والذي قد لا يتحرك بتناسق وبتوافق بكل أجزائه المختلفة في وقتٍ واحد، لذلك نواجه تجارب عديدة في فترات متباينة من حياتنا منها ما يترك أثرًا عميقًا في داخلنا، يرفض أنْ يغادر إلى أنْ نتمكن من إزاحته ومسح أثره بإرادتنا مهما كان ذاك الأثر عميقًا.

وأثناء سهوي في تفكيري ذاك خطر لي أنْ أسأل الشيخ بسؤالٍ لم يتسنَ لي من قبل طرحه عليه، وفاتنا ذكره مرارًا:

- يا شيخ.. لماذا لم تسأل السيد المفتش عن الفتاة الصغيرة، وعلاقتها برنين، وابنك سعد؟ كان يجب أنْ تستوضح منه هذا الأمر لأهميته، وربما يعلم شيئًا ما، أو على الأقل قد يحاول هو أنْ يستفسر عمَّ تدعيه رنين بطريقته الخاصة؟

ـ لم يخطر ذلك على بالي أبدًا، وحقيقةً غابتْ قضية الفتاة عن ذهني المشغول جدًا في انتقالنا هذا إلى هنا، والذي تمَّ اليوم بسلام ويسر بهمة سائقنا البطل ياسر، الذي ساعدنا كثيرًا، ولكني أعتقد بأني سوف أذهب للقاء رنين مرة أخرى في السجن، والتكلُّم معها عسى أنْ تكشف لي القصة بأكملها.

ودَّعنا سائقنا المغوار ياسر الهمام كذلك، والذي ارتحل بعد أنْ استلم أجرته عن كثيرٍ من الخدمات التي أداها لنا في الأيام السابقة... وذهب بعدها كلٌّ منا إلى غرفته؛ ليرتاح ويخلد إلى النوم، حيث التعب كان قد أخذ مأخذه من أبداننا جميعًا بعد جهد اليوم الكثيف والمتواصل.

استلقيتُ في فراشي أجول النظر في غرفتي الجديدة في الطابق العلوي من الدار، وكانتْ تبدو لي واسعة، وجدرانها نظيفة، وبلا لوحات تقطع انسجام اللون الأبيض الذي يغطيها، ورائحة الطلاء الجديد لا تزال تفوح منه، وتحوي بالإضافة إلى الفراش الواسع خزانة كبيرة للملابس، وطاولة خشبية صغيرة كأنها مكتب مع كرسي بجوارها، وتختفي نافذة كبيرة خلف الستائر المقلمة بألوان متمازجة ما بين الأخضر والبني، تعطي إحساسًا بالهدوء والسكينة في أرجاء المكان.

نهضتُ لأُزيح الستائر عن النافذة لرؤية المدينة في دجى اللَّيل، وكانتْ هذه لي أول ليلة أقضيها هنا، أوسعتُ النظر إلى السماء الغارقة في الظلام، وتحسرتُ لقلة أعداد النجوم الظاهرة من شدة

توهج ضياء المدينة ووميضها الذي لا يخمد في اللَّيل، وجذب بصري بعيدًا كذلك صورة الأفق الذي يمتلئ بالأبنية المرتفعة والمزدانة بالأنوار متعددة الألوان والبراقة كأشجار عيد الميلاد التي رأيتها مرة على شاشة التلفاز، وتمتد إلى الأسفل منها أعمدة النور، والتي تشكّل صفوفًا طويلة متشابكة من المصابيح المضاءة، وتعلوها بعض الرايات المرفرفة مع أنسام الهواء.

بقيتُ منغمسًا أتابع في الظلام الخافت حركة العربات المتنوعة على الطرقات، ومرور الطائرات المضيئة في سماء المدينة، التي تموج بنبض الحياة، ويزخر بها على الرغم من تأخر الوقت وظلام اللَّيل الذي اختلط فيه الساهرون مع الخفافيش... ثم حضرتْ رحمة إلى ذهني للحظات، وخطر لي أني لن أراها بعد الآن، ولكنَّ صورتها سوف تبقى معلقة في ذهني لفترة من الوقت، وفي نفس الوقت أحسستُ بالسعادة الفاترة لها؛ لأنها الآن مع زوجها وحبيبها، وربما أنا مغتاظ بعض الشيء، وأحس بالغيرة. وتعلمتُ من تجربتي درسًا هو أنه لا يمكنني أنْ أنال كل ما أود، ولكني أحس بالحرية من قيود هيمنتها علي بابتعادي عنها، وعن نطاق تأثيرها، وسوف تغيب تمامًا عن ذهني مع الوقت.. ربما.

بقيتُ على هذا الحال الساكن مستغرقًا في النظر الشاعري من خلال زجاج النافذة النظيف إلى أنْ أيقظني، وفاجأني طنين هاتفي النقَّال، وقلتُ في نفسي: مَنْ الذي يتصل الآن بي في هذا اللَّيل؟ عسى أنْ لا يكونوا الشرطة من جديد.

أجبتُ على هاتفي الطنان، والمرتعش بشدة على المكتب لأسمع أحلى صوت يرنم في الهاتف، يقول لي:

ـ كيف حالكَ يا صالح؟

(هل سمعتْ الملائكة نداءات قلبي؟)

ـ أنا بخير يا سافي، كيف حالكِ أنتِ؟.

ـ لم تتصل بي، وقلتُ لا بد أنكَ قد فقدتَ رقم هاتفي.

(ألَّا تعلم أنها، ورقم هاتفها محفورين بمطرقة وأزميل على أذين الفؤاد المرتجف؟!)

ـ كنتُ أنتظر الوقت المناسب لأتصل بكَ.

ـ ألم تتعب بعد من الانتظار؟

ـ لقد تعبتُ أكثر من الفراق، ولكني اقتربتُ كثيرًا منكِ الآن.

ـ في الواقع أم في الخيال يا صالح؟

ـ في الواقع يا سافي، أنا أسكن الآن في المدينة بالقرب منكِ، ألم تسمعي نبضات قلبي حتى الطيور كانتْ ترقص على أنغامها؟. (قلتها ضاحكًا، وممازحًا لها).

ـ سامحني؛ لأني كنتُ أضع سماعة الموسيقى على أذني، ولم تصل أسماعي نبضاتكَ بعد، قلْ لي حقيقةً.. هل انتقلتَ إلى هنا في المدينة؟.

ـ نعم، اليوم أكملنا الانتقال، وكنتُ مزمع الاتصال بكِ لإخباركِ بهذا الأمر، والسؤال عن حالكِ، والأهم جدًا الطلب منكِ إنْ كنتِ لا تزالين تودين رؤيتي.

ـ بالتأكيد أودُّ ذلك، ولم تغادر فكري منذ أنْ عرفتكَ يا صالح، قلْ لي: هل وجدتَ عملًا هنا؟.

ـ نعم وجدتُ عملًا جيدًا، وهو أحد أسباب انتقالي إلى هنا في المدينة.

ـ إذن يمكننا أنْ نرى بعضنا غدًا مساءً إنْ كنتَ تود ذلك، ولا يؤثر بالتأكيد على عملكَ الجديد.

ـ أعدكِ بأنْ لن يقف أي شيء يعوق لقائنا غدًا أبدًا، فقط أرسلي لي رسالة على الهاتف بالمكان، والزمان الذي تودينه، وسوف أكون هناك.

ـ اتفقنا، تصبح على خير يا صالح.

ـ تصبحي على خير يا سافي.

أسدلتُ الستائر، وأطفأتُ ضياء الغرفة، واحتضنتُ الفراش الدافئ، أغلقتْ جفوني محاجرها، وغاب الوعي متسربلًا بأحلام وأمنيات المستقبل الواعدة، وما يخبئه القدر من جديد لي... ولكنْ فجأة أحسستُ بشيءٍ ما ينقر على النافذة النصف مفتوحة، وفتحتُ عيني لأرى ما هناك، وإذا به طائر أبيض كبير كأنه من نوارس البحر جاثم بالقرب من عتبة النافذة.

ـ كيف أنسى غلق النافذة؟ ربما بسبب رائحة الدهان الذي لا يزال طريًا، ولكنْ.. ما أتى بهذا الطير إلى هنا؟ هل تاه طريقه بعيدًا عن البحر الواسع الكبير أم أنَّ هذا كان مكانه من قبل؟

نهضتُ لأبعد الطير عن غرفتي، وأغلق النافذة لكي أعود إلى منامي الجميل، الذي قطعه هبوط هذا الطائر الطفيلي، وتقدَّمتُ منه وإذا به ينقض، ويخطف هاتفي النقَّال من على الطاولة بمنقاره الطويل، ويحاول أنْ يفر به، وقفزتُ لأمسك بجانحه قبل أنْ يطير بعيدًا عني، ويأخذ منِّي كل أحلامي، وأثمن ما أملك على وجه هذا الكوكب.

ـ هل تحسب يا طير أنَّ هذا الهاتف بألوانه الزاهية سمكة شهية على الرغم من جمودها الظاهري أم أنكَ تعتقد أنها زبالة مرمية على قارعة الطاولة؟... قلْ لي: هل الجوع جعلكَ تغزو غرفتي بحثًا عن الطعام؟... لا لن أدع أجنحتكَ تفلتُ من يدي، ولن تغادر المكان قبل ترد ما هو لي أيها الطير الشقي.

أغلقتُ النافذة قبل أنْ يغادرها، وهو يحاول الإفلات بقوة منِّي، ويدفع جسمه بجناحه الآخر، وتعثرتُ بالكرسي بجانب الطاولة، وسقطتُ على أرض الغرفة، واندفع النورس بعد أنْ أفلت منِّي؛ ليجثم على خزانة الملابس بعيدًا عن متناول يدي ومعه هاتفي، ووثبتُ واقفًا أعرج قليلًا من ألم قدمي المصابة من الارتطام بالكرسي.

ـ يا طير.. لماذا سرقتَ حلمي؟ ألم تجد في هذه المدينة المزدحمة من المساكين سواي لتسرقه؟ رد لي هاتفي، وسوف أفتح لكَ النافذة؛ لتعود تحلِّق عاليًا كما تفعل دائمًا، وترجع إلى مكانٍ بالقرب من البحر، ما أتى بكَ هنا بعيدًا عن هناك؟ ولماذا هجرتَ مكانكَ الطبيعي؟ هل زبالة المدينة أفضل لكَ من اصطياد سمكة شهية في

البحر أم كثرتْ الزبالة هنا في المدينة جعلتكَ تتكاسل، وتعيش على اللقيط من الطعام؟ هل أنتَ مثلي تركتَ مكانكَ الذي سأمته ومللته لتبحث لكَ عن شيءٍ جديد؟.

عدلتُ الكرسي المقلوب، وأزحته إلى جانب خزانة الملابس؛ لأرتقيه بالقرب من الطير الجاثم هناك محاولًا استرداد الهاتف، واقتربتُ منه، وهو يطالعني بعينيه الدائرتين الصغيرتين، ومنقاره الذي يحمل هاتفي.
ـ ألم تتعب بعد من حمله بمنقاركَ أم أنه الآن أصبح عزيزًا عليكَ بعد أنْ علقتَ به؟ ألَّا تفهم أنه ليس صالحًا للأكل، ولا يمكن أنْ يفيدكَ امتلاكه؟

مددتُ يدي ببطءٍ شديدٍ؛ لأخطف الهاتف منه بتأني وحرص لئلا يقع ويتضرر، ولكنه ابتعد عني إلى حافة الخزانة، وقلبي بين يدي يرتجف خوفًا على الهاتف العزيز جدًا علي من السقوط والكسر.
ـ ماذا أفعل مع هذا الطائر العنيد، الذي لا يزال متمسكًا بهاتفي ويرفض إخلاء سبيله؟ ليس لكَ يا طير أصدقاء؛ لتتصل بهم، ولا أحباب ترنو لسماع صوتهم، ولا يمكنه أنْ يدلكَ على الطريق؛ لأنكَ تحلّق عاليًا في كبد السماء، وتشاهد كل شاردة وواردة حولكَ، هل أرسلتكَ رنين لتنتقم منّي؟ فقط أعطني هاتفي، ولا تزيد ألمي أكثر من ذلك.

فجأة التمعتْ أضواء الهاتف، وبدأ يرن، ويرتجف بشدة، وسقط من منقاره؛ لأقفز وأحتضنه قبل أنْ يصل الأرض ويتكسر، وأجبتُ الهاتف بسرعة، وكان حينها الرقم محجوبًا، ولم أعرف مَنْ المتصل

بي في هذه الساعة المتأخرة من اللَّيل، والذي لابد أنْ أشكره بشدة على إنقاذه لهاتفي العزيز جدًا علي من براثن هذا النورس الجريء.

ـ نعم، مَنْ المتصل؟.

ـ صالح.. كيف حالكَ؟.

كان صوتًا ناعمًا أثير، لكنه آمر وناهي في نفس الوقت، وكأني سمعته من قبل.

ـ أنا بخير أشكركِ، مَنْ المتصل؟.

ـ أحببتُ فقط أنْ أتأكد من قدومكَ غدًا للعمل.

هل هي إحدى الموظفات في القصر الأميري تتحرى أمري؟ (قلتُ في نفسي)

ـ نعم، بالتأكيد أنا قادم للعمل في الصباح الباكر.

ـ هل اشتريتَ لكَ ملابس لائقة للعمل؟

ـ نعم، وسوف أرتديها غدًا، لم أتعرف بعد إليكِ يا سيدتي؟

ـ ها ها، أنا الأميرة هبة، ألم تعرفني بعد يا صالح؟.

سقط قلبي الجزع في أحشائي المتكورة على نفسها من سماع صوت الأميرة تخاطبني على هاتفي، ونسيتُ آلام قدمي المزمنة.

ـ أأانا آسف يا سمو الأميرة إنْ كنتُ فظًا في الكلام، أرجوكِ أنْ تسامحيني واقبلي اعتذاري الشديد؛ لأني لم يخطر ببالي أبدًا أنَّ أحدًا بمثل مقامكِ السامي، يمكنه أنْ يتصل بي أو حتى يفكر في ذلك.

ـ لا بأس لم تكن فظًا، سوف أراكَ إذن غدًا، وأودكَ أنْ تقدِّم لي الإفطار بنفسكَ في الصباح.

ـ سوف يكون أحلى عمل أقوم به في حياتي.
ـ طيب، تصبح على خير.
ـ تصبحي على ألف خير سموكِ.

أغلقتُ الهاتف، ودسسته في جيبي لئلا يضيع منّي مرة أخرى.
ـ هل أنا في حلم؟

اختلط الواقع جدًا علي، وصحوتُ بعد برهة من الجمود الفكري، ونظرتُ حولي، وكان النورس لا يزال جاثمًا على خزانة الملابس ينظر إلي كمَنْ يستعطفني، ويطلب الرأفة به.

ـ ألّا تزال هنا يا طير؟ لا لن أعطيكَ الهاتف أبدًا، ولا تنتظر جالسًا هناك تتحين الفرصة؛ لتسرقه منّي ثانيةً، أو تأخذ شيئًا آخر منّي؛ لأني لا أملك الكثير ـ كما ترى، اذهب إلى حيث الكنوز تكمن بعيدًا عن هنا في قصر علاء الدين علّكَ تجد خاتم سليمان السحري ليأنس وحدتكَ الغول المارد.

فتحتُ نافذة غرفتي من جديد على مصراعيها؛ لأسمح للطير بالمغادرة، والعودة إلى مكانه في سماء المدينة بلا قيود بعد أنْ دخل غرفتي بلا دعوة، وقلّبَ ليلتي رأسًا على عقب.
ـ أخرج إلى الحرية والهواء الطلق، عساكَ أنْ تجد ما يؤنس وحدتكَ غير هاتفي، الذي لا أملك غيره، ويجب أنْ تستأذن قبل أنْ تأخذ ما ليس لكَ، وبالأخص أحلام المساكين المعدومين مثلي.

خرج الطير خالي الوفاض؛ كما أظن؛ من غرفتي، بعد أنْ دفعته مستخدمًا الفوطة، وحركتها باتجاهه لإخافته، وأغلقتُ نافذتي تمامًا هذه المرة بعد خروجه، وعدتُ إلى فراشي أحتضن هاتفي معي.

عجيبة هذه المدينة، حتى الطيور فيها تحس بالوحدة، وتبحث عمَّا يسليها على الرغم من ازدحامها، ونبض الحياة فيها حتى في هذا اللَّيل الكالح، ترى.. هل سوف يكون حالي فيها كحال هذا النورس في هذه المدينة؟ لا أظن ذلك، وبالأحرى لا أتمنى ذلك.

وعادت صور سافي والأميرة تتبادل المواقع، وتتأرجح فيما بينهما في دفاتر ذاكرتي واسعة الخيال.

لم أقدر على النوم حينها، وبقيتْ عيوني مفتوحة تبصر الظلام بتأمل، وذهني يعمل بشدة على استيعاب ما جرى خلال هذه الدقائق الصعبة التي مضتْ، وألم كاحل قدمي يئن تحت أغطية الفراش الوثيرة... وبقيتُ مستغرقًا بالتفكير لمدة لا حساب للوقت فيها، ونهضتُ بعدها من الفراش مرة أخرى، وأنرتُ الغرفة بعد أنْ أشعلتُ ضياء المصابيح فيها؛ لأرى إنْ كان هناك أي خدوش على هاتفي النقَّال من جراء الصراع المرير غير المتكافئ مع النورس، وإنْ كان هناك أي أثر لمنقاره أو مخالبه عليه، واطمئننتُ بعد أنْ دققتُ فيه، ولم يكن هناك أي أثر يذكر... ثم بدأتُ في استخدامه واللعب في برامجه، ولاحظتُ أنَّ هناك رسائل لي لم أفتحها بعد وبدأتُ بقراءة رسالة مرسلة من سافي، وكتبتْ فيها:
(موعدنا غدًا الساعة السابعة مساءً في قهوة دمنة بالقرب من سينما الخيَّام في شارع الجربان، الذي يحاذي مركز الإحسان، سوف تجد

المكان بسهولة ويسر، وسوف أكون هناك بانتظاركَ، أرجوكَ أنْ لا تتأخر علي؛ لأنَّ وقتي محدود، وأودُّ أنْ أمضيه معكَ كله، وإنْ وددتَ أنْ تجلب معكَ شيئًا لي فأنا أحب كل الورود حتى التي تحمل في أغصانها أشواكًا.
عمتَ مساءً وإلى الغد
سافي....)

كدتُ أطير من الفرح عند انتهائي من قراءة رسالة سافي لي، وتناسيتُ كل آلام كاحل قدمي المزمنة، وقلتُ في نفسي:
ـ نعم، سوف أكون بجانبكِ، وبقربكِ يا سافي في الزمان والمكان الذي حددتِه، ولن أُضيع دقيقة من وقت موعدنا، الذي صبرتُ عليه دهورًا مضتْ منذ لقائنا على القمة، وسقوطي منها في هاوية الحب العميق، نعم، سوف أجلب لكِ ورودًا حمراء تباري لون خدودكِ اليانعة الطرية، مثل شفتيكِ التي حفرتا أثرهما على وجنتي بعد القبلة الأولى، وسوف ألفُّ أغصانها بالحرير حتى لا تؤذي الأشواك أناملكِ الرقيقة... عمتِ مساءً يا سافي، وإلى اللقاء غدًا، إنَّ الوقت الآن قد تجاوز منتصف اللَّيل بكثير، إذن سوف أراكِ اليوم يا أحلى الأحلام.
إلى اللقاء قريبًا جدًا.

أخذتُ مفكرتي المرمية على الطاولة، وفتحتها لأكتب ما جرى لي اليوم من أحداث متوالية وغريبة، وانتبهتُ إلى الورقة المدسوسة في غلاف المفكرة، إنها الورقة ذاتها التي كتبتها لي مالية العرافة في القرية، وفيها رؤيتها لمستقبلي، ولكني لم أفتحها وأقرأ محتواها

أبدًا منذ ذلك الزمان.. هل حان الوقت يا ترى لقرائتها الآن؟ عاودتُ الكتابة في مفكرتي، وبدأتُ أستمع إلى أغنيتي المفضلة قبل أنْ أخلد إلى النوم القرير الهانئ.

كان الأجدر بي أنْ أعلم.

قبل أنْ ترحلِ بعيدًا عني وحدكِ.

في أوقات كهذه في عزلتي.

لا يمكنني أنْ أحيا أبدًا بدونكِ.

أيام ضائعة وليالي طويلة ساهدة.

لا أقدر على الصبر أكثر لرؤياكِ.

وجدتُ أني أضعتُ وقتي.

في انتظار أنْ تتصلي بي.

كي يمكنني أنْ أخبركِ.

أني أعاني ولا أقدر على بعدكِ.

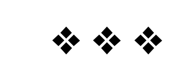
أودكِ أنْ تكوني على الدوم بجانبي

لتُخبريني أنَّ كل شيءٍ حي ومثالي

هل هذا هو الحب الذي أحسه ؟

هل هذا هو الحب الذي أبحث عنه ؟

هل هذا الحب الذي أحلم به ؟



المؤلف في سطور

- إياد زهير هندي
- كاتب وروائي عراقي، من مواليد بغداد، عام ١٩٦٣
- مقيم حاليًا في المملكة المتحدة
- مهندس معماري استشاري
- الاهتمامــات : الكتابــة الادبيــة، والفلســفة الوجوديــة، والتــاريخ (بالاخص التراث المعماري).

- الإصدارات :

ـ رحلة صالح (الكتاب الأول: خان السلمان) : رواية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

ـ البريد الإلكتروني: ayad12@hotmail.co.uk



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net